بسم الله الرحمن الرحيم

شـــــرح

الأربعين النووية

للإمام النووي رحمه الله (٦٧٦ هـ) .

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الإنترنت

www.almotaqeen.net

قناة الشيخ العلمية على التلجرام

https://t.me/aloheemeed

.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ،

أما بعد :

فإن كتاب (الأربعين النووية) للإمام النووي رحمه الله يعتبر من الكتب المهمة التي كتب الله لها القبول والانتشار ، لأنه ضمنها الأحاديث التي هي من أصول الإسلام وقواعده .

ولأهمية هذه الأحاديث التي جمعها النووي رحمه الله ، فقد قمت بشرحها مستعيناً – بعد عون الله – بكلام العلماء .

سائلاً المولى عز وجل أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح .

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

أخوكم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت

www.almotaqeen.net

الحديث الأول

عن أمير المؤمنين أبي حَفْصٍ عمرَ بنِ الخطابِ بنِ نُفَيْلِ بنِ عبدِ العُزّى بن رياحِ بنِ عبدِ اللهِ بن قُرْطِ بن رَزَاحِ بنِ عدِي بنِ كعب بنِ لُؤَيِّ بنِ غالبٍ القُرشِيِّ العَدويِّ ﷺ، قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ (إنّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امرِءٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكَحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْه). مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ .

==========

(**عن عُمَر بْنَ الْخَطَّابِ**) هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيْل القرشي العدوي ، أمير المؤمنين ، وثاني الخلفاء الراشدين ، أسلم في السنة الخامسة أو السادسة بعد البعثة ، فكان في إسلامه عز للمسلمين ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام: ٢٣ هـ ودفن مع النبي ﷺ وأبي بكر، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأياماً .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**) اختلف العلماء في معناها ، هل هما جملتان بمعنى واحد أو مختلفتان ؟

والراجح أن الأولى غير الثانية :

الأولى : (إنما الأعمال بالنيات) سبب ، بيّن النبي ﷺ فيها أن كل عمل لا بد فيه من نية ، كل عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار لا بد فيه من نية ، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملاً بغير نية .

الثانية : (وإنما لكل امرئ ما نوى) نتيجة هذا العمل : إذا نويت هذا العمل لله والدار الآخرة حصل لك ذلك ، وإذا نويت الدنيا فليس لك إلا ما نويت .

فجملة (إنما الأعمال بالنيات) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العمل .

وجملة (وإنما لكل امرئ ما نوى) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العامل .

أما العمل : لا شيء من العمل يقبل ويكون مشروعاً إلا بنية .

أما العامل: فإن حظ العامل من عمله على قدر نيته. فإذا صحت نيته صح ثوابه وعمله وإذا فسدت نيته ضاع ثوابه وفسد عمله.

ومن هنا عظمت عناية السلف بالنية ، قال ابن المبارك (كم من عمل صغير كبرته النية ، وكم من عمل كبير صغرته النية) .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ**) والمراد (بالأعمال) ما يصدر من المكلف ويدخل فيها الأقوال .

(**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ**) الهجرة هنا : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

(**إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) نية وقصداً .

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) ثواباً وحكماً .

(**ومَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا**) حقيقتها ما على الأرض من الهواء والجو مما قبل قيام الساعة .

(**أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا**) نص عليه لشدة الافتتان بها وإلا فهي تدخل ضمن (دنيا يصيبها) .

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**) أي: من حيث أنه لا ثواب له فيها ولا أجر، وقد يكون عليه فيها وزر .

فائدة : ١

هذا الحديث من الأحاديث المهمة التي عليها مدار الإسلام، فهو أصل في الدين وعليه تدور غالب أحكامه .

قال أبو عبد الله : ليس في أخبار النبي ﷺ أجمع وأغنى فائدة من هذا الحديث .

وقال الشافعي: يدخل في سبعين بابًا من أبواب العلم .

وقال النووي – رحمه الله –: أجمع المسلمون على عِظَم موقع هذا الحديث، وكثرة فوائده، وصحته .

وقال العراقي – رحمه الله –: هذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام حتى قيل: إنه: ثُلُث العلم، وقيل: رُبُعه، وقيل: خُمُسه، وقال الشافعيُّ وأحمدُ: إنه ثلث الإسلام .

استحب العلماء أن تستفتح المصنفات بهذا الحديث .

وقال عبدالرحمن بن مهدي: ينبغي لكل من صنف كتابًا أن يبتدئ فيه بهذا الحديث؛ تنبيهًا للطالب على تصحيح النية .

عن الإمام أحمد –رحمه الله– قال: أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات) وحديث عائشة: (مَن أحدَث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رَدٌّ) وحديث النعمان بن بشير: (الحلال بيّن، والحرام بيّن) .

ولأهميته ابتدأ به الإمام البخاري صحيحه، وبدأ به الإمام النووي في كتبه: الأذكار، ورياض الصالحين .

فائدة : ٢

الحديث دليل على وجوب الإخلاص ، وأن الإنسان ليس له من عمله إلا بقدر نيته ، وأن الأجور في الأعمال الصالحة تعظم بعظيم ما في قلب العبد من سلامة القصد وصحة النية .

ولذلك قال ﷺ (وَإِنَّمَا لِكل امْرِئٍ مَا نَوَى) ومثل ﷺ بمثال من الواقع يبين هذا الأمر العظيم، وهو أن المهاجرين صورتهم الظاهرة واحدة، ولكن لما اختلفت النيات كان من هاجر لله ولرسوله مقبول الهجرة، مأجوراً عليها، ومن هاجر لغير ذلك من أمور الدنيا فهجرته مردودة غير مقبولة، ولا مأجور عليها، وقس على ذلك جميع الأعمال الصالحة، قال ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُه) .

فائدة :

والإخلاص : تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

والأدلة على وجوب الإخلاص كثيرة :

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) .

وقال تعالى (قُلْ إني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

وقال ﷺ (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي .

وقال ﷺ . قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم .

وعن محمود بن لبيد. أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر؟ قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء). رواه أحمد

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين:

الأول : أن يكون خالصاً لله .

لحديث الباب .

الثاني : أن يكون موافقاً لسنة النبي ﷺ .

لقوله ﷺ (من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

قال بعض العلماء : حديث (إنما الأعمال بالنيات ...) ميزان للأعمال الباطنة .

وحديث (من أحدث في أمرنا ...) ميزان للأعمال الظاهرة .

فائدة : ٤

الإخلاص له فضائل كثيرة :

أولاً : أنه سبب لمغفرة الذنوب .

والدليل : قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها "والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الإيمان والعبودية في هذه اللحظة ، فمنها : أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً – وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث – أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملأت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير ، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها (أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء والزنا فغفر الله لها) .

ثانياً : أنه يصرف الفتنة عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل .

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

ثالثاً : أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٩٨/١٠) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله . وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد ، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو "إخلاصهم لله" فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين .

رابعاً : أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

خامساً : أنه سبب لمضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ).

قال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال ﷺ (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ...) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام ، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال ﷺ (صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني

سادساً : أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

والدليل على ذلك : قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وفيها أنهم قالوا : اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم ، والقصة معروفه وهي عند البخاري ومسلم .

سابعاً : أنه سبب للنصر على الأعداء .

لحديث سعد رضي الله عنه قال: قال ﷺ (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

ثامناً : أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة .

لقول النبي ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري .

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٦١/١٠) : فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله ، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار .

فائدة : ٥

من أقوال السلف في الإخلاص .

قال الشافعي : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم _ يقصد علمه _ على أن لا ينسب إليّ حرف منه .

قيل لسهل التستري – رحمه الله – : أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب .

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة ، وتميل إلى البطالة والكسل ، وزينت لها الشهوات ولذلك قيل : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعضهم : إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز .

وقال بعضهم لنفسه : أخلصي تتخلصي .

وقال : طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

كان سفيان الثوري يقول : قالت لي والدتي : يا بُني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة .

وقال إبراهيم النخعي : من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه .

وقال الثوري : لو أعلم بالذي يطلب العلم لله لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في منزله فأحدثه بما عندي مما أرجو أن ينفعه الله به .

وقال أبو داود الطيالسي رحمه الله : ينبغي للعالم إذا حرّر كتابه أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الأقران لحسن التأليف .

وعن عون بن عبد الله قال : كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث وكتب بذلك بعضهم إلى بعض : من عمل لآخرته كفاه الله دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس .

وقال أبو يوسف : يا قوم ، أريدوا الله بعلمكم ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلُوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضح .

قال الأعمش : إن لي عشرين سنة ما رأيت مخلصاً في علمه إنما صار العلم حرفة للمفاليس .

قال حمد بن سلمة : من طلب الحديث لغير الله مكر به .

وقال إسرائيل بن يونس : من طلب هذا العلم لله شرُف وسعُد في الدنيا والآخرة ، ومن لم يطلبه لله خسر في الدنيا والآخرة .

فائدة : ٦

فعلى قدر صدق الإنسان وإخلاصه يحفظ .

قال ابن عباس : إنما يحفظ الرجل على قدر نيته .

فائدة : ٧

علامة كون العلم لله :

قال مالك بن دينار : إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمُهُ ، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجوراً أو فخراً .

قال الذهبي : فَمَن طلبَ العلمَ للآخرة كَسَرَه العلمُ وخشع لله .

قال بعض السلف : من ازداد علما ولم يزدد خشية فليتهم علمه .

سُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي :

لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب . [السير ٤٤٩/٢١] .

وقد قيل لذي النون المصري –رحمه الله تعالى– : متى يعلم العبد أنه من المخلصين ؟ فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة ، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

وقيل ليحيى بن معاذ رحمه الله تعالى: متى يكون العبد مخلصاً؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع، لا يبالي من مدحه أو ذمه.

قال النووي : من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي .

قال ابن جماعة: حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة ، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه، وعظيم فضله .

وقال ابن القيم : لا يكون المتعلم ناجياً إلا بهذه الأمور الثلاثة : المخلص في تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علِمَه .

فائدة : ٨

قوله (**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) .

معناها (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) نية وقصداً (فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ثواباً وحكماً .

وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ للعمل الذي يراد به وجه الله والذي يراد به غير الله ، وذلك بالهجرة :

فبعض الناس يهاجر ويدع بلده لله تعالى وابتغاء مرضاته فهذا هجرته لله ويؤجر عليها كاملاً . ويكون أدرك ما نوى ، وبعض الناس يهاجر لأغراض دنيوية ، كمن هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام من أجل المال ، أو من أجل امرأة يتزوجها ، فهذا هاجر لكنه لم يهاجر لله ، ولهذا قال الرسول : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

وقوله ﷺ (ومن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ) أي : هو أظهر للناس أنه مهاجر لله لكن في نيته أنه هاجر من أجل امرأة يتزوجها أو من أجل دنيا يصيبها .

قال ابن الملقن : إن قلت لم ذم على طلب الدنيا وهو أمر مباح لا ذم فيه ولا مدح ؟

قلت : إنما ذم لكونه لم يخرج في الظاهر لطلب الدنيا ، وإنما خرج في صورة طالب فضيلة الهجرة فأبطن خلاف ما أظهر .

فائدة : ٩

الحديث دليل على فضل الهجرة لله ، حيث ضرب النبي ﷺ بها مثلاً في هذا الأصل الأصيل من قواعد الدين .

والهجرة لغة : الترك وشرعاً : ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلى ما يحبه الله ويرضاه .

والهجرة فضلها عظيم :

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين :

أولهما : مراغماً كثيراً .

وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

فائدة : ١٠

وهي ٣ أنواع :

الأول : هجرة ترك المعاصي ، كما قال ﷺ (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) رواه البخاري .

والثاني : مفارقة الدار والتحول عنها ، وهذا له صور أعظمها مفارقة بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والثالث : وهي أعظمها ؛ هجرة القلوب : وهي الهجرة العظيمة ، وهي إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله ﷺ بالمتابعة .

فائدة : ١١

الحديث دليل على أن الأعمال قد تتفق صورة وتختلف قصداً وثواباً وأجراً .

فائدة : ١٢

الحديث دليل على التحذير من الدنيا وفتنتها .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال ﷺ : (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا) . متفق عليه

قال ابن الحنفية : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

قيل لعلي : صف لنا الدنيا ؟ فقال : ما أصف من دار ؟ أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حَزن .

قال ابن القيم : الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا إليها ، فلا ترضى إلا بالدياثة .

وقال : الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها ، فكيف تعدو خلفها .

وقال : على قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة .

وقال بعض الزهاد : دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها .

وقال الحسن البصري : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره .

قال الشاعر في وصف الدنيا :

أحلامُ نومٍ أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيبَ بمثلها لا يخدع

وقال آخر :

الدنيا ساعةْ فاجعلها طاعةْ

والنفس طماعةْ عوّدها القناعةْ

فائدة : ١٣

التحذير من فتنة النساء لقوله (أو امرأة ..) وخصها بالذكر لشدة الافتتان بها .

قال ﷺ (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه .

وقال ﷺ (.. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) رواه مسلم .

وقال ﷺ (ما رأيت من ناقصات عقل ودين، أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن) متفق عليه.

ويكفي في فتنتها قوله ﷺ (إِنَّ المرأَةَ تُقبِلُ فِي صُورَةِ شَيطَانٍ، وَتُدبِرُ فِي صُورَةِ شَيطَان).

قَالَ الْعُلَمَاءُ: مَعنَاهُ: الْإِشَارَةُ إِلَى الهَوَى وَالدُّعَاءِ إِلَى الفِتنَةِ بِهَا، لِمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُفُوسِ الرِّجَالِ مِنَ الميلِ إِلَى النِّسَاءِ وَالِالتِذَاذِ بِنَظَرِهِنَّ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِن، فهي شَبِيهَةٌ بِالشَّيطَانِ فِي دُعَائِهِ إِلَى الشَّرِّ بِوَسوَسَتِهِ وَتَزيِينِهِ لَه.

ومما يدل على خطورة هذه الفتنة أن الله بدأ بها في قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

قال القرطبي: قوله تعالى (مِنَ النساء) بدأ بهِنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال.

وقال ابن كثير : فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد .

قال سعيد بن المسيب : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء .

وقال أبو صالح السمان : بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار في النساء .

فائدة :

الحديث دليل للقاعدة : الأمور بمقاصدها .

فائدة :

اختيار التمثيل بالهجرة؛ لما لها من عظيم الشأن في ذلك العهد، ولعله تَحدَّث الحديث في إبَّان الهجرة من مكة إلى المدينة والدعوة إليها.

يؤيِّد ذلك ما يروى أن رجلاً هاجر من مكة إلى المدينة لا يريد فضيلة الهجرة، وإنما يريد إن يتزوَّج امرأة تُدعى أم قيس ؛ فإن صحَّ أن تكون القصة سبب هذا الحديث كما قيل، كان التمثيل بالمرأة مقصودًا له ﷺ جَرْيًا على كريم عادته من التعليم والإرشاد من غير أن يُحابِه أحدًا بما يكره حياءً أو كرمًا؛ وإلا فالقصة من قبيل المصادفة ليس غير.

قال الحافظ ابن رجب : وقد اشتهر أن قصة مهاجر أم قيس هي كانت سبب قول النبي ﷺ : من كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها أو امرأة يَنكِحها ، وذَكَر ذلك كثيرٌ من المتأخرين في كُتبهم، ولم نرَ لذلك أصلاً يَصِحُّ، والله أعلم .

فائدة :

يجب الحذر من آفات الإخلاص من رياء وسمعة، ومن عجب، ومن طلب الدنيا بعمل الآخرة، فإن من وقعت هذه الآفات في أصل عمله، حبط عمله كله، وأما ما وقع منها في أثناء عمله حبطت الزيادة التي أدخلها على العمل لغير وجه الله.

فائدة :

أشار الحديث إلى أنه من ملهيات الدنيا وشواغلها اتباع الشهوات، وأُكد على هذا المعنى بالخصوص لخطره.

فائدة :

ينبغي للمعلم أن يضرب لطلابه الأمثلة التي تثبت لهم فهم القاعدة.

فائدة :

بالنية الصالحة تتحول العادات إلى عبادات .

وذلك بأن يعمل المسلم شيئًا من المباحات، وينوي به أن يكون وسيلة لما أُمر به شرعًا، أو ينوي به خيرًا، فإنه يؤجر عليه، ومثال ذلك: الأكل والشرب، إذا نوى التقوِّيَ بهما على طاعة الله تعالى أثيب على ذلك، ومثل: النوم، إذا نوى به التقوِّيَ على طاعة الله تعالى من قيام الليل وصلاة الفجر وقراءة القرآن وغير ذلك، أثيب عليه .

ولما سأل أبو موسى الأشعري معاذ بن جبل – رضي الله عنهما – عن كيفية قراءته للقرآن، قال معاذ (أنام أول الليل، فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتَب الله لي، فأحتسب نَوْمتي كما أحتسب قَوْمتي) رواه البخاري .

وفي رواية لابن أبي شيبة وغيره (أنام أول الليل وأتقوَّى به على آخره، وإني لأرجو الأجر في رقدتي كما أرجوه في يقظتي) .

وقال التابعي الجليل زُبَيد بن الحارث اليامي رحمه الله: يسرني أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في الأكل والنوم .

الحديث الثاني

٢-عن عمر بن الخطاب ﷺ، قَالَ (بَيْنَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُول الله ﷺ ذَاتَ يَومٍ، إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إلَى النَّبيّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إلَى رُكْبَتَيهِ، وَوَضعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ، وَقالَ: يَا مُحَمَّدُ، أخْبِرني عَنِ الإسلامِ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : الإسلامُ: أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحَمَّداً رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبيلاً ، قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ! قَالَ: فَأَخْبِرني عَنِ الإيمَانِ. قَالَ أنْ تُؤمِنَ باللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ: صَدقت. قَالَ: فأَخْبِرني عَنِ الإحْسَانِ. قَالَ : أنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأنَّكَ تَرَاهُ فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ ، قَالَ: فَأَخْبِرني عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ ،. قَالَ: فأخبِرني عَنْ أمَارَاتِهَا. قَالَ: أنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وأنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي البُنْيَانِ ، ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيّاً، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ. قَالَ: فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يعلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ) رواه مسلم.

==========

(**إذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رجل**) أي : ملك، في صورة رجل .

(**شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ**) زاد في رواية ابن حبّان: سواد اللحية .

(**لا يُرَى عَلَيهِ أثَرُ السَّفَرِ**) وفي "مستخرج أبي نعيم": (لا نَرَى عليه أثرَ سفر، ولا يعرفه منا أحد) ووقع في حديث أبي هريرة ﷺ عند البخاريّ في "التفسير" (إذ أتاه رجل يمشي) وفي حديث أبي هريرة، وأبي ذر عند النسائيّ (وإنا لجلوس، ورسول الله ﷺ في مجلسه، إذ أقبل رجل، أحسن الناس وجهًا، وأطيب الناس ريحًا، كأن ثيابه لَمْ يمسها دنس، حتى سلّم في طرَف البساط، فقال: السلام عليكم يا محمد) .

(**وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أحَدٌ**) يعني أنهم تعجّبوا من كيفيّة إتيانه، ووقع في خاطرهم أنه إما ملكٌ، أو جنّيّ؛ لأنه لو كان بشرًا إما أن يكون من المدينة، أو غريبًا، ولم يكن من المدينة؛ لأنهم لَمْ يعرفوه، ولم يكن إتيانه من بعيد؛ لأنه لَمْ يكن عليه أثر السفر، من الغبار وغيره.

فإن قيل : كيف عَرَف عمر ﷺ أنه لَمْ يعرفه أحد منهم.

أجيب : بأنه يحتمل أن يكون استند في ذلك إلى ظنه، أو إلى صريح قول الحاضرين. وهذا الثاني – كما قال الحافظ – أولي، فقد جاء ذلك في رواية عثمان بن غياث، فإن فيها: "فنظر القوم بعضهم إلى بعض، فقالوا: ما نعرف هذا .

(**حَتَّى جَلَسَ إلَى النَّبيّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إلَى رُكْبَتَيهِ**) إنما جلس هكذا؛ ليتعلّم الحاضرون جلوس السائل عند المسئول؛ لأن الجلوس على المركبة أقرب إلى التواضع والأدب .

(**فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْه**) . **قيل** : معناه أن الرجل الداخل وضع كفيه على فخذي نفسه وجلس على هيئة المتعلم .

وقيل : معناه وضع كفيه على فخذي النبي ﷺ .

وهذا الصحيح لحديث أبي هريرة وأبي ذر عند النسائي (... إذ أقبل رجل أحسن الناس وجهاً ، وأطيب الناس ريحاً، كأن ثيابه لم يمسّها دَنَس، حتى سلم في طرف البساط ، فقال : السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام، قال: أدْنو يا محمد ؟ قال : ادْنُهْ ؟ فما زال يقول : ادنو ؟ مراراً ويقول له : ادن ، حتى وضع يده على ركبتي رسول الله ﷺ) .

واختلف العلماء في الحامل له على ذلك :

والصحيح أن الحامل له على ذلك : الإيغال في التعمية لئلا يعرف ، فإن هذا فعل جفاة الأعراب ، وأما قول من قال : إنه فعل ذلك كحال المؤدب ، فإن ذلك ليس حال المؤدب .

قال في "الفتح": فيه إشارة لما ينبغي للمسئول من التواضع، والصَّفْح عما يبدو من جفاء المسائل، والظاهر أنه أراد بذلك المبالغه في تعمية أمره؛ ليقوي الظن بأنه من جُفَاة الأعراب، ولهذا تخطى الناس، حتى انتهى إلى النبي ﷺ كما تقدم، ولهذا استغرب الصحابة صنيعه، ولأنه ليس من أهل البلد وجاء ماشيًا، ليس عليه أثر سفر.

(**وَقالَ: يَا مُحَمَّدُ**) فإن قيل: كيف بدأ بالسؤال قبل السلام؟

أجيب: بأنه يحتمل أن يكون ذلك مبالغةً في التعمية لأمره، أو ليبين أن ذلك غير واجب، أو سلم فلم ينقله الراوي.

وهذا الثالث هو الصواب، فقد ثبت في رواية حديث أبي هريرة، وأبي ذرّ المتقدّم عند النسائيّ قوله (حتى سلم من طرف البساط، فقال: السلام عليك يا محمد، فرد عليه السلام ...) .

(**أَخْبِرني عَنِ الإسلامِ**) قال القرطبيّ: الإسلام في اللغة: هو الاستسلام، والانقياد، ومنه قوله تعالى (قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) أي انقدنا، وهو في الشرع: الانقياد بالأفعال الظاهرة الشرعيّة، ولذلك قال ﷺ فيما رواه أنس ﷺ عنه: "الإسلام علانية، والإيمان في القلب"، ذكره ابن أبي شيبة في "مصنّفه .

(**فَقَالَ رَسُول الله ﷺ : الإسلامُ: أنْ تَشْهدَ أنْ لا إلهَ إلاَّ الله وأنَّ مُحمَّداً رسولُ الله، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيتَ إن اسْتَطَعْتَ إلَيْهِ سَبيلاً**) سيأتي الكلام عنها في حديث ابن عمر إن شاء الله .

(**قَالَ: صَدَقْتَ**) أي : قال السائل صدقت .

(**فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقهُ!**) وفي حديث أبي هريرة، وأبي ذرّ عند النسائي (فلما سمعنا قول الرجل: صدقت أنكرناه) وفي رواية مطر الوراق (انظروا إليه كيف يسأله، وانظروا إليه كيف يصدقه) وفي حديث أنس (انظروا وهو يسأله، وهو يصدقه، كأنه أعلم منه) وفي رواية سليمان بن بريدة (قال القوم: ما رأينا رجلًا مثل هذا، كأنه يُعَلِّم رسول الله ﷺ يقول له: صدقت صدقت).

قال القرطبي : إنما عَجِبوا من ذلك؛ لأن ما جاء به النبي ﷺ، لا يُعرَف إلَّا من جهته، وليس هذا السائل ممن عُرف بلقاء النبي ﷺ ولا بالسماع منه، ثم هو يسأل سؤال عارف، محقّق مصدّق؛ فتعجبوا من ذلك، تعجب المستبعد لأن يكون أحد يعرف تلك الأمور المسئول عنها من غير جهة النبيّ ﷺ .

(**قَالَ: فَأَخْبِرني عَنِ الإِيمَانِ**) قال في "الفتح": قوله: "قال: الإيمان: أن تؤمن بالله ... " إلخ: دل الجواب أنه عَلِم أنه سأله عن متعلقات الإيمان، لا عن معنى لفظه، وإلا لكان الجواب الإيمان: التصديق .

(**قَالَ أنْ تُؤمِنَ باللهِ**) أي : بوجوده وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته .

(**وَمَلائِكَتِهِ**) وهو التصديق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله تعالى (عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) (لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ) وأنهم سفراء الله بينه وبين رسله، والمتصرّفون كما أذن لهم في خَلْقه.

(**وَكُتُبِهِ**) معنى الإيمان بكتب الله تعالى: التصديق بأنه كلام الله تعالى، وأن ما تضمّنته حقّ وصدق.

(**وَرُسُلِهِ**) ومعنى الإيمان بالرسل: التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به عن الله تعالى، وأن الله تعالى أيّدهم بالمعجزات الدّالّة على صدقهم، وأنهم بلّغوا عن الله تعالى رسالاته، وبيّنوا للمكلّفين ما أمرهم الله تعالى ببيانه، وأنه يجب احترامهم، وألا يُفرَّق بين أحد منهم. قاله القرطبيّ.

(**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**) أي يوم القيامة، سُمِّي به؛ لأنه آخر أيام الدنيا، أو آخر الأزمنة المحدودة، والمراد الإيمان به، وبما فيه من البعث والحساب، ودخول أهل الجنّة الجنّةَ، وأهل النار النارَ إلى غير ذلك، مما ورد النصّ القاطع به. قاله الطيبيّ .

وقال القرطبيّ: معنى الإيمان باليوم الآخر: هو: التصديق بيوم القيامة، وما اشتمل عليه من الإعادة بعد الموت، والنشر، والحشر، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، وأنهما دار ثوابه، وجزائه للمحسنين، والمسيئين، إلى غير ذلك، مما صحّ نصّه، وثبت نقله. (القرطبي) .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ الآتي: "وتؤمن بالبعث"،

(**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّهِ**) وهو الإيمان بالقدر أنه تعالى علم مقادير الأشياء، وأحوالها، وأزمانها قبل إيجادها .

(**قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ الإِحْسَانِ**) إحسانُ العبادة: الإخلاص فيها، والخشوع وفراغ البال حالَ التلبس بها، ومراقبة المعبود.

(**قَالَ : أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإِنَّهُ يَرَاكَ**) قال "الفتح": أشار في الجواب إلى حالتين، أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه، حتى كأنه يراه بعينه، وهو قوله: "كأنك تراه": أي وهو يراك، والثانية أن يستحضر أن الحق مُطّلِع عليه، يَرَى كل ما يعمل، وفو قوله: "فإنه يراك"، وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله، وخشيته، وقد عبر في حديث أبي هريرة ﷺ الآتي بقوله: "أن تخشى الله كأنك تراه"، وكذا في حديث أنس ﷺ .

وقال النووي: معناه إنك إنما تراعي الآداب المذكورة، إذا كنت تراه ويراك؛ لكونه يراك، لا لكونك تراه، فهو دائمًا يراك، فأحسن عبادته، وإن لم تره، فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه، فاستمر على إحسان العبادة، فإنه يراك، قال: وهذا القدر من الحديث أصل عظيم، من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ .

(**قَالَ: فَأَخْبِرنِي عَنِ السَّاعَةِ**) أي : متى تقوم الساعة؟ وقد صرّح به في حديث أبي هريرة ﷺ، واللام للعهد، والمراد يوم القيامة. قاله في الفتح .

(**قَالَ مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**) أي : لست بأعلم منك بها .

(**قَالَ: فأخبِرنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا**) أي : علاماتها .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ (وسأحدّثك عن أشراطها) وعند البخاري في "التفسير": (ولكن سأحدثك) وفي بعض الروايات: (ولكن لها علامات، تعرف بها) .

ويجمع بين هذه الاختلافات بأنه ﷺ ابتدأ بقوله: "وسأخبرك"، فقال له السائل: "فأخبرني"، ويدل على ذلك روايةٌ عند البخاري بلفظ: "ولكن إن شئت، نبأتك عن أشراطها، قال: أجل"، ونحوه في حديث ابن عباس، وزاد: "فحدثني".

(**قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا**) سيأتي معناها إن شاء الله .

(**وأَنْ تَرَى الحُفَاةَ**) بالضمّ: جمع حاف، وهو الذي لا يلبس في رجله نعلًا أو غيرها .

(**العُرَاةَ**) بالضمّ أيضًا جمع عار: وهو الذي لا يلبس على جسده ثوبًا .

(**العَالَةَ**) بتخفيف اللام: جمع عائل، وهو الفقير .

(**رِعَاءَ الشَّاءِ**) وإنما خصّ رعاء الشاء بالذكر؛ لأنهم أضعف أهل البادية. قاله القرطبيّ .

وفي حديث أبي هريرة ﷺ (إذا رأيت الرِّعَاء البهم) وعند البخاريّ (وإذا تطاول رعاة الإبل البهم) .

(**يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**) أي : يتفاخرون في طول بيوتهم، ورفعتها .

(**فإنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يعْلِّمُكُمْ أمْرَ دِينكُمْ**) وعند النسائي (ليعلمكم أمر دينكم) أي وقواعد دينكم، وإسناد التعليم لجبريل مجازي، لأنه كان السبب في الجواب.

فائدة : ١

أهمية هذا الحديث .

هذا الحديث يُطلَق عليه أُمُّ السُّنَّة؛ لاشتماله على جميع مراتب الدين، وهو من الأحاديث التي عليها مدار الدين.

قال الحافظ في الفتح: قال القرطبي: هذا الحديث يصلح أن يقال له أم السنة، لما تضمنه من جمل علم السنة .

وقال الطيبي: لهذه النكتة استفتح به البغوي كتابيه "المصابيح" و"شرح السنة" اقتداء بالقرآن في افتتاحه بالفاتحة، لأنها تضمنت علوم القرآن إجمالاً .

وقال القاضي عياض : اشتمل هذا الحديث على جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان ابتداء وحالا ومآلا، ومن أعمال الجوارح، ومن إخلاص السرائر، والتحفظ من آفـات الأعمال، حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه.

فائدة : ٢

ينبغي للمسلم أن يحضر مجالسَ العلم، وهو على هيئةٍ وصورةٍ حَسَنةٍ مِن لُبْس أجملِ الثياب، وكذلك إذا ذهب إلى عالمٍ ربَّاني؛ ليَسأَلَه في أمور دينه أن يكون على هيئة حسنة؛ لقوله : شديدُ بَياضِ الثياب، شديدُ سَوادِ الشَّعر .

فائدة : ٣

الحديث دليل على استحباب السؤال في العلم .

قال تعالى (فاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) .

وقد قيل : السؤال نصف العلم .

وقال الزُّهْري : إنما هذا العلم خزائن، ومِفْتاحُها المسألة .

وكان الخليل بن أحمد – رحمه الله – يقول: العلوم أقفال، والسؤالات مفاتيحها .

وقال ابن القيم: وقد جعل الله سبحانه لكل مطلوب مِفْتاحًا يفتح به؛ فجعل مفتاح الصلاة الطهور، كما قال ﷺ: "مفتاح الصلاة الطهور" ومفتاح الحج الإحرام، ومفتاح البر الصدقة، ومفتاح الجنة التوحيد، ومفتاح العلم حسن السؤال، وحسن الإصغاء.

وكان يقال: مَن رقَّ وجهه عن السؤال رقَّ علمه عند الرجال، ومَن ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه.

فائدة : ٢

الحديث دليل على أنه ينبغي لمن حضر مجلس علم، ورأى أن الحاضرين بحاجة إلى معرفة مسألة ما، ولم يسأل عنها أحد، أن يسأل هو عنها . وإن كان هو يعلمها . لينتفع أهل المجلس بالجواب .

فقد كان غرض جبريلَ عليه السلام من أسئلته هذه أن يتعلم المسلمون، وهذا ما بينه النبيُّ ﷺ بقوله (فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أتاكم يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُم) وفي رواية أبي هريرة عند البخاري ومسلم (هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا) .

فائدة : ٣

استحباب جلوس العالم بمكان يختص به ويكون مرتفعاً إذا احتاج لذلك لضرورة تعليم ونحوه.

ففي حديث أبي هريرة قال (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْماً لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ ...) .

وقد جاء في بعض روايات هذا الحديث في أوله (كان رسول الله ﷺ يجلس بين أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيهم هو ، فطلبنا إليه أن نجعل له مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه ، قال: فبنينا له دكاناً من طين كان يجلس عليه).

فائدة : ٤

الحديث دليل على أنه ينبغي للسائل حسن الأدب بين يدي معلمه ، وأن يرفق في سؤاله . قاله النووي .

ويشهد لهذا ما في رواية عطاء بن السائب عن يحي بن يعمر (فقال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا ثم قام فتعجبنا لتوقيره رسول الله ثم قال أدنو يا رسول الله قال نعم فدنا حتى وضع فخذه على فخذ رسول الله ﷺ) .

وفي رواية علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن ابن عمر عند أحمد (ما رأينا رجلاً أشد توقيراً لرسول الله ﷺ من هذا) .

قال الشافعي : لا يطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح ، لكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلم وتواضع النفس أفلح .

وقال عبد الله بن المعتز : المتواضع في طلب العلم أكثرهم علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماء .

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن الملَك يجوز أن يتمثل لغير النبي ﷺ فيراه ، ويتكلم بحضرته وهو يسمع ، وقد ثبت عن عمران بن حصين أنه كان يسمع كلام الملائكة .

فائدة : ٦

الحديث دليل لجمهور أهل السنة على أن الإسلام غير الإيمان (وهذا عند الاجتماع) .

فالإسلام هو الأعمال الظاهرة ، والإيمان هو الأعمال الباطنة .

أ-لقوله تعالى (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ) .

فهذه الآية أثبت لهم الإسلام ونفت عنهم الإيمان مما يدل على أن مرتبة الإيمان أعلى .

فالمراد بقوله (أسلمنا) أي : دخلنا في الإسلام على القول الصحيح في معنى الآية ، والدليل على أن المراد به الإسلام وليس الاستسلام قوله (وإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً) فدل على أنهم إذا أطاعوا الله ورسوله مع هذا الإسلام ، آجرهم الله على الطاعة .

قال ابن كثير : استفيد من هذه الآية أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة .

ب-ولحديث الباب ، فإنه سأل النبي ﷺ عن الإسلام وعرفه النبي ﷺ بأركان الإسلام، ثم سأله عن الإيمان وعرفه بأنه أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ... ، وهذا يدل على الفرق بينهما.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: إذا قرن الإسلام بالإيمان فإن الإسلام يكون الأعمال الظاهرة من نطق اللسان وعمل الجوارح، والإيمان الأعمال الباطنة من العقيدة وأعمال القلوب، ويدل لهذا التفريق قوله تعالى (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم)، ويدل لذلك أيضاً حديث عمر بن الخطاب ...

ولحديث الباب ، فهو من أهم الأدلة على ذلك .

فائدة : ٧

وجوب الإيمان بالله .

والإيمان بالله يتضمن عدة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بوجود الله دون شك ولا ريب.

وقد دل على وجوده سبحانه الفطرة والعقل والشرع والحس.

أما الفطرة: فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سبق تفكير أو تعليم، وقد قال ﷺ (ما من مولود يولد إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجسانه) متفق عليه.

وأما العقل: فلأن هذه الموجودات والمخلوقات سابقها ولاحقها لابد لها من خالق أوجدها، إذ لا يمكن أن توجد بنفسها، لأن الشيء لا يخلق نفسه، ولا يمكن أن توجد صدفة، لأن كل حادث لابد له من محدِث، وكل موجود لابد له من موجِد. (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ).

وأما الحس: فإننا نسمع ونشاهد من إجابة الداعين وغوث المكروبين ما يدل دلالة قاطعة على وجوده سبحانه وتعالى.

قال تعالى (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ).

وعن أنس (أن أعرابياً دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله! هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا، فرفع يديه ودعا فثار السحاب ونزل المطر ...) متفق عليه.

وأما دلالة الشرع: فلأن الكتب السماوية كلها ناطقة بذلك.

الأمر الثاني: الإيمان بربوبية الله تعالى.

أي: بأنه الرب لا شريك له ولا معين، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، فهو خالق كل شيء ومالكه ومدبره.

قال تعالى (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ).

وقال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ).

وقال تعالى (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

الأمر الثالث: الإيمان بألوهيته.

أي: بأنه الإله الحق لا شريك له، فكل من اتخذ إلهاً مع الله فألوهيته باطلة.

قال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ).

الأمر الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

أي: إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو وصفه به رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على الوجه اللائق به من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

قال تعالى (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

فائدة : ٨

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالملائكة .

والملائكة: عالم غيبي خلقوا من نور، جعلهم الله طائعين له متذللين له.

والإيمان بهم يتضمن عدة أمور:

أولاً: الإيمان بوجودهم، فمن أنكر وجودهم فهو كافر لأنه مكذب لله ولرسوله.

ثانياً: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم كجبريل وإسرافيل ومن لم نعلم اسمه نؤمن بهم إجمالاً.

ثالثاً: الإيمان بما علمنا من صفاتهم، كصفة جبريل، فقد أخبر النبي ﷺ أنه رآه على صفته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح وقد سد الأفق.

رابعاً: الإيمان بما علمنا من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى كتسبيحه والتعبد له ليلاً ونهاراً بدون ملل ولا فتور.

قال ابنُ حَجَر: الإيمانُ بالملائِكةِ هو التصديقُ بوُجودِهم، وأنهم كما وصفهم اللهُ تعالى عبادٌ مُكرَمون، وقَدَّم الملائِكةَ على الكُتُب والرُّسُل نظرًا للترتيبِ الواقِعِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى أرسل المَلَكَ بالكِتابِ إلى الرَّسول .

وسيأتي إن شاء الله زيادة شرح عن الملائكة عند الحديث : ٤ .

فائدة : ٩

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالكتب المنزلة .

والإيمان بالكتب: هو التصديق الجازم بأن لله كتباً أنزلها على أنبيائه ورسله، وهي من كلامه حقيقة، وأنها نور وهدى، وأن ما تضمنته حق وصدق، ولا يعلم عددها إلا الله، وأنه يجب الإيمان بها مجملة إلا ما سمي منها وهي: التوراة أنزلت على موسى، والإنجيل أنزلت على عيسى، والزبور أنزلت على داود، والقرآن أنزل على محمد ﷺ .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً).

قال ابن حجر : الإيمانُ بكُتُبِ الله التصديقُ بأنها كلامُ اللهِ، وأنَّ ما تضمَّنَته حَقٌّ .

وقال ابنُ أبي العِزّ : أمَّا الإيمانُ بالكُتُبِ المُنَزَّلةِ على المرسَلين، فنؤمِنُ بما سمَّى اللهُ تعالى منها في كِتابِه، من التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، ونؤمِنُ بأنَّ للهِ تعالى سوى ذلك كتُبًا أنزلها على أنبيائِه لا يعرِفُ أسماءَها وعَدَدَها إلَّا اللهُ تعالى .

وقال حافظٌ الحَكَمي : معنى الإيمانِ بالكُتُبِ التصديقُ الجازمُ بأنَّ كُلَّها مُنَزَّلٌ من عند اللهِ عَزَّ وجَلَّ على رُسُلِه إلى عبادِه بالحَقِّ المبِينِ والهُدى المستَبِينِ، وأنَّها كلامُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لا كلامُ غَيرِه، وأنَّ اللهَ تعالى تكلَّم بها حقيقةً كما شاء، وعلى الوَجهِ الذي أراد؛ فمنها المسموعُ منه من وَراءِ حِجابٍ بدونِ واسطةٍ، ومنها ما يُسمِعُه الرَّسولَ الملَكيَّ، ويأمُرُه بتبليغِه منه إلى الرَّسولِ البَشَريِّ... ومنها ما خَطَّه اللهُ بيَدِه عَزَّ وجَل .

فائدة : ١٠

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالرسل .

والإيمان بالرسل يتضمن عدة أمور:

أولاً: أن رسالتهم حق من عند الله تعالى، فمن كفر برسالة واحد منهم فقد كفر برسالة الجميع.

كما قال تعالى (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) فجعلهم الله مكذبين لجميع الرسل، مع أنه لم يكن رسول غيره حين كذبوه.

ثانياً: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه، وقد ذكر الله في كتابه خمسة وعشرين نبياً ورسولاً، وأما ما لم نعلم اسمه فنؤمن به إجمالاً، فالله أرسل رسلاً لم يقصصهم علينا ولا يعلم عددهم إلا الله قال تعالى (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً).

ثالثاً: الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوا بياناً لا يسع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله قال تعالى (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ).

قال ابنُ رَجَبٍ: الإيمانُ بالرُّسُلِ يلزمُ منه الإيمانُ بجَميعِ ما أخبروا به من الملائكةِ، والأنبياءِ، والكِتابِ، والبَعثِ، والقَدَرِ، وغيرِ ذلك من تفاصيلِ ما أخبروا به من صِفاتِ اللهِ وصِفاتِ اليومِ الآخِرِ، كالميزانِ والصِّراطِ، والجَنَّةِ والنَّارِ .

وقال ابنُ أبي العِزِّ: أمَّا الأنبياءُ والمرسَلون، فعلينا الإيمانُ بمن سَمَّى اللهُ تعالى في كِتابِه مِن رُسُلِه، والإيمانُ بأنَّ اللهَ تعالى أرسل رُسُلًا سِواهم وأنبياءَ، لا يَعلَمُ أسماءَهم وعَدَدَهم إلَّا اللهُ تعالى الذي أرسلهم، فعلينا الإيمانُ بهم جملةً؛ لأنَّه لم يأتِ في عَدَدِهم نَصٌّ .

وقال ابنُ حَجَرٍ: الإيمانُ بالرُّسُلِ: التصديقُ بأنَّهم صادقون فيما أخبروا به عن اللهِ، ودَلَّ الإجمالُ في الملائِكةِ والكُتُبِ والرُّسُلِ على الاكتفاءِ بذلك في الإيمانِ بهم من غيرِ تفصيلٍ، إلَّا من ثبت تسميتُه، فيجبُ الإيمانُ به على التعيينِ .

وقال حافِظٌ الحَكَميُّ مُبَيِّنًا معنى الإيمانِ بالرُّسُلِ: هو التصديقُ الجازمُ بأنَّ اللهَ تعالى بعث في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا منهم يدعوهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه، والكُفرِ بما يُعبَدُ مِن دُونِه، وأنَّ جميعَهم صادِقون مُصَدَّقون بارُّون راشِدون كِرامٌ بَرَرةٌ أتقِياءُ أُمَناءُ هُداةٌ مُهتَدونَ، وبالبراهينِ الظَّاهِرةِ والآياتِ الباهِرةِ من رَبِّهم مُؤَيَّدون، وأنَّهم بلَّغوا جميعَ ما أرسلهم اللهُ به، لم يَكتُموا ولم يُغَيِّروا، ولم يزيدوا فيه من عند أنفُسِهم حَرفًا ولم يَنقُصوه .

فائدة : ١١

الحديث دليل على وجوب الإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة .

وسمي اليوم الآخر بهذا الاسم، لأنه بعد انقضاء هذه الدنيا بأيامها ولياليها، فآخر ليلة منها صبيحتها ذلك اليوم الطويل ولا ليل بعده.

والآخرة في اصطلاح القرآن هي الحياة الآخرة.

الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ يَتَضَمَّنُ ثَلاثةَ أمورٍ:

الأوَّلُ: الإيمانُ بالبَعثِ: وهو إحياءُ الموتَى .

الثَّاني: الإيمانُ بالحِساب والجَزاءِ: يُحاسَبُ العَبدُ على عَمَلِه، ويُجازَى عليه...

الثَّالِثُ: الإيمانُ بالجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهما المآلُ الأبَديُّ لِلخَلقِ... ويَلتَحِقُ بالإيمانِ باليَومِ الآخِرِ: الإيمانُ بكُلِّ ما يَكونُ بَعدَ الموتِ .

قال القرطبي : الإيمانُ باليَومِ الآخِرِ: هو التَّصديقُ بيَومِ القيامةِ، وما اشتَمَلَ عليه مِنَ الإعادةِ بَعدَ الموتِ، والنَّشْرِ، والحَشْرِ، والحِسابِ والميزانِ والصِّراطِ، والجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهما دارَا ثَوابِه وجَزائِه لِلمُحْسِنِينَ والمسيئِينَ، إلَى غَيرِ ذلك مِمَّا صَحَّ نَصُّه، وثَبَتَ نَقلُه .

وقال ابنُ الملَقِّن : (اليومُ الآخِرُ) هو يومُ القيامةِ، وما اشْتَمَلَ عليه مِنَ البَعثِ والجزاءِ والحِسابِ، والميزانِ والصِّراطِ، والجنَّةِ والنَّارِ

وقال السَّعديّ : كُلُّ ما جاءَ في الكِتاب والسُّنَّةِ مِمَّا يَكونُ بَعدَ الموتِ فإنَّه داخِلٌ في الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ؛ كأحوالِ القَبرِ والبَرزَخِ ونَعيمِه وعَذابِه، وأحوالِ يَومِ القيامةِ وما فيها مِنَ الحِساب والثَّوابِ والعِقابِ والصُّحُفِ والميزانِ والشَّفَاعةِ، وأحوالِ الجَنَّةِ والنَّارِ وصَفاتِهما وصَفاتِ أهلِهما، وما أعَدَّ اللَّهُ لِأهلِها إجمالًا وتَفصيلًا، كُلُّ ذلك مِنَ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ .

وقال حافِظٌ الحَكَميُّ في مَعنَى الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ: مَعناه التَّصديقُ الجازِمُ بإتيانِه لا مَحالةَ، والعَمَلُ بموجِبِ ذلك. ويَدخُلُ في ذلك الإيمانُ بأشراطِ السَّاعةِ وأماراتِها الَّتي تَكونُ قَبلَها لا مَحالةَ. وبالموتِ وما بَعدَه من فتنةِ القَبرِ وعَذابِه ونَعيمِه، وبالنَّفخِ في الصُّورِ وخُروجِ الخَلائِقِ مِنَ القُبورِ وما في مَوقِفِ القيامةِ مِنَ الأهوالِ والأفزاعِ وتَفاصيلِ المحْشَرِ: نَشْرُ الصُّحُفِ، ووَضْعُ الموازينِ، وبالصِّراطِ

والحَوضِ، والشَّفَاعةِ وغَيرِها، وبالجَنَّةِ ونَعيمِها الَّذي أعلاه النَّظَرُ إلَى وَجهِ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ، وبالنَّارِ وعَذابها الَّذي أشَدُّه حَجْبُهم عَن رَبِّهم عزَّ وجَلَّ.

تنبيه :

وللإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة:

منها: الرغبة في فعل الطاعات والحرص عليها رجاء لثواب ذلك اليوم.

ومنها: الرهبة من فعل المعصية والرضى بها خوفاً من عقاب ذلك اليوم.

ومنها: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة وثوابها.

قال السَّفارينيّ : اعلَمْ أنَّه يَجِبُ الجَزمُ شَرعًا أنَّ اللَّهَ تَعالَى يَبعَثُ جَميعَ العِبادِ ويُعيدُهم بَعدَ إيجادِهم بجَميعِ أجزائِهمُ الأصليَّةِ، وهيَ الَّتي من شأنِها البَقاءُ من أوَّلِ العُمرِ إلَى آخِرِه، ويَسوقُهم إلَى مَحْشَرِهم لِفصلِ القَضاءِ؛ فإنَّ هَذا حَقٌّ ثابتٌ بالكِتاب والسُّنَّةِ وإجماعِ سَلَفِ الأمَّةِ، مَعَ كَونِه مِنَ المِمكِناتِ الَّتي أخبَرَ بها الشَّارِعُ .

وقال ابنُ عُثَيمين : الكِتابُ والسُّنَّةُ تَدُلُّ على ثُبوتِ الآخِرةِ، ووُجوبِ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ، وأنَّ لِلعِبادِ حَياةً أخرَى سِوى هَذِه الحَياةِ الدُّنيا، والكُتُبُ السَّماويَّةُ الأخرَى تُقَرِّرُ ذلك وتُؤَكِّدُه .

فائدة : ١٢

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالقدر .

ومن الأدلة على وجوبه وأنه من أركان الإيمان :

قوله تعالى (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) .

وقوله تعالى (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) .

وَقوله تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وَقَالَ تَعَالَى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً) .

فائدة : ١٣

في قوله ﷺ (وأن تؤمن بالقدر خيرِه وشره) دليل على أن كل الموجودات من خير وشر من الله .

فإن قيل : ما الجواب عن حديث علي –في صحيح مسلم– عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (أَنَّهُ كَانَ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ قَالَ :وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِى لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ **وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ** ...) .

الجواب :

قيل: أن الشر لا يتقرب به إليك.

وإلى هذا ذهب الخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، ويحيي بن معين، والطحاوي.

وقيل: إن الشر لا يضاف إليك على انفراده، فلا يقال: يا خالق الشر، يا مقدر الشر، ويا خالق الخنازير.

وإلى هذا ذهب أبو عثمان الصابوني.

وقيل: أن الشر لا يصعد إليك.

وقيل: أن المعنى أن الله لا يخلق شراً محضاً، وأن الشر الذي يخلقه تعالى ليس شراً بالنسبة إليه، لأنه صادر عن حكمة بالغة، فقضاء الله وقدره كله خير لا شر فيه بوجه من الوجوه، وإنما يكون الشر في المقضي الذي هو مفعوله ومخلوقه.

وإلى هذا القول ذهب ابن تيمية، وابن القيم.

قال ابن تيمية: وَلِهَذَا كان النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ (وَالْخَيْرُ بِيَدَيْك. وَالشَّرُّ لَيْسَ إلَيْك) فَإِنَّهُ لَا يَخْلُق شَرًّا مَحْضًا. بَلْ كُلُّ مَا يَخْلُقُهُ: فَفِيهِ حِكْمَةٌ، هُوَ بِاعْتِبَارِهَا خَيْرٌ. وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِيهِ شَرٌّ لِبَعْضِ النَّاسِ. وَهُوَ شَرٌّ جُزْئِيٌّ إضَافِيٌّ. فَأَمَّا شَرٌّ كُلِّيٌّ، أَوْ شَرٌّ مُطْلَقٌ: فَالرَّبُّ مُنَزَّهٌ عَنْهُ. وَهَذَا هُوَ الشَّرُّ الَّذِي لَيْسَ إلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّرُّ الْجُزْئِيُّ الْإِضَافِيُّ: فَهُوَ خَيْرٌ بِاعْتِبَارِ حِكْمَتِهِ. وَلِهَذَا لَا يُضَافُ الشَّرُّ إلَيْهِ مُفْرَدًا قَطُّ. بَلْ إمَّا أَنْ يَدْخُلَ فِي عُمُومِ الْمَخْلُوقَاتِ، كَقَوْلِهِ (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ). وَإِمَّا أَنْ يُضَافَ إلَى السَّبَبِ كَقَوْلِهِ (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ). وَإِمَّا أَنْ يُحْذَفَ فَاعِلُهُ، كَقَوْلِ الْجِنِّ (وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله : ليس في القدر شر ، وإنما الشر في المقدور ، يعني ليس فعل الله وتقديره شراً ، الشر في مفعولات الله لا في فعله ، والله لم يقدر هذا الشر إلا لخير .

كما قال تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) هذا بيان سبب الفساد .

وأما الحكمة فقال (ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) إذاً هذه مصائب مآلها الخير .

فائدة : ١٤

الحديث دليل على وجوب مراقبة الله، وأن ذلك من أسباب إحسان العمل .

لقوله (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) .

فالإحسان (ركن واحد)، أي: شيء واحد، ليس فيه تعدد .

والإحسان على مرتبتين، واحدة أعلى من الأخرى:

الأولى: مرتبة المشاهدة أو المعاينة: (أن تعبد الله كأنَّك تراه) .

بأن يبلغ يقين العبد وإيمانه بالله؛ كأنه يُشاهد الله جل جلاله عيانًا؛ لكمال اليقين وكمال الإخلاص، فيعبد ربه عبادة المشاهد للمشهود، بحيث لو كُشفت الحجب لم يزدد عما هو عليه .

ومن بلغ هذه المرتبة فقد بلغ غاية الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، والله جل وعلا لا يُرى في الدنيا، وإنما يُرى في الآخرة، ولكن يراه بقلبه؛ حتى كأنه يراه بعينيه، ولذا يُجازى أهل الإحسان بالآخرة بأن يروه سبحانه وتعالى، فلمَّا عبدوه وكأنهم يرونه في الدنيا، جازاهم بأن يروه بأبصارهم في دار النعيم، قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة) والزيادة هي: النظر لوجه الله جل وعلا، فلما أحسنوا في الدنيا أعطاهم الله الحسنى، وهي الجنة، وزادهم رؤية الله عز وجل.

الثانية: مرتبة المراقبة: (فإنْ لم تكن تراه، فإنه يراك) .

يعني: إذا لم يتحقق شهوده بقلبه، فليعبده عبادة من يعلم أنه مطلع عليه، فالعبد لا يرى ربه، ولكن الله يراه، فينبغي للعبد استحضار مراقبة الله جل وعلا له واطلاعه عليه، فيعبد الله جل وعلا على مقام الإحساس بمراقبة الله للعبد بأن يعلم أن الله يراه، ويعلم حاله، وما تخفيه نفسه، واطلاع الله جل وعلا ورؤيته وعلمه لا يقتصر على حال الإنسان الظاهرة، بل يشمل الظاهر والباطن، فلا يليق بالعبد أن يعصيه، وأن يخالف أمره، وهو يراه ويطلع عليه، وهذا إحسان في العمل على سبيل المراقبة والخوف والرجاء.

فالإحسان : فهو إتقان الباطن والظاهر بعبادة الله على وجه المشاهدة أو المراقبة .

قال ابن قدامة : أراد بذلك ـ أي الإحسان ـ استحضار عظمة الله، ومراقبته في حال العبادة .

وقال ابن الأثير : أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة، وحسن الطاعة .

وقال النووي في شرحه للحديث : فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة، ومراقبة العبد ربه ـ تبارك وتعالى ـ في إتمام الخشوع والخضوع .

وقال ابن حجر: وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع، وفراغ البال حال التلبّس بها، ومراقبة المعبود .

تنبيه :

قال الشنقيطي : فسر النبي ﷺ الإحسان بقوله لما سأله جبريل ما الإحسان ؟ (أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) رواه مسلم .

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقينياً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق ، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل .

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) ولم يقل أيكم أكثر عملاً .

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) .

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). (أضواء البيان).

فائدة : ١٥

الحديث دليل على وجوب مراقبة الله، وأن ذلك من أسباب الإحسان، ولمراقبة الله فضائل عظيمة :

أولاً : فضل مراقبة الله في السر توجب للعبد الإخلاص والخلاص من الكبائر .

كما ورد في الحديث (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله) متفق عليه.

ثانياً : النصح في العبادة .

كما قال رسول الله ﷺ (إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قِبَل وجهه فإن الله قِبَل وجهه إذا صلى) متفق عليه .

ثالثاً : تورث القلب خشية وخشوعاً وبكاء .

كما في الحديث (ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

رابعاً : ومن قدر على معصية الله في سره ثم راقب الله فتركها خوفاً من الله له ثواب عظيم وينفرج همه وينفس كربه .

كما في قصة صاحب الغار الذي خلا بابنة عمه وتمكن منها ثم قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه فقام وتركها وترك المال الذي أرادته خوفاً من الله تعالى فانفرج الغار لعمله.

خامساً : من راقب الله في السر حسن عمله وعظم يقينه، ووجد حلاوة الإيمان، واطمأن قلبه، وقذف الله نوراً في قلبه وضياء في وجهه، ووجد سعة في رزقه وبركة في أهله وألفة ومحبة فيما بينه وبين الخلق وانعكس ذلك على حياته بالتوفيق والرضا والسعادة.

سادساً : عبادة السر من أجل الطاعات ، لأنها مبنية على حسن المراقبة لله والإخلاص المحض واليقين التام وعدم التفات القلب للمخلوقين وثوابهم .

ولذلك أثنى الله عز وجل على صدقة السر فقال: (إِن تُبْدُواْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِي وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لُّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير) .

وجاء في السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلّه: (رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وكان من دعاء النبي ﷺ (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة) .

أن العبد يخشى الله سراً وعلانية ، ظاهراً وباطناً ، فإن أكثر الناس قد يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن خشية الله في الغيب إذا غاب عن أعين الناس فقد مدح الله من خافه بالغيب .

سابعاً : أنها من أفضل الطاعات وأعلاها .

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وَأَحْسِنُواْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين) ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء... في عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة .

ثامناً : أن بها يكسب العبد رضا الله سبحانه وتعالى عنه.

تاسعاً : أنها من أعظم البواعث على المسارعة إلى الطاعات.

عاشراً : أن بها يحصل العبد على معيّة الله وتأييده.

الحادي عشر : أنها تعينه على ترك المعاصي والمنكرات.

قال ابن الجوزي : فقلوب الجهال تستشعر البُعْد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي، إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكُفَّ عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط .

وقال ابن القيم : فإن الإحسان إذا باشر القلب منعه من المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه لم يكن ذلك إلا لاستيلاء ذِكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك يحول بينه وبين إرادة المعصية، فضلاً عن مواقعتها .

وقال أيضاً: فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته .

الثاني عشر : أنها من خصال الإيمان وثمراته.

فائدة : ١٦

الحديث دليل على أن حسن السؤال من أسباب تحصيل العلم .

قيل لابن عباس : بما بلغت العلم ؟ قال : بلسان سؤول ، وقلب عقول .

وقال الزهري : العلم خزانة مفتاحها المسألة .

وسئل الأصمعي : بما نلت ما نلت ؟ قال : بكثرة سؤالي ، وتلقفي الحكمة الشرود .

وقال ميمون بن مهران: حسن المسألة نصف الفقه.

وقال الإمام النووي رحمه الله: استحباب تلطُّف السائل في عبارته وسؤاله للعالم.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قال ابن المنير: في قوله: (يُعلِّمكم دينَكم) دلالة على أن السؤال الحسن يُسمَّى علمًا وتعليمًا؛ لأن جبريل لم يصدر منه سوى السؤال، ومع ذلك سمَّاه علمًا، وقد اشتهر قولهم: حُسْن السؤال نصفُ العلم.

قال ابن قيم الجوزية : وللعلم ست مراتب؛ أولها: حسن السؤال، الثانية: حسن الإنصات، الثالثة: حسن الفهم، الرابعة: الحفظ، الخامسة: التعليم، السادسة وهي ثمرته: وهي العمل به ومراعاة حدوده .

فائدة : ١٧

الحديث دليل على مشروعية الرحلة في طلب الحديث .

ورحل جابر بن عبد الله شهراً كاملاً في مسألة .

وهذا عقبة بن الحارث سافر من مكة إلى المدينة ليلقى رسول الله ﷺ يسأله عن مسألة رضاع وقعت له .

وكان سعيد بن المسيب يقول : إن كنت لأسهر الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد .

فائدة : ١٨

الحديث دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب .

فائدة : ١٩

الحديث دليل على أنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم .

وقد سئل ﷺ عن أحب البقاع إلى الله ؟ فقال : لا أدري .

وقد قالت الملائكة (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا) .

وقال ﷺ كما في حديث الباب : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل .

وقال ابن مسعود : من كان عنده علم فليقل ، ومن لم يكن عنده علم فليقل : الله أعلم .

وسئل الشعبي عن شيء فقال : لا أدري ، فقيل له : ألا تستحيي من قولك لا أدري وأنت فقيه العراقين ؟ فقال : لكن الملائكة لم تستح حين قالت سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا .

وقال البراء : لقد رأيتُ ثلاثمائة من أهل بدر ما منهم أحد إلا وهو يحبُّ أن يكفيَه صاحبُه الفتوى .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى : أدركتُ عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله يسأل أحدهم عن المسألة فيردها إلى هذا، وهذا إلى هذا حتى ترجع إلى الأول .

وقال ابن وهب : وكنت أسمعه – أي مالكاً – كثيراً ما يقول : لا أدري ، ولو كتبنا عن مالك لا أدري لملأنا الألواح .

وقال ابن عباس : إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقاتله .

وقال الشعبي : لا أدري نصف العلم .

وعن عقبة بن مسلم قال : صحبت ابن عمر أربعةً وثلاثين شهراً فكان كثيراً ما يُسأل فيقول : لا أدري ، ثم يلتفت فيقول : أتدري ما يريدون هؤلاء ؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً إلى جهنم .

قال ابن عيينة : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً .

وقال مالك : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون من أهل المدينة .

قال ابن القيم : وقد حرم الله القول عليه بغير علم في الفتيا والقضاء وجعله من أعظم المحرمات بل جعله في المرتبة العليا، قال الله تعالى (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) .

وقيل : ينبغي للعالم أن يورث أصحابه لا أدري لكثرة ما يقولها .

قال ابن جماعة : واعلم أن قول (لا أدري) لا يضع من قدر العالم كما يظنه بعض الجهلة ، بل هي رفعة له ، لأنه دليل على عظم محله وعلى ورعه وعلى تقواه وعلى طهارة قلبه ، إنما يأنف من قول (لا أدري) من ضعفت ديانته وقلت معرفته .

وقد أدب الله العلماء بقصة موسى مع الخضر حيث لم يرد موسى العلم إلى الله تعالى لما سئل : هل أحد في الأرض أعلم منك ؟

فائدة : ٢٠

الحديث دليل على إجابة السائل بأكثر مما سأل .

فإن النبي ﷺ لما أجاب السائل عن الساعة ؟ بجواب جامع ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، لم يكتف بذلك وإنما زاده أن بين له بعض أماراتها ، فقال : وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّتَهَا ، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ ، فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ "، ثُمَّ تَلا النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَة) .

فائدة : ٢١

الحديث دليل على أنه لا يدري أحد متى الساعة ، وقد استأثر الله بعلمها ، فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً.

قال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) .

وقال تعالى (يَسْأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا . فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا . إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) .

قال ابن كثير : أي ليس علمها إليك، ولا إلى أحد من الخلق، بل مردها ومرجعها إلى الله، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين .

لكن هي قريبة : قال تعالى (اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ) .

وقال تعالى (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) .

فائدة : ٢٢

أن للساعة علامات تدل على قربها .

وعلامات الساعة تنقسم إلى قسمين :

أشراط صغرى .

وهي التي تتقدم الساعة بأزمان متطاولة ، وتكون من نوع المعتاد ، كقبض العلم ، وظهور الجهل ، وشرب الخمر ، والتطاول في البنيان .

أشراط كبرى .

وهي الأمور العظام التي تظهر قرب قيام الساعة ، وتكون غير معتادة الوقوع ، كظهور الدجال ، ونزول عيسى، وخروج يأجوج ومأجوج ، وطلوع الشمس من مغربها .

فائدة : ٢٣

من علامات الساعة أن تلد الأمة ربتها ، وقد اختلف في معناها ؟

قال الخَطابيُّ: قَولُه: (إذا ولدَتِ الأمَةُ رَبَّتَها) مَعناه اتِّساعُ الإسلامِ واستيلاءُ أهلِه على بلادِ الكُفرِ، وسَبيُ ذَراريِّهم، فإذا مَلَكَ الرَّجُلُ الجاريَةُ مِنهم فاستَولَدَها كان الوَلَدُ مِنها بمَنزِلةِ رَبِّها؛ لأنَّه وَلَدُ سَيِّدِها .

قال النووي : وفِي الرِّوَايَة الْأُخْرَى (رَبَّهَا) عَلَى التَّذْكِير ، وَفِي الْأُخْرَى : بَعْلَهَا وَقَالَ يَعْنِي السَّرَارِيّ . وَمَعْنَى رَبَّهَا وَرَبَّتَهَا . سَيِّدهَا وَمَالِكهَا وَسَيِّدَتهَا وَمَالِكَتهَا قَالَ الْأَكْثَرُونَ مِنْ الْعُلَمَاء هُوَ إِخْبَار عَنْ كَثْرَة السَّرَارِيّ وَأَوْلَادهنَّ؛ فَإِنَّ وَلَدهَا مِنْ سَيِّدهَا بِمَنْزِلَةِ سَيِّدهَا؛ لِأَنَّ مَال الْإِنْسَان صَائِر إِلَى وَلَده ، وَقَدْ يَتَصَرَّف فِيهِ فِي الْحَال تَصَرُّف الْمَالِكِينَ ، إِمَّا بِتَصْرِيحِ أَبِيهِ لَهُ بِالْإِذْنِ ، وَإِمَّا بِمَا يَعْلَمهُ بِقَرِينَةِ الْحَال أَوْ عُرْفِ الِاسْتِعْمَالِ . (نووي)

وقال ابنُ رَجَبٍ: الْمُرادُ بِرَبَّتِها سَيِّدَتُها ومالِكَتُها، وفي حَديثِ أبي هُرَيرةَ (رَبَّها) ، وهَذِه إشارةٌ إلى فتحِ البِلادِ، وكَثرةِ جَلبِ الرَّقيقِ حَتَّى تَكثُرَ السَّراريُّ، ويَكثُرَ أولادُهُنَّ، فتَكونَ الأمَةُ رَقيقةً لسَيِّدِها وأولادُه مِنها بمَنزِلَتِه، فإنَّ وَلَدَ السَّيِّدِ بمَنزِلةِ السَّيِّدِ، فيَصيرُ وَلَدُ الأمَةِ بمَنزِلةِ رَبِّها وسَيِّدِها.

وقال ابنُ بازٍ: أشراطُ السَّاعةِ كثيرٌ، مِنها ما أخبَرَ به النَّبيُّ ﷺ لِجبرائيلَ (أن تَلِدَ الأمَةُ رَبَّتَها) الأَمَةُ: يَعني الْمَملوكةَ، رَبَّتَها، وفي رِوايةٍ أخرى (رَبَّها)، يَعني: سَيِّدَها مِنها؛ لكَثرةِ الإماءِ بسَبَبِ السَّبي، وقَد وقَعَ هذا في عَهدِ النَّبيِّ ﷺ، وبَعدَه كثُرَ السَّبايا، وتَملَّكَ النَّاسُ الإماءَ، واستولَدوهُنَّ، هذا واقِعٌ من قَديمٍ .

تنبيه :

ترجيح ابن حجر :

قال : أن يَكثُرَ العُقوقُ في الأولادِ، فيُعامِلُ الوَلَدُ أمَّه مُعامَلةَ السَّيِّدِ أمَتَه مِنَ الإهانةِ بالسَّبِّ والضَّربِ والاستِخدامِ، فأُطلِقَ عليه رَبُّها مُجازًا لذلك، أوِ الْمُرادُ بالرَّبِّ الْمُربِي، فيَكونُ حَقيقةً، وهذا أوجَهُ الأوجُهِ عِندي لعُمومِه، ولِأنَّ الْمَقامَ يَدُلُّ على أنَّ الْمُرادَ حالةٌ تَكونُ مَعَ كونِها تَدُلُّ على فسادِ الأحوالِ مُستَغرَبةً ومُحَصِّلُه الإشارةُ إلى أنَّ السَّاعةَ يَقرُبُ قيامُها عِندَ انعِكاسِ الأمورِ، بحَيثُ يَصيرُ الْمُربَّى مُرَبِّيًا والسَّافِلُ عاليًا، وهو مُناسِبٌ لقَولِه في العَلامةِ الأخرى: أن تَصيرَ الحُفَاةُ مُلوكَ الأرضِ . (الفتح)

فائدة : ٢٤

من علامات الساعة (أَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ) .

وفي حديث أبي هريرة (وإذا تَطاوَلَ رُعاةُ الإبلِ البُهْم في البُنيانِ) .

يعني من علامات القيامة أن ترى أهل البادية ممن ليس لهم لباسٌ، ولا نعلٌ، بل كانوا رعاء الإبل والشاء يتوطّنون البلاد، ويتّخذون العقار، ويبنون الدور والقصور المرتفعة.

قال الخَطَّابِيُّ: في قَولِه (إذا تَطاوَلَ رُعاةُ الإبلِ البُهم في البُنيانِ) يُريدُ العَرَبَ الذينَ هم أربابُ الإبلِ ورُعاتُها. والبُهْمُ: جَمعُ البَهيمِ، وهو الْمَجهولُ الذي لا يُعرَفُ. ومِن هذا قيل: أبهَمَ الأمرُ وهو مُبهَمٌ، واستَبهم الشَّيءُ: إذا لَم تُعرَفْ حَقيقَتُه؛ ولِذلك قيلَ للدَّابةِ الَّتي لا شِيَةَ في لَونِها: بَهيمٌ .

وقال القرطبي : المقصود الإخبار عن تبدل الحال ، فاستولى أهل البادية على الأمر ، وتملكوا البلاد بالقهر ، فتكثر أموالهم وتنصرف همومهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به ، وقد شاهدنا ذلك في هذه الأزمان . فمن علامات الساعة : أي يتفاخرون في طول بيوتهم ورفعتها ، يعني من علامات القيامة أن ترى أهل البادية ممن ليس لهم لباس ولا نعل بل كانوا رعاء الإبل والشاء يتوطّنون البلاد ، ويتخذون العقار ، ويبنون الدور والقصور المرتفعة .

وقال النَّوَوِيُّ: مَعناه: أنَّ أهلَ الباديةِ وأشباهَهم من أهلِ الحاجةِ والفاقةِ تُبسَطُ لَهم الدُّنيا حَتَّى يَتَباهون في البُنيانِ .

وقال ابنُ رَجَبٍ: العَلامةُ الثَّانيةُ (أن تَرى الحُفاةَ العُراةَ العالةَ) والمرادُ بالعالةِ: الفُقراءُ، كقَولِه تعالى (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) .

وقَولُه: (رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلونَ في البُنيانِ) هَكَذا في حَديثِ عُمَرَ، والمرادُ: أن أسافِلَ النَّاسِ يَصيرونَ رُؤساءَهم، وتَكثُرُ أموالُهم حَتَّى يَتَباهونَ بطولِ البُنيانِ وزَخرَفَتِه وإتقانِه... ومَضمونُ ما ذُكِرَ من أشراطِ السَّاعةِ في هذا الحَديثِ يَرجِعُ إلى أنَّ الأمورَ تُوَسَّدُ إلى غَيرِ أهلِها، كما قال النَّبيُّ ﷺ لِمَن سَألَه عَنِ السَّاعةِ (إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غَيرِ أهلِه فانتَظِرِ السَّاعةَ) ، فإنَّه إذا صارَ الحُفاةُ العُراةُ رِعاءُ الشَّاءِ –وهم أهلُ الجَهْلِ والجَفاءِ– رُؤوسَ النَّاسِ، وأصحابَ الثَّروةِ والأموالِ، حَتَّى يَتَطاوَلوا في البُنيانِ، فإنَّه يَفسُدُ بذلك نِظامُ الدِّينِ والدُّنيا، فإنَّه إذا كان رَأسُ النَّاسِ من كان فقيرًا عائِلًا، فصارَ مَلِكًا على النَّاسِ، سَواءٌ كان مُلكُه عامًّا أو خاصًّا في بَعضِ

الأشياءِ، فإنَّه لا يَكادُ يُعطي النَّاسَ حُقوقَهم، بَل يَستَأثِرُ عليهم بما استَولى عليه مِنَ الْمالِ... وإذا صارَ مُلوكُ النَّاسِ ورُؤوسُهم على هَذِه الحالِ انعَكَسَت سائِرُ الأحوالِ، فصُدِّقَ الكاذِبُ، وكُذِّبَ الصَّادِقُ، وائتُمِنَ الخائِنُ، وخُوِّنَ الأمِينُ، وتَكَلَّمَ الجاهِلُ، وسَكتَ العالِمُ، أو عَدمَ بالكُليةِ... وهذا كُلُّه مِنِ انقِلابِ الحَقائِقِ في آخِرِ الزَّمانِ وانعِكاسِ الأمور . (ابن رجب)

وقال القَسطَلَّاني : (وإذا كان الحُفاةُ العُراةُ رُؤوسَ النَّاسِ) إشارةٌ إلى استيلائِهم على الأمرِ وتَمَلُّكِهم البِلَادَ بالقَهرِ، والمعنى: أنَّ الأذلَّةَ مِنَ النَّاسِ يَنقَلِبونَ أعزةَ مُلوكِ الأرضِ (فذاكَ من أشراطِها) .

وقال ابنُ عُثَيمين: (يَتَطاوَلونَ في البُنيانِ أيُّهم أعلى، ويَتَطاوَلونَ في البُنيانِ أيُّهم أحسَنُ، وهم في الأوَّلِ فُقَراءُ لا يَجِدونَ شَيئًا، لَكِن تَغَيَّرَ الحالُ بسُرعةٍ؛ ممَّا يَدُلُّ على قُربِ السَّاعةِ) .

فائدة : ٢٥

قال الحافظ ابن رجب: وفي قوله ﷺ (يتطاولون في البنيان) دليل على ذم التباهي والتفاخر خصوصاً بالتطاول في البنيان، ولم يكن إطالة البناء معروفاً في زمن النبي ﷺ وأصحابه-، بل كان بنيانهم قصيراً بقدر الحاجة .

فائدة : ٢٦

اختلف لما خص النبي ﷺ هاتين العلامتين فقط ؟

قيل : لأنهما من أول ما يظهر في الناس .

وقيل : تحذيراً للحاضرين .

وقيل : لأن البلية تقع بهما فيتسع هذا الأمر في الخلق .

فائدة : ٢٧

قوله ﷺ (أتاكم يعلمكم دينكم) فيه أن الإيمان والإسلام والإحسان تسمى كلها ديناً .

فائدة : ٢٨

جواز إطلاق رمضان على الشهر وأنه لا يلزم قول: شهر رمضان، خلافاً لمن قال يكره قول (رمضان) من غير إضافة كلمة (شهر) ويدل لجواز ذلك :

قوله ﷺ (من صام رمضان إيماناً ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (لا تقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ...) متفق عليه .

وقوله ﷺ (إذا جاء رمضان فتحت ...) متفق عليه .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يقال رمضان على انفراده بحال ، وإنما يقال شهر رمضان .

وهذا قول أصحاب مالك .

واستدلوا بحديث (لا تقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله ، ولكن قولوا شهر رمضان) .

قال النووي : قولهم أنه اسم من أسماء الله ليس بصحيح ، ولم يصح فيه شيء ، وإن كان قد جاء به أثر ضعيف .

وقال ابن حجر : أخرجه ابن عدي في الكامل وضعفه بأبي معشر .

فائدة : ٢٩

أن العالم قد ينتقل بالمسؤول إلى ما ينفعه ، لأنه سأله عن الساعة ، فأخبره بأشراطها .

الحديث الثالث

عَنْ أبي عبد الرحمن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ الْبَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِم .

==========

(**عَنِ ابْنِ عُمَرَ**) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن، الفقيه، أحد الأعلام في العلم والعمل، أسلم صغيراً مع أبيه عمر ﷺ، مات في مكة سنة (٧٣) هـ

(**بني**) أي: أقيم.

(**خمس**) أي دعائم الإسلام: المراد هنا الدين.

(**إقامة الصلاة**) الإتيان بها والمداومة عليها.

(**صوم رمضان**) الصوم الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بنية. سمي شهر رمضان بذلك: قيل: لأن الذنوب ترمض فيه، أي تحترق، وقيل: لأن فرضه كان في يوم حار.

فائدة : ١

أن الإسلام بني على هذه الأركان الخمس، فمن أنكر واحداً منها فليس بمسلم.

ومعنى الحديث: أن الإسلام بني على هذه الخمس، خمس كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيانه، ودعائمه هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها.

فائدة : ٢

المقصود بالإسلام هنا الإسلام الخاص الذي بعث به محمد ﷺ .

لأن الإسلام في الكتاب والسنة له إطلاقان:

الإطلاق الأول: الإسلام العام.

كما قال تعالى (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ).

وقال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً).

وقال سبحانه (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ..).

فالمقصود بالإسلام هنا الإسلام العام الذي يفسر بأنه: الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله.

الإطلاق الثاني: الإسلام الخاص.

وهو الذي بعث به محمد ﷺ، وهو الذي إذا أطلق لم يقصد إلا هو على وجه الخصوص.

فالمقصود بقوله (بني الإسلام ..) يعني الإسلام الخاص الذي جاء به نبينا محمد ﷺ .

فائدة : ٣

أن أركان الإسلام ترتيبها بالأهمية على حسب ترتيب النبي ﷺ لها في هذا الحديث.

فائدة : ٤

أن الشهادتين أهم أركان الإسلام.

فائدة : ٥

معنى شهادة أن لا إله إلا الله: أي لا معبود بحق إلا الله.

ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع.

فائدة : ٦

أن الإنسان لا يدخل بالإسلام إلا بالشهادتين.

ولذلك قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن (... فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإن هم أطاعوك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة ..).

فائدة : ٧

أن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين.

ولذلك قال ﷺ لمعاذ كما في الحديث السابق (.. فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة).

والمقصود بالصلاة : الصلوات الخمس .

وفرضت – قبل الهجرة – ليلة الإسراء والمعراج .

وفرضت أول ما فرضت خمسين صلاة ، ثم خففت إلى خمس صلوات في اليوم والليلة .

كان النبي ﷺ يصليها ركعتين ركعتين إلا المغرب فثلاث ركعات، فلما هاجر إلى المدينة بقيت الركعتان للسفر، وزيدت صلاة المقيم إلى أربع ركعات، إلا الفجر فبقيت ركعتين.

وهي أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة.

وهي عمود الدين.

فائدة : ٨

وجوب إيتاء الزكاة لمستحقها، وأن ذلك من أركان الإسلام. والزكاة قرينة الصلاة في كثير من المواضع:

قال تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).

وقال تعالى (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ).

وقال النبي ﷺ لمعاذ (... فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات ... فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ ...).

وسميت زكاة: لأنها تزكي المال، وتزكي صاحب المال، وتطهر نفس الغني من الشح والبخل، وتطهر نفس الفقير من الحسد والضغينة، وتسد حاجة الإسلام والمسلمين ، كما قال تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).

فرضت بعد الهجرة ، قال النووي: إن ذلك كان في السنة الثانية من الهجرة ، قال ابن حجر: وهو قول الأكثر ، وإنما الذي وقع في السنة التاسعة بعث العمال.

فائدة : ٩

وجوب صوم رمضان.

وهو التعبد لله بالإمساك عن الأكل والشرب وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

قال ابن حجر: واختلف في تسمية هذا الشهر رمضان فقيل: لأنه ترمض فيه الذنوب، أي تحرق لأن الرمضاء شدة الحر، وقيل وافق ابتداء الصوم فيه زمناً حاراً. (الفتح).

قال ابن القيم: وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات

فائدة : ١٠

وجوب الحج على المستطيع.

وهو التعبد لله بأداء المناسك على صفة مخصوصة في وقت مخصوص.

اختلف العلماء في فرض الحج : فالجمهور أنه فرض في السنة السادسة ورجحه ابن حجر ، وقيل سنة تسع ورجحه ابن القيم .

قال ابن القيم: ولا خلاف أنه ﷺ لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر.

حكم تارك الحج تهاوناً وكسلاً : جمهور العلماء أنه لا يكفر.

قال النووي: إذا حج بمال حرام أو راكباً دابة مغصوبة أثم وصح حجه وأجزأه عندنا، وبه قال أبو حنيفة ومالك، وبه قال أكثر الفقهاء .

فائدة : ١١

إذا ترك الإنسان واحداً من أركان الإسلام هل يكفر؟

نقول: تارك أحد الأركان لا يخلو من حالات:

الأولى: أن يترك الشهادتين فلا ينطقها فهذا كافر ولا خلاف في هذا، لأنه لا يصير مسلماً إلا بها.

الثانية: أن يترك الصلاة فهذا فيه خلاف على قولين في كفره:

والراجح: أنه يكفر كما هو مذهب الإمام أحمد وغيره للأدلة الكثيرة:

منها قول الرسول ﷺ كما عند الترمذي (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر).

وقوله ﷺ (بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة) رواه مسلم.

وعن عبد الله بن شقيق ﷺ قال: (ما كان أصحاب محمد يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة).

الثالثة: أن يترك الزكاة أو الصيام أو الحج تهاوناً وكسلاً:

فهذا اختلف العلماء في كفره على قولين – هما روايتان عن الإمام أحمد –:

وأقربهما أنه لا يكفر ولكنه مرتكب كبيرة من الذنوب يستحق عليها العقوبة الدنيوية والأخروية.

لأثر عبد الله بن شقيق ﷺ السابق قال (ما كان أصحاب محمد يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة).

ولحديث أبي هريرة ﷺ في تارك الزكاة وفيه (حتى يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) فلو كان كافراً لقطع له بالنار، واختار هذا الشيخ ابن عثيمين.

فائدة : ١٢

فضل الإحسان إلى الخلق.

فائدة : ١٣

فضل المال للرجل الصالح حيث يعطي حقه ويصرف منه في وجوه الخير.

فائدة : ١٤

اهتمام الشريعة الإسلامية بالفقراء والمساكين، حيث أمرت الأغنياء بدفع جزء قليل من مالهم للفقراء، ورتبت الأجر الكبير على من ساعد الفقراء والمساكين.

فائدة : ١٥

الحرص على تزكية النفس، لأن الزكاة تزكية للنفس والمال.

فائدة : ١٦

جواز إطلاق (رمضان) دون إضافة لفظة (شهر) إليه وهذا مذهب جماهير العلماء وقد تقدمت المسألة .

فائدة : ١٧

حكمة الشرع العظيمة، في أن هذه العبادات منها ما هو واجب يومي، ومنها ما هو سنوي ومنها ما هو واجب في العمر مرة واحدة.

فائدة: ١٨

سؤال: لماذا لم يذكر الجهاد مع أن الجهاد من أفضل الأعمال؟

الجواب: لأنه فرض كفاية ولا يتعين إلا في بعض الأحوال.

فائدة : ١٩

ما وجه الحصر في هذه الخمسة؟

أجيب: بأن العبادة إما قولية وهي الشهادة، أو غير قولية، فهي إما تزكيّ وهو الصوم، أو فعلي وهو إما بدني وهو الصلاة، أو مالي وهو الزكاة، أو مركب منهما وهو الحج.

الحديث الرابع

٣٩٦ – عن ابن مسعود ﷺ قَالَ: حدثنا رَسُول الله ﷺ وَهُوَ الصادق المصدوق (إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ أربَعِينَ يَومًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ، فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ. فَوَالَّذِي لاَ إلهَ غَيْرُهُ إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فَيدْخُلُهَا، وَإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلاَّ ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيهِ الكِتَابُ فَيعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

==========

(**عن ابن مسعود**) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي ﷺ، كان سادس رجل في الإسلام، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، قال له النبي ﷺ في أول الإسلام (إنك غلام معلَّم) وروى البخاري عنه أنه قال: (والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة...) وقال النبي ﷺ (من أحبّ أن يقرأ القران غضاً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أمّ عبد).

وكان ممن يخدم النبي ﷺ ، وهو صاحب سواكه ونعليه ووساده، قال حذيفة ﷺ: (ما أعرف أحداً أقرب سمتاً وهدياً ودلًّا بالنبي ﷺ من ابن أم عبد) .

تولى القضاء وبيت المال في الكوفة على عهد عمر رضي الله عنه وصدراً من خلافة عثمان ﷺ، ثم دعاه إلى المدينة، ومات فيها سنة : ٣٢ ﷺ .

(**الصادق**) فِي قَوْله .

(**المصدوق**) فِيمَا يَأْتِي مِنْ الْوَحْي الْكَرِيم .

(**إنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بَطْنِ أُمِّهِ**) المراد بالجمع: ضمّ بعضه إلى بعض بعد الانتشار .

(**أربَعِينَ يومًا نُطْفَةً**) المراد بالنطفة المني .

(**ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ**) العلقة هي الدم الجامد الغليظ.

(**ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ**) هذا الطور الثالث الذي يمر به الجنين، والمضغة هي مضغة من لحم، وسميت بذلك لأنها قدر ما يمضغ الماضغ .

(**ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ**) وفي رواية للبخاريّ: (ثم يبعث الله ملكًا) أي: يبعث الله إليه الملَك في الطور الرابع حينما يتكامل بنيانه، وتتشكّل أعضاؤه، فيعيّن، ويُنقش فيه ما يليق به من الأعمال والأعمار والأرزاق حسبما اقتضته حكمته، وسبقت كلمته .

(**وَيُؤْمَرُ بِأرْبَعِ كَلِمَاتٍ**) أي: يؤمر بكتب أربعة أشياء من أحوال الجنين ، والمراد بالكلمات: القضايا المقدرّة، وكل قضيّة تسمى كلمة .

(**بِكَتْبِ رِزْقِهِ**) المراد من كتابة الرزق: تقديره قليلًا أو كثيرًا، وصفته حرامًا، أو حلالًا .

(**وَأجَلِهِ**) أي : هل هو طويل أو قصير .

(**وَعَمَلِهِ**) أي : هل هو صالح، أو فاسد .

(**وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**) أي : أن الملك يكتب إحدى الكلمتين، كأن يكتب مثلًا: أجل هذا الجنين كذا، ورزقه كذا، وعمله كذا، وهو شقيّ باعتبار ما يُختم له، وسعيد باعتبار ما يُختم له، كما دل عليه بقية الخبر .

وأما صفة الكتابة: فظاهر الحديث أنها الكتابة المعهودة في صحيفته، ووقع ذلك صريحًا في حديث حذيفة بن أَسِيد عند مسلم (ثم تطوى الصحيفة، فلا يزاد فيها، ولا ينقص) وفي رواية الفريابيّ (ثم تُطْوَى تلك الصحيفة إلى يوم القيامة) .

(**إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ**) يعني: من الطاعات الاعتقادية، والقولية، والفعلية .

(**حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وبيْنَهَا إلاَّ ذِرَاعٌ**) والتعبير بالذراع تمثيل بقرب حاله من الموت، فيحال مَن بينه وبين المكان المقصود بمقدار ذراع، أو باعٍ من المسافة . (قاله في الفتح) .

فائدة : ١

هذا حديث عظيم جليل .

قال ابن الملقن : لو أمعن الأئمة النظر في هذا الحديث كله من أوله إلى آخره، لوجدوه متضمنًا لعلوم الشريعة كلها ظاهرها وباطنها **وقال ابن حجر الهيتمي** : هو حديث عظيم جليل، يتعلق بمبدأ الخلق ونهايته، وأحكام القدر في المبدأ والمعاد .

وقال الجرداني : هذا الحديث حديث عظيم جامع لجميع أحوال الشخص؛ إذ فيه بيان حال مبدئه وهو خلقه، وحال معاده وهو السعادة أو الشقاء، وما بينهما وهو الأجل، وما يتصرف فيه وهو الرزق .

فائدة : ٢

في هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أطوار الجنين في بطن أمه، وأنه يتقلب في بطن أمه مائة وعشرون يوماً في ثلاثة أطوار، فيكون في الأربعين الأولى نطفة، ثم في الأربعين الثانية علقة، ثم في الأربعين الثالثة مضغة .

قال تعالى في كتابه (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ).

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن كتابة المقادير تكون بعد الأربعين الثالثة .

لكن جاء في حديث حذيفة بن أَسِيد عند مسلم، أن الكتابة بعد الأربعين الأولى، في بداية الأربعين الثانية .

قال ﷺ (ذَا مَرَّ بِالنُّطْفَةِ ثِنْتَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا مَلَكاً فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجِلْدَهَا وَلَحْمَهَا وَعِظَامَهَا ثُمَّ. قَالَ يَا رَبِّ أَذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى فَيَقْضِى رَبُّكَ مَا شَاءَ وَيَكْتُبُ الْمَلَكُ ثُمَّ يَقُولُ يَا رَبِّ أَجَلُه ..).

وقد اختلف العلماء في الجمع بين ذلك على أقوال:

القول الأول: فذهب طائفة إلى أن الكتابة تكون في الأربعين الأولى.

وقالوا يشهد لهذا ما روي عن عدد من الصحابة منهم عبد الله بن عمرو، وأبو ذر، أنها بعد الأربعين.

وقالوا: إنما تأخر ذكرها في حديث ابن مسعود إلى ما بعد ذكر المضغة لئلا ينقطع ذكر الأطوار الثلاثة التي يتقلب فيها الجنين فإن ذكرها على نسق واحد، أعجب و أحسن.

القول الثاني: إن ذلك يختلف باختلاف الأجنة فبعضهم على ما في حديث ابن مسعود وبعضهم على ما في حديث حذيفة.

وإلى هذا مال ابن رجب .

القول الثالث : أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ قد دلت على أن كتابة المقادير في الرحم مرتين اثنتين:

أولاهما: بعد الأربعين الأولى، في بداية الأربعين الثانية، كما في حديث حذيفة عند مسلم.

وثانيهما: بعد الأربعين الثالثة كما جاء في حديث ابن مسعود هذا.

وهذا القول هو الذي تجتمع به الأحاديث المتعارضة .

وإلى هذا ذهب القاضي عياض ، وابن الصلاح ، واختار هذا القول ابن القيم ونصره.

فائدة : ٤

أن نفخ الروح يكون بعد تمام أربعة أشهر ، لقوله : ثم يرسل إليه الملك ... .

وينبني على هذا :

أولاً : أنه إذا سقط بعد نفخ الروح فيه فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين .

ثانياً : أنه يحرم إسقاطه .

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن من الملائكة من هو موكل بالنفخ في الأجنة ، والمراد الملَك الموكل بالرحم .

ففي حذيفة بن أَسِيد من رواية ربيعة بن كلثوم (أن ملكًا موكلًا بالرحم) .

ومن رواية عكرمة بن خالد (ثم يتسوَّر عليها الملَك الذي يُخَلِّقها) وهو بتشديد اللام .

وفي رواية أبي الزبير عند الفريابي (أتى ملك الأرحام) وأصله عند مسلم، لكن بلفظ (بعث الله ملكًا) .

فائدة : ٦

كثرة الملائكة .

فالمِلائِكة خَلقٌ كثيرٌ لا يعلَمُ عَدَدَهم إلَّا اللهُ تعالى.

أ–قال الله عَزَّ وجَلّ (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ) .

قال ابنُ جريرٍ: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ مِن كَثرتِهم إلَّا هُوَ يعني اللهَ .

وقال ابنُ كثيرٍ: أي: ما يعلَمُ عَدَدَهم وكَثْرَتَهم إلَّا هو تعالى؛ لئلَّا يتوهَّمَ متوَهِّمٌ أنَّهم تِسعةَ عَشَرَ فقط، كما قد قاله طائفةٌ من أهلِ الضَّلالةِ والجَهالةِ ومِن الفلاسِفةِ اليونانيِّين. ومن تابعهم من المِلَّتين الذين سمعوا هذه الآيةَ، فأرادوا تنزيلَها على العُقولِ العَشَرة والنُّفوسِ التِّسعةِ التي اخترعوا دعواها وعَجَزوا عن إقامةِ الدَّلالةِ على مُقتضاها .

ب–قَالَ النَّبِيُّ ﷺ في حديث الإسراء : (ثُمَّ رُفِعَ لِي الْبَيْتُ المعْمُورُ، فَقُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟ قَالَ: هَذَا الْبَيْتُ المعْمُورُ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا فِيهِ آخِرُ مَا عَلَيْهِم) رواه مسلم .

قال النوويّ : وفي هذا أعظَمُ دليلٍ على كثرةِ الملائِكةِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُه عليهم. واللهُ أعلمُ .

وقال ابنُ حَجَرٍ : استُدِلَّ به على أنَّ الملائِكةَ أكثَرُ المخلوقاتِ؛ لأنَّه لا يُعرَفُ مِن جميعِ العوالِمِ من يتجَدَّدُ من جنسِه في كُلِّ يومٍ سبعون ألفًا غيرُ ما ثبت عن الملائِكةِ في هذا الخَبرِ .

ج– وممَّا يدُلُّ على كثرتِهم ما رواه عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ ﷺ، عن نبيِّ اللهِ ﷺ فقال (يؤتى بجهَنَّمَ يومَئذٍ لها سبعون ألفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زمامٍ سبعون ألفَ مَلَكٍ يجرُّونَها) رواه مسلم .

قال ابنُ تَيمِيَّةَ : ومَلائِكةُ اللهِ لا يُحصي عَدَدَهم إلَّا اللهُ .

ج–وعن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّه) رواه الترمذي .

والملائكة كثيرون، وكل له عمل خاص به :

فمنهم الموكل بالوحي، وهو جبريل عليه السلام.

قال الله تعالى (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) .

وقال الله تعالى (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ) .

ومنهم الموكل بالقَطْر، وهو ميكائيل عليه السلام .

قال ابن كثير: أما ميكائيل فموكل بالقَطْر، والنبات، وهو ذو مكانة من ربه عز وجل، ومن أشراف الملائكة المقربين .

وقال أيضاً: ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يُخلق منهما الأرزاق في هذه الدار، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب جل جلال

ومنهم الموكل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل عليه السلام.

قال ابن كثير: إسرافيل موكل بالنفخ في الصور للقيام من القبور، والحضور يوم البعث والنشور .

ومنهم الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت.

قال الله تعالى (قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون) .

قال ابن كثير : أما ملك الموت فليس بمصرَّح باسمه في القرآن، ولا في الأحاديث الصحاح... وله أعوان يستخرجون روح العبد من جثته حتى تبلغ الحلقوم .

ومنهم حملة العرش:

قال الله تعالى فيهم (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيم) .

وقال الله تعالى (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَام) .

ومنهم الموكلون بفتنة القبر، وهم المنكر والنكير.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ – أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ– أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرِ) رواه الترمذي .

ومنهم خزنة الجنة.

قال الله تعالى (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِين) .

تنبيه :

لم يثبت من أسماء الملائكة إلا ثمانية:

جبريل، وميكال وإسرافيل عليهم السلام .

ففي حديث عائشة في قيام النبي ﷺ بالليل كان يقول (اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) رواه مسلم .

هاروت وماروت عليهما السلام .

ذكرهما الله جل جلاله في قوله (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ) .

ومالك خازن النار عليه السلام .

ذكره الله في قوله جل جلاله (وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُون) .

والمنكر، والنكير عليهما السلام .

ذكرهما النبي ﷺ في قوله (إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ –أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ– أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرِ).

أما غير هذه الأسماء، فإما صفات، كرقيب، وعتيد.

وإما ورد باسم وظيفته، كملك الموت، وملك الجبال.

وإما ورد في أحاديث ضعيفة، وموضوعة، كعزرائيل، وكرضوان .

فائدة : ٧

الحديث دليل على أن الملائكة عبيد يؤمرون وينهون ، والملائكة عملهم عبادة الله وطاعته:

قال تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ).

وقال تعالى (وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ).

وقال تعالى (لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

فائدة : ٨

هذه الكتابة التي تُكتب للجنين في بطن أمه غير كتابة المقادير السابقة لخلق الخلق المذكورة في قوله تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وأقسام التقدير أربع:

الأول: التقدير العام لجميع الأشياء في اللوح المحفوظ.

قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

قال تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

وعن عبد الله بن عمرو . عن النبي ﷺ قال (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال (أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة). رواه أبو داود

وقد تكاثرت النصوص بذكر الكتاب السابق بالسعادة والشقاوة.

فعن عمران بن حصين. قال: قال رجل: يا رسول الله! أيُعرف أهلُ الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قال: فلم يعمل العاملون؟ قال: كل يعملُ لما خُلقَ له، أو لما يُيسر له) متفق عليه.

الثاني: التقدير العمري.

كما في حديث الباب.

(وهذا التقدير يختلف عن التقدير الذي في اللوح المحفوظ بأن التقدير العمري يقبل التغيير والمحو، وأما الذي في اللوح المحفوظ فإنه لا يقبل التغيير، بمعنى أن ما كتبه الله في اللوح المحفوظ لا يقبل المحو ولا التغيير).

قال تعالى (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ).

قال السعدي : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) يمحو الله ما يشاء من الأقدار ويثبت ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال (وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَاب) أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب، فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب.

ولهذا كان عمر يقول: اللهم إن كنت كتبتني شقياً فامحني واكتبني سعيداً.

وهذا يعني به الكتابة في صحف الملائكة لا الذي في اللوح المحفوظ.

الثالث: التقدير السنوي وذلك يكون في ليلة القدر.

ففيها يكتب من أم الكتاب ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر.

قال تعالى (إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين. فيها يفرق كل أمر حكيم. أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين).

الرابع: التقدير اليومي.

ويدل عليه قوله تعالى (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ).

فائدة : ٩

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، لقوله تعالى: ويؤمر بكتب أربع كلمات: بكتب رزقه وأجله ... ، فكل شيء مكتوب ومفروغ منه.

والإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب :

أولاً: الإيمان بأن الله علم بكل شيء جملة وتفصيلاً ، أزلاً وأبداً.

قال تعالى (وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) وقال تعالى (وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً).

ثانياً: الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ.

كما قال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وقال ﷺ (إن الله كتب مقادير السموات والأرض قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) رواه مسلم.

وفي هذين الأمرين يقول الله تعالى (أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ).

الثالث: الإيمان بأن جميع الكائنات لا تكون إلا بمشيئة الله تعالى.

قال تعالى (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) وقال تعالى (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً).

الرابع: الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله.

قال تعالى (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ).

فائدة : ١٠

قوله (**بكتب رزقه**) فيه دليل على وجوب التوكل على الله، وعدم الخوف من الفقر، لأن الرزق مكتوب.

قال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُون) .

وصحَّ عنه ﷺ من حديث أبي الدرداء أنه قال (إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجلُه) .

وقال ﷺ (إن الله قسم بينكم أخلاقكم، كما قسم بينكم أرزاقكم) .

وقوله ﷺ (يا أبا هريرة، جف القلم بما أنت لاقٍ) .

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ، وَدَعُوا مَا حَرُمَ) رواه ابن ماجه .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ، إِلاَّ قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ، وَيُبَاعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ، إِلاَّ قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللهِ، فَإِنَّهُ لاَ يُدْرَكُ مَا عِنْدَ اللهِ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ رواه ابن أبي شيبة ، والبيهقي في "الشعب" .

وعن أُم حَبِيبَة زَوْجُ النَّبِيّ ﷺ أنها قالت (اللَّهُمَّ أَمْتِعْنِي بِزَوْجِي رَسُولِ الله ﷺ وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : قَدْ سَأَلْتِ اللَّهَ لآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ وَأَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ لَنْ يُعَجِّلَ شَيْئاً قَبْلَ حِلِّهِ أَوْ يُؤَخِّرَ شَيْئاً عَنْ حِلِّهِ وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللَّهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النَّارِ أَوْ عَذَابٍ فِي الْقَبْرِ كَانَ خَيْراً وَأَفْضَلَ) رواه مسلم.

فما كُتب للعبد مِن رِزق وأجل، فلا بد أن يستكمله قبل أن يموت .

عن جابر ﷺ . أن النبي ﷺ قال (لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ فَرَّ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَفِرُّ مِنَ الموْتِ، لأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كما يُدْرِكُهُ الموْتُ) .

قال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود، وأهنأهم عيشاً القنوع.

وسئل أبو حازم فقيل له: ما مالك؟ قال: لي مالان لا أخشى معهما الفقر: الثقة بالله، واليأس مما في أيدي.

وسئل الحسن البصري عن سر زهده في الدنيا؟ فقال: أربعة أشياء: علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به وحدي، وعلمت أن الله مطلع علي فاستحييت أن يراني عاصياً، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء ربي.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء: مؤمن قتل مؤمناً، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وعلى هـــــذا :

أ-يجب الإيمان بأن الرزق مكتوب ، لا يجلبه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره .

ب-أن هذا لا يمنع فعل الأسباب التي شرع الله لعباده الأخْذ بها .

ج-أن يسعى العبد في طلب الرزق الحلال ، وأن يجتنب الحرام .

د-أن لا يطلب الرزق بجشع وحرص .

فائدة : ١١

قوله (**وَأَجَلِهِ** ..) فيه الحث على العمل الصالح والإكثار منه ، لأن الإنسان لا يدري متى يأتيه الموت .

فالإنسان لا يدري متى يفاجئه الموت .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) .

وقال ﷺ (بادروا بالأعمال سبعاً، هل تنتظرون إلى فقْراً منسياً، أو غنى مطغياً، أو مرضاً مفسداً، أو موتاً مجهزاً ...) رواه الترمذي وفيه ضعف.

وقال ﷺ (اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك، وفراغك قبل شغلك، وصحتك قبل مرضك، وغناك قبل فقرك) .

تـزود من الدنيـا فإنـك لا تـدري ------ إذا جن ليـل هل تعيـش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ------ وكم من سقيـم عـاش حينا من الدهر

وكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ------ وأكفانه في الغيب تنسج وهو لا يدري

وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ------ وقـد أدخـلت أجسـامهم ظـلمة القبر

وكم من عـروس زينـوها لزوجها ------ وقـد قبـضت أرواحـهم ليـلة القـدر

فـمن عـاش ألفـاً وألفـين------ فـلا بـد من يـوم يسـير إلى القـبر

ولهذا يتمنى الإنسان العمل الصالح عند احتضاره :

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ ...) .

وقال تعالى (وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ).

ولهذا ينبغي للمسلم المسارعة إلى الخيرات .

كما قال تعالى (وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ).

فائدة : ١٢

أن الناس ينقسمون إلى قسمين لا ثالث لهما : شقي ، أو سعيد .

قال تعالى (فريق في الجنة وفريق في السعير) .

وقال تعالى (فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق ...) .

وقال سبحانه (وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ...) .

فائدة : ١٣

التحذير من سوء الخاتمة .

والْمَقْصُودُ بِسُوءِ الْخَاتِمَةِ : أَنْ يَمُوتَ الْعَبْدُ عَلَى حَالَةٍ سَيِّئَةٍ؛ مِنْ كُفْرٍ، أَوْ جُحُودٍ، أَوْ شَكٍّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ لَهُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ. وَأَدْنَى مِنْهُ: أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُتَلَبِّسٌ بِمَعْصِيَةٍ، أَوْ مُصِرٌّ عَلَيْهَا بِقَلْبِهِ، وَالْمَرْءُ يُبْعَثُ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ) رواه مسلم .

زاد أحمد من وجه آخر عن أبي هريرة (سبعين سنةً) .

وعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ، حَتَّى تَنْظُرُوا بِمَ يُخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ، أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ، بِعَمَلٍ صَالِحٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلٍ سَيِّئٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ؟ قَالَ " يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ) رواه أحمد .

وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَإِذَا كَانَ قَبْلَ مَوْتِهِ تَحَوَّلَ فَعَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَمَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ .... الحديث) رواه أحمد .

وعنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي قَالَ (خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَفِي يَدِهِ كِتَابَانِ فَقَالَ «أَتَدْرُونَ مَا هَذَانِ الْكِتَابَانِ». فَقُلْنَا لاَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ أَنْ تُخْبِرَنَا. فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَدِهِ الْيُمْنَى «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي فِي شِمَالِهِ «هَذَا كِتَابٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ فِيهِ أَسْمَاءُ أَهْلِ النَّارِ

وَأَسْمَاءُ آبَائِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ ثُمَّ أُجْمِلَ عَلَى آخِرِهِمْ فَلاَ يُزَادُ فِيهِمْ وَلاَ يُنْقَصُ مِنْهُمْ أَبَدًا». فَقَالَ أَصْحَابُهُ فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ فَقَالَ «سَدِّدُوا وَقَارِبُوا فَإِنَّ صَاحِبَ الْجَنَّةِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ وَإِنَّ صَاحِبَ النَّارِ يُخْتَمُ لَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ وَإِنْ عَمِلَ أَيَّ عَمَلٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدَيْهِ فَنَبَذَهُمَا ثُمَّ قَالَ «فَرَغَ رَبُّكُمْ مِنَ الْعِبَادِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ) رواه الترمذي.

وعن سهل بن سعد . قال : قال ﷺ (إنما الأعمال بالخواتيم) رواه البخاري .

وقد كان السلف رحمهم الله يخافون من سوء الخاتمة .

كان مالك بن دينار، يقوم طول ليله قابضاً على لحيته، ويقول : يا رب، قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار، ففي أي الدارين منزل مالك.

وبكى بعض الصحابة عند موته، فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين فقال: هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النا) ولا أدري في أي القبضتين كنت .

وقال أبو الدَّرداء: "ما أحدٌ أَمِنَ على إيمانه أَلَّا يُسْلَبَهُ عند الموت؛ إلا سُلِبَهُ .

ولما حضرتِ الوفاةُ سفيانَ الثَّوري رحمه الله جَعَل يبكي؛ فقال له رجلٌ: "يا أبا عبد الله، أَمِنْ كَثْرَةِ الذُّنوب؟"؛ فقال: "لا، ولكن أخاف أنْ أُسْلَبَ الإيمانَ قبل الموت .

فمِن هذا خاف السَّلف مِن الذنوب؛ أن تكون حجابًا بينهم وبين الخاتمة الحسنة.

قال ابن القيّم : وهذا مِن أعْظم الفِقه؛ أنْ يخاف الرجل أن تَخْدَعَهُ ذنوبه عند الموت، فتَحُولُ بينه وبين الخاتمة الحُسْنى .

فيجب الحذر من سوء الخاتمة .

ولعل من أعظم أسبابها :مُخَالَفَةُ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ – فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ – وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ) .

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ (فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ) فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَاطِنَهُ خِلَافُ ظَاهِرِهِ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَسُوءَ خَاتِمَةُ مَنْ صَلُحَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ.

فَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ بِظَاهِرِهِ مُطِيعًا لِلَّهِ، وَلَكِنَّهُ يُبْطِنُ النِّفَاقَ، أَوِ الرِّيَاءَ، أَوْ تَكُونُ فِي قَلْبِهِ دَسِيسَةٌ مِنْ دَسَائِسِ السُّوءِ؛ كَالْكِبْرِ أَوِ الْعُجْبِ، فَيَظْهَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ فِي سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِهِ، فَتَكُونُ الْخَسَارَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَالْهَلَاكُ الْأُخْرَوِيُّ .

كَمَا فِي قِصَّةِ الَّذِي كَانَ يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَيُبْلِي بَلَاءً حَسَنًا، وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى، أَوْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَانْتَحَرَ!

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ (شَهِدْنَا خَيْبَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ مِمَّنْ مَعَهُ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ». فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! صَدَّقَ اللَّهُ حَدِيثَكَ، انْتَحَرَ فُلَانٌ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ: «قُمْ يَا فُلَانُ! فَأَذِّنْ أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مُؤْمِنٌ، إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

قال ابن رجب : إن خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس ، إما من جهة عمل سيء ونحو ذلك ، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت .

ومنها : لْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعَاصِي:

فَمَنْ أَلِفَ الْمَعْصِيَةَ، وَلَمْ يَتُبْ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ حَتَّى فِي اللَّحَظَاتِ الْأَخِيرَةِ، فَإِذَا أَرَادَ مَنْ حَوْلَهُ أَنْ يُلَقِّنُوهُ الشَّهَادَةَ، طَغَتِ الْمَعْصِيَةُ عَلَى تَفْكِيرِهِ، فَتَكَلَّمَ بِمَا يُفِيدُ اشْتِغَالَهُ بِهَا، وَخُتِمَ لَهُ بِالسُّوءِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ – فِي سِيَاقِ حَدِيثِهِ عَنْ عُقُوبَاتِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي: (وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنْ يَخُونَهُ قَلْبُهُ وَلِسَانُهُ – عِنْدَ الِاحْتِضَارِ، وَالِانْتِقَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى – فَرُبَّمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ النُّطْقُ بِالشَّهَادَةِ؛ كَمَا شَاهَدَ النَّاسُ كَثِيرًا مِنَ الْمُحْتَضَرِينَ أَصَابَهُمْ ذَلِكَ .

حَتَّى قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: "قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، فَقَالَ: "آهْ آهْ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا!".

وَقِيلَ لِآخَرَ: "قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، فَجَعَلَ يَهْذِي بِالْغِنَاءِ وَيَقُولُ: "تَاتِنَا تِنْتَا!"، حَتَّى قَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "وَمَا يَنْفَعُنِي مَا تَقُولُ، وَلَمْ أَدَعْ مَعْصِيَةً إِلَّا رَكِبْتُهَا"، ثُمَّ قَضَى وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "وَمَا يُغْنِي عَنِّي، وَمَا أَعْرِفُ أَنِّي صَلَّيْتُ لِلَّهِ صَلَاةً!" ثُمَّ قَضَى، وَلَمْ يَقُلْهَا.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "هُوَ كَافِرٌ بِمَا تَقُولُ!"، وَقَضَى.

وَقِيلَ لِآخَرَ ذَلِكَ، فَقَالَ: "كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَهَا لِسَانِي يُمْسِكُ عَنْهَا . (الجواب الكافي)

ومنها : الكِبْرُ والعُجْبُ:

قال تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَق) .

وقال تعالى (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) .

قال ابْنُ القَيِّم : وإذا نظرتَ إلى حال كثير مِن المحتضَرين: وَجَدْتَهم يُحال بينهم وبين حُسْن الخاتمة؛ عقوبةً لهم على أعمالهم السيئة

قال ابن كثير : والذنوب والمعاصي والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له؛ فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الإيمان؛ فيقع في سوء الخاتمة .

وقال ابن قُدامةَ رحمه الله : وإذا عرفتَ معنى سوء الخاتمة؛ فاحذرْ أسبابَها، وأَعِدَّ ما يصلح لها، وإيَّاك والتَّسويف بالاستعداد؛ فإنَّ العمرَ قصيرٌ، وكلَّ نَفَسٍ مِن أنفاسك بمنزلة خاتمتِكَ؛ لأنه يُمْكن أنْ تُخطَف فيه رُوحُكَ، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويُحْشَرُ على ما مات عليه .

وقال المزني : دخلت على الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقلت له: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت عن الدنيا راحلاً، وللإخوان مفارقاً، ولكأس المنيّة شارباً، ولعملي مفارقاً، وعلى الله وارداً، ثم بكى وقال: لا أدري أتصير روحي إلى الجنة فأُهنّيها، أم إلى النار فأُعزّيها؟!!

ولما حضرت الإمام الصالح محمد بن سيرين الوفاة بكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لتفريطي في الأيام الخالية، وقلة عملي للجنة العالية، وما ينجيني من النار الحامية.

قال الإمام الغزالي رحمه الله : الخاتمة غير معلومة... وخطر الخاتمة باقٍ، ففي الخوف من سوء الخاتمة شغلٌ عن الفرح بكل ما في الدنيا".

وقال الحافظ ابن الجوزي رحمه الله: "للنفوس الخيرة علامات: الجد في الغالب، والحذر من الزَّلل، والاحتقار للعمل، والقلق من خوف السابقة، والجزع من حذر الخاتمة .

فائدة : ١٤

قال ابن بطَّال : وفي تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمةٌ بالغة، وتدبيرٌ لطيفٌ؛ لأنه لو علِم وكان ناجيًا أُعْجِبَ وكسل، وإنْ كان هالكًا ازداد عُتُوًّا، فحُجِبَ عنه ذلك؛ ليكون بين الخوف والرجاء"

فائدة : ١٥

استحباب دعاء الله بالثبات على الإيمان .

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ) رواه مسلم .

وعَنْ أَنَس قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ : يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ ، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ «نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاء) رواه الترمذي .

فائدة : ١٦

يجب على المسلم أن يحرص أن يطهر باطنه ، كما يحرص أن يطهر ظاهره .

قال القرطبي : فيستفاد من هذا الحديث الاجتهاد في إخلاص الأعمال لله تعالى، والتحرز من الرياء، ويستفاد من حديث ابن مسعود تَرْك العُجْب بالأعمال، وترك الالتفات، والركون إليها، والتعويل على كرم الله تعالى، ورحمته، والاعتراف بمنّته، كما قال ﷺ: لن يُنْجي أحدًا منكم عمله ... . (المفهم)

فائدة : ١٧

قوله (إِنَّ أَحَدكُمْ لِيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل الْجَنَّة حَتَّى مَا يَكُون بَيْنه وَبَيْنهَا إِلَّا ذِرَاع ، فَيَسْبِق عَلَيْهِ الْكِتَاب ، فَيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل النَّار ، فَيَدْخُلهَا . وَإِنَّ أَحَدكُمْ لِيَعْمَل بِعَمَلِ أَهْل النَّار .... إِلَخْ) .

قال النووي : ... وَالْمُرَاد بِهَذَا الْحَدِيث أَنَّ هَذَا قَدْ يَقَع فِي نَادِر مِنْ النَّاس ، لَا أَنَّهُ غَالِب فِيهِمْ ، ثُمَّ أَنَّهُ مِنْ لُطْف اللَّه تَعَالَى وَسَعَة رَحْمَته اِنْقِلَاب النَّاس مِنْ الشَّرّ إِلَى الْخَيْر فِي كَثْرَة ، وَأَمَّا اِنْقِلَابهمْ مِنْ الْخَيْر إِلَى الشَّرّ فَفِي غَايَة النُّدُور ، وَنِهَايَة الْقِلَّة ، وَهُوَ نَحْو قَوْله تَعَالَى (إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي وَغَلَبَتْ غَضَبِي) وَيَدْخُل فِي هَذَا مَنْ اِنْقَلَبَ إِلَى عَمَل النَّار بِكُفْرٍ أَوْ مَعْصِيَة ، لَكِنْ يَخْتَلِفَانِ فِي التَّخْلِيد وَعَدَمه ؛ فَالْكَافِر يُخَلَّد فِي النَّار ، وَالْعَاصِي الَّذِي مَاتَ مُوَحِّدًا لَا يُخَلَّد فِيهَا كَمَا سَبَقَ تَقْرِيره . (نووي)

فائدة : ١٨

قال العلامة ابن باز رحمه الله: من سنته في عباده جل وعلا أن من اتَّقاه واستقام على أمره عن إيمان، وعن إخلاص وصدق، فالله جل وعلا يحسن له الختام؛ فضلًا منه وإحسانًا، وهذا من جنس قوله تعالى (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) .

وقال العلامة محمد العثيمين رحمه الله: كيف يستطيع الإنسان ألَّا يموت إلا وهو مسلم؟ الجواب: يستطيع ذلك، بأن يثابر على العمل الصالح في حياته، والله سبحانه وتعالى أكرم من أن يخذل شخصًا أمضى عمره في طاعة الله، فإذا نشأ الإنسان في طاعة الله، ومرَّن نفسه على الطاعة، فإن الله يشكر له، حتى يحسن له الخاتمة .

فائدة : ١٩

الحذر من أن يغتر الإنسان بعمله الصالح .

فائدة : ٢٠

قرب الجنة والنار من العبد .

وقال ﷺ : (إن الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك) .

فائدة : ٢١

أن الشقاء والسعادة لا يعلمهما أحد إلا الله عز وجل.

فائدة : ٢٢

فيه تنبيه على أن البعث حق؛ لأن مَن قدَر على خلق الإنسان من ماء مهين قادر على إعادته .

الحديث الخامس

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ) متفق عليه .
ولمسلم (مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) .

==========

(**مَنْ أَحْدَثَ**) أي: ابتدع واخترع شيئاً ليس له أصل.

(**فِي أَمْرِنَا**) أي: ديننا وشريعتنا.

(**مَا لَيْسَ مِنْهُ**) مما ينافيه ويناقضه.

(**فَهُوَ رَدٌّ**) أي: مردود على صاحبه وعليه إثمه.

فائدة : ١

هذا الحديث أصل في رد البدع المستحدثة في دين الإسلام.

قال النووي: هذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به.

وقال ابن رجب: وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أُصول الإسلام، وهو كالميزان للأعمال في ظاهرها كما أنّ حديث (الأعمال بالنيَّات) ميزان للأعمال في باطِنها، فكما أنَّ كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كلُّ عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله، فهو مردودٌ على عامله، وكلُّ مَنْ أحدثَ في الدِّين ما لم يأذن به الله ورسوله، فليس مِنَ الدين في شيء.

وقال الشيخ الألباني: هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد إبطال كل البدع والمحدثات.

فائدة : ٢

تعريف البدعة .

البدعة لغة: الشيء المستحدث.

واصطلاحاً: التعبد لله بما ليس عليه النبي ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: البدعة في الدين: هي ما لم يشرعْه الله ورسوله ﷺ وهو ما لم يأمر به أمر إيجاب، ولا استحباب.

وقال الشاطبي رحمه الله تعالى: البدعة: طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعيَّة، يُقصدُ بالسلوك عليها المبالغة في التعبّد لله سبحانه.

وقال الحافظ ابن رجب: والمراد بالبدعة ما أُحدث مما لا أصل له في الشريعة يدلُّ عليه، فأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه، فليس ببدعة شرعاً، وإن كان بدعةً لغةً، فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدِّين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة.

فائدة : ٣

قوله (**ليس عليه أمرنا**) إشارةٌ إلى أنَّ أعمال العاملين كلهم ينبغي أنْ تكون تحتَ أحكام الشريعة، وتكون أحكام الشريعة حاكمةً عليها بأمرها ونهيها، فمن كان عملُه جارياً تحت أحكام الشرع، موافقاً لها، فهو مقبولٌ، ومن كان خارجاً عن ذلك، فهو مردودٌ.

فائدة : ٤

جاءت النصوص الكثيرة في ذم البدع :

أ-قال تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً).

ب- وقال تعالى (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللّهُ).

وهذا فيه دليل على أن الدين لابد فيه من الإذن، أي أن يرد بكونه من الدين دليل من الله تعالى إما من الكتاب وإما من السنة فما لا دليل عليه فلا يجوز أن يوصف بأنه من الدين، بل هو بدعة ومحدثة .

ج-وقال تعالى (قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)، وهذا فيه الفيصل بين المتبع والمبتدع، فمن زعم أنه يحب الله تعالى فإن علامة هذه المحبة إتباع هذا النبي الكريم ﷺ فعلى قدر الإتباع تكون المحبة ، فالمحبة مصداقها وبرهانها الإتباع، فدل ذلك على أن المحدث والمبتدع كاذب في دعواه أنه يحب الله ويحب رسوله ﷺ .

د-وقال -عز وجل- (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

فالصراط المستقيم هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسبل هي سبل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط وهم أهل البدع، فهذه الآية تشمل النهي عن جميع طرق أهل البدع.

هـ- وحديث الباب (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا ...).

و-حديث جابر قال : قال ﷺ (وكل بدعة ضلالة) رواه مسلم.

ز- حديث العرباض بن سارية -الآتي- (... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة) رواه الترمذي.

قال ابن رجب الحنبلي : (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء وهو أصل عظيم من أصول الدين وهو شبيه بقوله (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ) فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة والدين بريء منه .

فائدة : ٥

شروط العمل الصالح :

لا يقبل أي عمل مما يُتقرّب به إلى الله - عز وجل - إلا بشرطين:

الشرط الأول: إخلاص العمل لله وحده لا شريك له.

لقول النبي ﷺ (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني : المتابعة للرسول ﷺ .

لحديث الباب (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد).

فمن أخلص أعماله لله، متّبعاً في ذلك رسول الله ﷺ فهذا الذي عمله مقبول، ومن فقد الإخلاص، والمتابعة لرسول الله ﷺ أو أحدهما فعمله مردود داخل في قوله تعالى (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) ومن جمع الأمرين فهو داخل في قوله -عز وجل- (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ) وفي قوله تعالى (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

فحديث عمر ﷺ (إنما الأعمال بالنيات) ميزان للأعمال الباطنة .

وحديث عائشة رضي الله عنها (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) ميزان للأعمال الظاهرة، فهما حديثان عظيمان يدخل فيهما الدين كلّه: أصوله، وفروعه، ظاهره وباطنه، أقواله، وأفعاله.

فائدة : ٦

خطر البدعة على الفرد والمجتمع :

أولاً: عمله عليه مردود وهو مأزور غير مأجور.

لحديث الباب.

ثانياً: البدعة مانعة من شفاعة المصطفى ﷺ، ولذا فالمبتدع لا يرد حوض النبي ﷺ ومحروم من شفاعته.

فعن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (أنا فرطكم على الحوض وليختلجن رجال دوني فأقول يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك) متفق عليه.

وهذا فيه بيان شيء من عقوبة الإحداث في الدين وهو أنه يذاد عن الشرب من الحوض والعياذ بالله.

ثالثاً: صاحب البدعة ملعون على لسان الشريعة .

لقوله ﷺ (من أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) متفق عليه.

رابعاً: المبتدع عليه إثم من عمل ببدعته إلى يوم القيامة.

فإن من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

خامساً: صاحب البدعة لا يزداد من الله إلا بعداً.

وهذا يدل عليه حديث الخوارج مع ما فيهم من تعبد واجتهاد.

سادساً: البدعة رافعة للسنن ومميتة لها.

وقد قيل: من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام.

سابعاً: البدعة سبب الهلاك .

فإذا كان شؤم المعصية على الفرد والمجتمع كبير، كما في غزوة أحد وما حصل من الرماة، وكذلك ما حصل للنبي ﷺ عندما خرج ليخبرنا بليلة القدر فوجد رجلين يتلاحيان فنُسيها، فكيف بشؤم البدعة وهي أشد منها رتبة ودرجة.

ثامناً: البدعة بريد الكفر.

لأن المبتدع لا يقف عند حد.

تاسعاً: المبتدع متهم للنبي ﷺ .

كما قال مالك إمام دار الهجرة: من ابتدع في الإسلام بدعة فقد اتهم النبي ﷺ بالخيانة وكتمان شيء من الحق.

عاشراً: البدعة تفتح باب الخلاف الذي لم يُبن على دليل بل على الأهواء، وتلقي العداوة والبغضاء بين أهل الإسلام، وما ذلك إلا لأنها تقتضي التفرق شيعاً، وقد أشار القرآن إلى ذلك، كما في قوله تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ).

الحادي عشر: المبتدع معاند للشرع، ومشاق له، وقد نزل نفسه منزلة المضاهي للشارع؛ لأن الشارع وضع الشرائع، وألزم الخلق الجري على سَنَنَها، وصار هو المنفرد بذلك.

فائدة : ٧

البدعة تستلزم تكذيب القرآن، لأن الله يقول: (اليوم أكملت لكم دينكم) .

فهذه الآية الكريمة تدل على تمام الشريعة وكمالها، وكفايتها لكل ما يحتاجه الخلق.

قال ابن كثير: هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة، حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره.

وتستلزم: القدح في الشريعة وأنها لم تكتمل.

وتستلزم: القدح في المسلمين الذين لم يأتوا بها، فكل من سبق هذه البدع دينهم ناقص؟؟ وهذا خطير!!.

وتستلزم: القدح في رسول الله ﷺ لأن هذه البدعة إما أن يكون الرسول لم يعلم بها وحينئذٍ يكون جاهلاً، وإما أن يكون قد علم بها ولكن كتمها، فيكون كاتماً للرسالة أو بعضها.

فائدة : ٨

من أقوال السلف:

قال ابن مسعود: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وكل بدعة ضلالة. رواه أبو خيثمة.

وقال: اقتصاد في سنة خير من اجتهاد في بدعة. رواه ابن المبارك في الزهد

وقال ابن مسعود ﷺ : إياكم والتبدع والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق. رواه الدارمي

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا تجالس أهل الأهواء فإن مجالستهم ممرضة للقلوب. إسناده صحيح.

وقال رجل لابن عباس أوصني، قال: عليك بتقوى الله، والاستقامة، واتبع ولا تبتدع.

وكان أبو الأحوص يقول لنفسه: يا سلاّم نَمْ على سنة، خير من أن تقوم على بدعة.

وعن الحسن البصري قال: لا تجالس صاحب هوى فيقذف في قلبك ما تتبعه عليك فتهلك أو تخالفه فيمرض قلبك.

وقال رجل من أهل الأهواء لأيوب السختياني: يا أبا بكر أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول بيده ولا نصف كلمة.

وقال إبراهيم النخعي: لو أن أصحاب محمد مسحوا على ظُفُر، لما غسلته التماس الفضل في اتباعهم. رواه الدارمي

وقال ابن كثير في تفسيره: ومن لم تسعه طريقة الرسول ﷺ وطريقة المؤمنين السابقين فلا وسّع الله عليه.

وقال قتادة: إن الرجل إذا ابتدع بدعة ينبغي لها أن تُذكر حتى تُحذر.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمداً ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً) فما لم يكن يومئذٍ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً ".

وقال الإمام أبو عثمان النيسابوري: من جلس إلي صاحب بدعة حُرِمَ الحكمة، قال: من أمَّر السنة على نفسه قولًا وعملًا نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولًا وعملًا نطق البدعة.

وقال يونس بن عبيد: لا تجالس سلطاناً ولا صاحب بدعة .

وقال سفيان: المسلمون كلهم عندنا على حالة حسنة إلا رجلين ، صاحب بدعة أو صاحب سلطان.

وقال يحيى بن أبي كثير: إذا لقيت صاحب بدعة في طريق فخذ في غيره.

وقال ابن المبارك: ليكن مجلسك مع المساكين، وإياك أن تجالس صاحب بدعة.

وقال الفضيل بن عياض: لا تجلس مع صاحب بدعة فإني أخاف أن تنزل عليك اللعنة.

وقال الفضيل أيضاً: من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام.

وقال رحمه الله تعالى: من جلس مع صاحب بدعة فاحذروه، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يعط الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب البدعة حصن من حديد.

وقال الحسن البصري ﷺ : لا تجالس صاحب بدعة فيمرض قلبك.

وقال سفيان الثوري: من سمع بدعة فلا يحكها لجلسائه لا يلقيها في قلوبهم.

وروى ابن بطة عن أيوب أنه قال: لست ترد عليهم بشيء أشد من السكوت.

وقال الإمام البربهاري رحمه الله: إذا ظهر لك من إنسان شيء من البدع: فاحذره؛ فإن الذي أخفى عنك أكثر مما أظهر.

وقال الإمام ابن سيرين رحمه الله تعالى: أسرع الناس ردة أهل الأهواء.

قال ابن تيمية رحمه الله: ومثل التحذير من أهل البدع أمر واجب باتفاق المسلمين، بل هو من جنس الجهاد في سبيل الله.

وقال رحمه الله: البدع هي مبادئ الكفر، ومظانّ الكفر، كما أنّ السُّنن المشروعة هي مظاهر الإيمان.

قال الأوزاعي رحمه الله: لا تمكنوا صاحب بدعة من جدل، فيورث قلوبكم من فتنته ارتياباً.

وقال الفضيل بن عياض: الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، ولا يمكن أن يكون صاحب سنّة يمالئ صاحب بدعة إلا من النفاق.

وقال الإمام البغوي رحمه الله: وقد مضت الصحابة والتابعون، وأتباعهم، وعلماء السنن على هذا مجمعين متفقين على معاداة أهل البدع ومهاجرتهم. [شرح السنّة، للبغوي: ١/ ٢٢٧].

وقال الشاطبي: إن فرقة النجاة، وهم أهل السنة، مأمورون بعداوة أهل البدع، والتشريد بهم، و التنكيل بمن انحاش إلى جهتهم، ونحن مأمورون بمعاداتهم، وهم مأمورون بموالاتنا والرجوع إلى الجماعة. [الاعتصام، للشاطبي: ١/ ١٢٠].

قال ابن قدامة: كان السلف ينهون عن مجالسة أهل البدع، و النظر في كتبهم.

وعن مجاهد قال: كنت مع ابن عمر فثوّب رجل في الظهر أو العصر، فقال: اخرج بنا فإن هذه بدعة. رواه أبو داود

وعن نافع أن رجلاً عطس إلى جنب ابن عمر فقال: الحمد لله والسلام على رسول الله، فقال ابن عمر: وأنا أقول: الحمد لله والسلام على رسول الله، وليس هكذا علمنا رسول الله ﷺ، علمنا أن نقول: الحمد لله رب العالمين). رواه الترمذي والحاكم

فائدة : ٩

أن ديننا كامل فلا يحتاج إلى من يكمله.

قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم ...).

وعن أبي ذر قال (تركنا رسول الله ﷺ ما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا فيه علماً، قال ﷺ: ما بقي شيء يقرب إلى الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم) رواه الطبراني.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكاً يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمداً خان الرسالة، لأن الله يقول: اليوم أكملت لكم دينكم، فما لم يكن يؤمئذ ديناً، فلا يكون اليوم ديناً.

فائدة : ١٠

وجوب معرفة البدع للتحذير منها والتنفير.

قال الشاعر: عرفت الشر لا للشر ... لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الخير ... من الشر يقع فيه

فائدة : ١١

أن البدع أحب إلى إبليس من المعصية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أهل البدع شر من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع.

فائدة : ١٢

الأصل في العبادات المنع حتى يرد الدليل.

فالأصل في باب العبادات هو اتباع الرسول (بدون زيادة ولا نقصان) فليس لأحد مهما كان أن يزيد في العبادة شيئاً ولا أن ينقص منها شيئاً .

وقد أمر الرسول ﷺ بالالتزام بالعبادة كما فعلها هو عليه الصلاة والسلام .

قال ﷺ (صلوا كما رأيتموني أصلي) .

وقال ﷺ (خذوا عني مناسككم) .

الحديث السادس

عَنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ – رَضي الله عنهُما – قال : سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ (إنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ وإنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ ، وبَينَهُما أُمُورٌ مُشتَبِهاتٌ ، لا يَعْلَمُهنّ كثيرٌ مِن النَّاسِ ، فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ استبرأ لِدينِهِ وعِرضِه ، ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ ، كالرَّاعي يَرعَى حَوْلَ الحِمَى يُوشِكُ أنْ يَرتَعَ فيهِ ، ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، ألا وإنَّ حِمَى اللهِ محارِمُهُ ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ صلَحَ الجَسَدُ كلُّه ، وإذَا فَسَدَت فسَدَ الجَسَدُ كلُّه ، ألا وهِيَ القَلبُ) رواهُ البُخاريُّ ومُسلم .

==========

(**عَنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ**) بن سعد بن ثعلبة الأنصاريّ الخزرجيّ الصحابيّ ابن الصحابيّ –رضي الله عنهما–، سكن الشام، ثم ولي إمرة الكوفة، ثم قُتل بحمص سنة (٦٥) وله (٦٤) سنةً

(**بيّن**) ظاهر.

(**مشتبهات**) جمع مشتبه، وهي المشكل لما فيه من عدم الوضوح في الحل أو الحرمة.

(**لا يَعْلَمُهنّ كثيرٌ مِن النَّاسِ**) أي: لا يعلم حكمهنّ، وجاء واضحًا في رواية الترمذيّ بلفظ (لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي، أم من الحرام؟) ومفهوم قوله (كثيرٌ) أن معرفة حكمها ممكن، لكن للقليل من الناس، وهم المجتهدون، فالشبهات على هذا في حقّ غيرهم، وقد تقع لهم حيث لا يظهر لهم ترجيح أحد الدليلين، قاله في "الفتح" .

وقال النوويّ رحمه الله: معنى قوله (لا يعلمهنّ كثير من الناس) أنها ليست بواضحة الحل، ولا الحرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس، ولا يعلمون حكمها، وأما العلماء فيعرفون حكمها بنصّ، أو قياس، أو استصحاب، أو غير ذلك .

(**فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ**) أي : ابتعد عنها .

(**استبرأ لِدينِهِ**) أي: بَرَأَ دينُهُ من النقص .

(**وعِرضِه**) من الطعن فيه ، لأن من لم يُعْرَف باجتناب الشبهات لم يَسْلَم لقول من يَطعن فيه .

(**ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ**) سيأتي معناها إن شاء الله .

(**ألا وإنَّ حِمَى اللهِ محارِمُهُ**) المراد بالمحارم فعل المنهيّ المحرّم، أو ترك المأمور الواجب .

(**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً**) أي: قَدْرَ ما يُمْضَغ، وعَبّر بها هنا عن مقدار القلب في الرؤية، وسُمِّي القلبُ قلبًا؛ لتقلبه في الأمور، أو لأنه خالص ما في البدن، وخالص كل شيء قلبه، أو لأنه وُضِع في الجسد مقلوبًا، قاله في "الفتح".

وقال القرطبيّ رحمه الله: المضغة: القطعة من اللحم، وهي قدر ما يَمضغه الماضغ، يعني بذلك صغير جرمها، وعظيم قدرها.

(**ألا وهِيَ القَلبُ**) وخَصَّ القلبَ بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وبفساده تفسد، وفيه تنبيه على تعظيم قدر.

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث .

قال النووي : أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى عِظَم وَقْع هَذَا الْحَدِيث ، وَكَثْرَة فَوَائِده ، وَأَنَّهُ أَحَد الْأَحَادِيث الَّتِي عَلَيْهَا مَدَار الْإِسْلَام . قَالَ جَمَاعَة : هُوَ ثُلُث الْإِسْلَام ، وَأَنَّ الْإِسْلَام يَدُور عَلَيْهِ ، وَعَلَى حَدِيث : " الْأَعْمَال بِالنِّيَّةِ " ، وَحَدِيث : " مِنْ حُسْن إِسْلَام الْمَرْء تَرْكه مَا لَا يَعْنِيه " .

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيّ : يَدُور عَلَى أَرْبَعَة أَحَادِيث : هَذِهِ الثَّلَاثَة ، وَحَدِيث : "لَا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يُحِبّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبّ لِنَفْسِهِ " وَقِيلَ : حَدِيث" اِزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبّك اللَّه ، وَازْهَدْ مَا فِي أَيْدِي النَّاس يُحِبّك النَّاس " قَالَ الْعَلَاء : وَسَبَب عَظْم مَوْقِعه أَنَّهُ ﷺ نَبَّهَ فِيهِ عَلَى إِصْلَاح الْمَطْعَم وَالْمَشْرَب وَالْمَلْبَس وَغَيْرهَا ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي تَرْك الْمُشْتَبِهَات ، فَإِنَّهُ سَبَب لِحِمَايَةِ دِينه وَعِرْضه ، وَحَذَرًا مِنْ مُوَاقَعَة الشُّبُهَات . (نووي)

وقال ابن حجر : وقد عظّم العلماء أمر هذا الحديث، فعَدُّوه رابع أربعة، تدور عليها الأحكام، كما نُقل عن أبي داود .

فائدة : ٢

قسم النبي ﷺ الأمور إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: حلال واضح لا يخفى حله، كأكل الخبز، والمشي.

القسم الثاني: حرام واضح، كالخمر والزنا والغيبة.

القسم الثالث: مشتبه: يعني ليست بواضحة الحل أو الحرمة.

فهذه لا يعرفها كثير من الناس، أما العلماء فيعرفون حكمها بنص أو قياس.

وقال النووي : مَعْنَاهُ : أَنَّ الْأَشْيَاء ثَلَاثَة أَقْسَام : حَلَال بَيِّن وَاضِح لَا يَخْفَى حِلّه ، كَالْخُبْزِ وَالْفَوَاكِه وَالزَّيْت وَالْعَسَل وَالسَّمْن وَلَبَن مَأْكُول اللَّحْم وَبَيْضه وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ الْمَطْعُومَات ، وَكَذَلِكَ الْكَلَام وَالنَّظَر وَالْمَشْي وَغَيْر ذَلِكَ مِنْ التَّصَرُّفَات ، فهيَ حَلَال بَيِّن وَاضِح لَا شَكّ فِي حِلّه .

وَأَمَّا الْحَرَام الْبَيِّن فَكَالْخَمْرِ وَالْخِنْزِير وَالْمَيْتَة وَالْبَوْل وَالدَّم الْمَسْفُوح ، وَكَذَلِكَ الزِّنَا وَالْكَذِب وَالْغِيبَة وَالنَّمِيمَة وَالنَّظَر إِلَى الْأَجْنَبِيَّة وَأَشْبَاه ذَلِكَ .

وَأَمَّا الْمُشْتَبِهَات فَمَعْنَاهُ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِوَاضِحَةِ الْحِلّ وَلَا الْحُرْمَة ، فَلِهَذَا لَا يَعْرِفهَا كَثِير مِنْ النَّاس ، وَلَا يَعْلَمُونَ حُكْمهَا ، وَأَمَّا الْعُلَمَاء فَيَعْرِفُونَ حُكْمهَا بِنَصٍّ أَوْ قِيَاس أَوْ اِسْتِصْحَاب أَوْ غَيْر ذَلِكَ . (نووي)

وقال القرطبيّ : يعني أن كل واحد منهما مُبَيَّن بأدلته في كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ تأصيلًا وتفصيلًا، فمن وقف على ما في الكتاب والسُّنة من ذلك وجد فيهما أمورًا جلية التحليل، وأمورًا جلية التحريم، وأمورًا مترددة بين التحليل والتحريم، وهي التي تتعارض فيها الأدلة، فهي المتشابهات. (المفهم)

وقال ابن رجب: معنى الحديث: أن الحلال المحض بيّن لا اشتباه فيه، وكذلك الحرام المحض، ولكن بين الأمرين أمور تشتبه على كثير من الناس، هل هي من الحلال أم من الحرام؟ أما الراسخون في العلم فلا تشتبه عليهم ذلك، ويعلمون من أيّ القسمين هي. فقوله ﷺ في المشتبهات (لا يعلمهن كثير من الناس) دليل على أن من الناس من يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعرفها، وليست مشتبهة في نفس الأمر.

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن من اشتبه عليه أمر من الأمور فالأفضل والأكمل أن يتقي هذا الأمر المشتبه فيه.

لقوله (فَمَن اتَّقى الشُّبهاتِ استبرأ لِدينِهِ وعِرضِه) .

لأن ذلك أسلم لدينه وعرضه.

ومعنى (استبرأ) أي: طلب البراءة لدينه من النقص، ولعرضه من الشيْن.

قال ابن رجب رحمه الله: معنى (استبرأ) طلب البراءة لدينه وعرضه مِنَ النَّقْص والشَّين، والعِرْضُ: هو موضعُ المدح والذمّ من الإنسان، وما يحصل له بذكره بالجميل مدحٌ، وبذكره بالقبيح قدحٌ، وقد يكون ذلك تارةً في نفس الإنسان، وتارة في سلفه، أو في أهله، فمن اتَّقى الأمور المشتبهة واجتنبها، فقد حَصَّنَ عِرْضَهُ مِنَ القَدح والشَّين الداخل على من لا يجتنبها، وفي هذا دليل على أنَّ من ارتكب الشُّبهات، فقد عرَّض نفسه للقدح فيه والطَّعن، كما قال بعض السَّلف: من عرَّض نفسه للتُّهم، فلا يلومنَّ من أساء به الظنَّ.

وقال القرطبيّ رحمه الله: قوله (فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه) أي: من ترك ما يَشتبه عليه سَلِم دينه مما يفسده، أو ينقصه، وعرضه مما يَشينه، ويَعيبه، فيسلم من عقاب الله وذمِّه، ويدخل في زمرة المتقين الفائزين بثناء الله تعالى وثوابه .

وقال النوويّ: أي حَصَّل البراءة لدينه من الذّمّ الشرعيّ، وصان عِرضه من كلام الطاعن .

فائدة : ٤

الحديث قسّم الناس في الأمور المشتبهة إلى قسمين:

الأول: من يتقي هذه الشبهات، لاشتباهها عليه، فهذا قد استبرأ لدينه وعرضه.

والثاني: من يقع في الشبهات مع كونها مشتبهة عنده، فهذا قد أخبر النبي ﷺ أنه قد وقع في الحرام.

لقوله (ومَنْ وَقَعَ في الشُّبُهاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ) .

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن من ارتكب الشبهات، فقد عرضه نفسه للقدح فيه والطعن.

كما قال بعض السلف: من عرّض نفسه للتهم، فلا يلومن من أساء الظن به.

وعند الترمذي (فمن تركها، استبراءً لدينه وعرضه، فقد سلِم) والمعنى: أنه يتركها بهذا القصد – وهو براءة دينه وعرضه من النقص – لا لغرض آخر فاسد من رياء ونحوه.

فائدة : ٦

الحديث دليل على أن طلب البراءة للعرض ممدوح كطلب البراءة للدين.

وقد جاء في رواية في الصحيحين في هذا الحديث (فمن ترك ما يشتبه عليه من الإثم، كان لما استبان أترك).

يعني: أن من ترك الإثم مع اشتباهه عليه، وعدم تحققه، فهو أولى بتركه إذا استبان له أنه إثم.

فائدة : ٧

قوله ﷺ (**ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام**) اختلف في معناه على قولين :

الأول: أن يكون ارتكابه للشبهة مع اعتقاده أنها شبهة ذريعة إلى ارتكابه الحرام الذي يعتقد أنه حرام بالتدرج والتسامح.

ويعضد هذا المعنى ما روي في الصحيحين (ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أو شك أن يواقع ما استبان).

والمعنى الثاني: أن من أقدم على ما هو مشتبه عنده لا يدري أهو حلال أو حرام، فإنه لا يأمن أن يكون حراماً في نفس الأمر، فيصادف الحرام وهو لا يدري أنه حرام.

ويعضد هذا ما في رواية ابن عمر للحديث، وفيه: (فمن اتقاها – أي المشتبهات – كان أنزه لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات أوشك أن يقع في الحرام).

قال القرطبيّ رحمه الله: قوله (وقع في الحرام) وذلك يكون بوجهين:

أحدهما : أن من لم يتق الله تعالى، وتجرَّأ على الشبهات، أَفْضَتْ به إلى المحرمات بطريق اعتياد الجرأة، والتساهل في أمرها، فيحمله ذلك على الجرأة على الحرام المحض .

ولهذا قال بعض المتقين: الصغيرة تجر إلى الكبيرة، والكبيرة تجر إلى الكفر، ولذلك قال ﷺ : المعاصي بريد الكفر ، وهو معنى قوله تعالى (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

وثانيهما : أن من أكثر من مواقعة الشبهات أظلم عليه قلبه، لفقدان نور العلم، ونور الورع، فيقع في الحرام، ولا يشعر به، وإلى هذا النور الإشارة بقوله تعالى (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) وإلى ذلك الإظلام الإشارة بقوله: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

فائدة : ٨

شبه النبي ﷺ الذي يقع في الشبهات بالراعي يرعى بغنمه وإبله حول الحمى، أي حول المكان المحمي، يوشك ويقرب أن يقع فيه، لأن البهائم إذا رأت الأرض المحمية مخضرة مملوءة من العشب فسوف تدخل هذه القطعة المحمية، كذلك المشتبهات إذا حام حولها العبد فإنه يصعب عليه أن يمنع نفسه عنها.

قال القرطبيّ رحمه الله : هذا مَثَلٌ ضربه النبيّ ﷺ لمحارم الله تعالى، وأصله: أن ملوك العرب كانت تحمي مراعي لمواشيها الخاصّة بها، وتُحَرِّجُ بالتوعد بالعقوبة على من قربها، فالخائف من عقوبة السلطان يَبْعُد بماشيته من ذلك الحمى؛ لأنه إن قرب منه فالغالب الوقوع فيه، وإن أكثر الحذر؛ إذ قد تنفرد الفاذّة، وتشذّ الشاذّة، ولا تنضبط، فالحذر أن يجعل بينه وبين ذلك الحمى مسافة بحيث يَأْمَن فيها من وقوع الشاذة والفاذّة، وكذلك محارم الله تعالى، لا ينبغي أن يحوم حولها مخافة الوقوع فيها على الطريقتين المتقدمتين.

وقال ابن حجر : قوله (كراعٍ يرعى ... إلخ) جملة مستأنفة، وردت على سبيل التمثيل؛ للتنبيه بالشاهد على الغائب، والحمى: الْمَحْمِيّ، أُطلق المصدر على اسم المفعول، وفي اختصاص التمثيل بذلك نكتة، وهي أن ملوك العرب كانوا يَحمون لمراعي مواشيهم أماكن مختصة يتوعدون من يرعى فيها بغير إذنهم بالعقوبة الشديدة، فمثّل لهم النبيّ ﷺ بما هو مشهور عندهم، فالخائف من العقوبة المراقب لرضا الملك يَبْعُد عن ذلك الحمى؛ خشية أن تقع مواشيه في شيء منه، فبُعْدُهُ أسلم له، ولو اشتدّ حَذَرُهُ، وغير الخائف المراقب يقرب منه، وَيرْعَى من جوانبه فلا يأمن أن تنفرد الفاذّة، فتقع فيه بغير اختياره، أو يمحل المكان الذي هو فيه، ويقع الْخِصب في الحمى، فلا يملك نفسه أن يقع فيه، فالله سبحانه وتعالي هو الملك حقًّا، وحِماه محارمه.

فائدة : ٩

الحديث دليل على أن من أسباب النجاة من الوقوع في الحرام : الورع والابتعاد عن الشبهات.

فائدة : ١٠

فضائل الورع .

أولاً: أنه سبب لاستبراء العرض والدين.

كما في حديث الباب (من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه).

ثانياً: أنه خير خصال الدين:

قال ﷺ (وخير دينكم الورع) رواه الحاكم.

ثالثاً: من علامات العبادة.

قال ﷺ (كن ورعاً تكن أعبد الناس) رواه الترمذي وفيه ضعف.

رابعاً: أنه من هدي النبي ﷺ وخلقه.

عن أنس: (أن النبي ﷺ وجد تمرة في الطريق فقال: لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها) متفق عليه.

خامساً: أنه سبب للنجاة.

عن الحسن بنِ علي قَالَ: حَفظْتُ مِنْ رَسُول الله ﷺ (دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنِينَةٌ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ). رواه الترمذي

فائدة : ١١

من أقوال السلف في الورع:

قال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال حسان بن أبي سنان: ما من شيء أهون من الورع، إذا رابك شيء فدعه.

وقال عمر: كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام.

وقال العسكري: لو تأمل الحذاق في هذا الحديث لتيقنوا أنه قد استوعب كل ما قيل في تجنب الشبهات.

وقال شيخ الإسلام: الورع من قواعد الدين.

وقال ابن المبارك: ترك فلس من حرام أفضل من مائة ألف فلس أتصدق بها.

وقال الضحاك: لقد أدركت أصحابي وما يتعلمون إلا الورع.

وقال أبو سليمان الداراني: الورع أول الزهد، كما أن القناعة أول الرضا.

وقال إبراهيم بن أدهم: ما أدرك من أدرك إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه.

وكان الإمام الورع سعيد بن المسيب لا يقبل من أحد شيئاً لا ديناراً ولا درهماً ولا شيئاً.

قال أبو الدرداء: تمام التقوى أن يتقي العبد ربه، حتى يتقيه من مثقال ذرة.

وقال الحسن البصري: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الوقوع بالحرام.

وقال الثوري: إنما سموا متقين، لأنهم اتقوا ما لا يتقى.

فائدة : ١٢

حكمة الله في ذكر المشتبهات حتى يتبين من كان حريصاً على طلب العلم ومن ليس بحريص.

فائدة : ١٣

أنه لا يمكن أن يكون في الشريعة ما لا يعلمه الناس كلهم.

فائدة : ١٤

حسن تعليم النبي ﷺ بضرب الأمثال المحسوسة ليتبين بها المعاني المعقولة.

فائدة : ١٥

قوله (**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً إذا صلَحَتْ .... ، ألا وهِيَ القَلبُ**)

فيه دليل على أنه يجب على الإنسان أن يهتم بقلبه، لأن مدار الصلاح والفساد عليه، فإذا صلح صلح سائر الجسد وإذا فسد فسد سائر الجسد.

قال ابن رجب رحمه الله: فيه إشارةٌ إلى أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحه، واجتنابه للمحرَّمات واتِّقاءه للشُّبهات بحسب صلاحِ حركةِ قلبِه. ... فإنْ كان قلبُه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يُحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركاتُ الجوارح كلّها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرَّمات كلها، وتَوَقِّ للشبهات حذرًا مِنَ الوقوعِ في المحرّمات.

وإنْ كان القلبُ فاسدًا، قدِ استولى عليه اتباعُ هواه، وطلب ما يحبُّه، ولو كرهه الله، فسدت حركاتُ الجوارح كلها، وانبعثت إلى كلِّ المعاصي والمشتبهات بحسب اتِّباع هوى القلب.

ولهذا يقال: القلبُ مَلِكُ الأعضاء، وبقيَّةُ الأعضاءِ جنودُه، وهم مع هذا جنودٌ طائعون له، منبعثون في طاعته، وتنفيذ أوامره، لا يخالفونه في شيءٍ من ذلك، فإنْ كان الملكُ صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإنْ كان فاسدًا كانت جنودُه بهذه المثابَةِ فاسدةً،

وقال ابن حجر: وفيه تنبيه على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن لطيب الكسب أثراً فيه.

وصلاح القلب يكون باستقامة على طاعة الله.

قال ابن القيم: استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله وحب غيره، سبق حب الله حب ما سواه، وما أسهل هذا بالدعوى، وما أصعبه بالفعل.

الثانية: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر والناهي.

فعلامة تعظيم الأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحسينها وفعلها في أوقاتها والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها.

وعلامات تعظيم المناهي: الحرص على التباعد من مظانها وأسبابها وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها.

وأن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه، وأن يجد في قلبه حزناً وكسرة إذا عصى الله في أرضه.

وأن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافياً غير مستقيم على المنهج الوسط. [الوابل الصيب]

فائدة : ١٦

يجب دعاء الله بإصلاح قلبه وتثبيته.

فقد كان ﷺ يدعو: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك.

وكان قسم النبي ﷺ: لا، ومقلب القلوب.

وينبغي التحذير من التساهل في أمر القلب.

قال ﷺ (إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء) رواه مسلم.

ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم.

قال تعالى (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم).

القلب السليم: هو السالم من الشرك والبدعة والآفات والمكروهات، وليس فيه إلا محبة الله وخشيته.

وينبغي الدعاء بسلامة القلب.

فقد كان ﷺ يقول (اللهم إني أسألك قلباً سليماً ..) رواه أحمد.

وأهم سبب لحياة القلب : الاستجابة لله ولرسوله.

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه).

ومن أسباب لين القلب :

ذكر الله.

قال تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

والعطف على المسكين.

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ يشكو قسوة قلبه؟ فقال له الرسول ﷺ (إذا أحببت أن يلين قلبك فامسح راس اليتيم وأطعم المسكين) رواه أحمد.

ومن أسباب رقة القلب : زيارة المقابر.

قال ﷺ (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة، وترق القلب) رواه أحمد.

وينبغي الحذر من قسوة القلب.

قال تعالى: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله).

قال بعض السلف: خصلتنا تقسيان القلب: كثرة الكلام، وكثرة الأكل.

وقال بعضهم: البدن إذا عري رق، وكذلك القلب إذا قلت خطاياه أسرعت دمعته.

قال ابن القيم: مفسدات القلب: كثرة النوم، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع، والمنام.

وقال بعض العلماء: صلاح القلب بخمسة أشياء: قراءة القرآن بتدبر، وخلاء البطن، وقيام الليل، والتضرع بالسحر، ومجالسة الصالحين، وأكل الحلال.

فائدة : ١٧

فضل العلم والرسوخ فيه.

فائدة : ١٨

أن المحارم هي حمى الله في الأرض.

فائدة : ١٩

وفيه الإشارة إلى المحافظة على أمور الدين ومراعاة المروءة.

فائدة : ٢٠

أن المشبهات والدخول فيها يكون لها تأثيراً على القلوب.

فائدة : ٢١

وفيه دليل لقاعدة سد الذرائع.

الحديث السابع

عنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (الدِّينُ النَّصِيحَةُ) قُلْنَا لِمَنْ قَال : (لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ) رواه مسلم .

==========

(**عنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ**) هو: تميم بن أوس بن خارجة الداريّ، أبو رُقيّة الصحابيّ المشهور، سكن بيت المقدس بعد قتل عثمان ﷺ، قيل: مات ﷺ سنة (٤٠) .

قال النووي : وَهَذَا الْحَدِيث مِنْ أَفْرَاد مُسْلِم ، وَلَيْسَ لِتَمِيمٍ الدَّارِيّ فِي صَحِيح الْبُخَارِيّ عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْءٌ ، وَلَا لَهُ فِي مُسْلِمٍ عَنْهُ غَيْر هَذَا الْحَدِيث .

(**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**) قال ابن حجر : يحتمل أن يحمل على المبالغة، أي: معظم الدين النصيحة، كما قيل: "الحج عرفة"، ويحتمل أن يحمل على ظاهره؛ لأن كل عمل لم يرد به عامله الإخلاص، فليس من الدين.

(**أئمة المسلمين**) حكامهم.

(**عامتهم**) سائر المسلمين غير الحكام.

فائدة : ١

أهمية هذا الحديث .

قال النووي: هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام، وأما ما قاله جماعات من العلماء: أنه أحد أرباع الإسلام – أي أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الإسلام – ، فليس كما قالوه، بل المدار على هذا وحده .

فائدة : ٢

تعريف النصيحة .

قيل: هي كلمة يعبر بها عن إرادة الخير للمنصوح له.

وقيل: قيام العبد بما لغيره من الحقوق، وهذا أصوب.

فالنصيحة لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِم هي: القيام بحقوقهم.

وهي باعتبار منفعتها نوعان:

أحدهما: ما منفعتها مقصودة في الأصل للناصح، وهي النصيحة لله ولرسوله ﷺ ولكتاب الله عز وجل.

والآخر: ما منفعتها مقصودة في الأصل للناصح والمنصوح معاً، وهي النصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم.

فائدة : ٣

كيفية النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم.

فالنصيحة لله: تكون بالإيمان به، ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد في صفاته، ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص، والقيام بطاعته، واجتناب معاصيه.

والنصيحة لكتابه: بقراءته وتدبره وحفظه والعمل به.

والنصيحة لرسوله: تكون بتصديق رسالته، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حياً وميتاً، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته ونشر شريعته.

والنصيحة لأئمة المسلمين: تكون بمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم، وأن يدعى لهم بالصلاح.

والنصيحة لعامة المسلمين: تكون بإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكف الأذى عنهم، وتعليم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه.

فائدة : ٤

الحديث دليل على فضل النصيحة وعظم منزلتها، وللنصيحة فضائل:

أولاً: أنها مهمة الرسل.

قال تعالى إخباراً عن نوح (أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ).

ثانياً: أن منزلتها عظيمة.

كما في حديث الباب.

ثالثاً: أنها من علامات كمال الإيمان.

كما قال ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

رابعاً: أنها من حقوق المسلم على أخيه المسلم.

قال ﷺ (للمؤمن على المؤمن ست خصال: ... وينصح له إذا غاب أو شهد).

فائدة : ٥

ينبغي أن تسود النصيحة بين المسلمين، فإنها من أعظم مكملات الإيمان.

سئل ابن المبارك: أي الأعمال أفضل؟ قال: النصح لله.

وقال الفضيل: المؤمن يستر وينصح والفاجر يهتك ويعير.

وقال أيضاً: ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة الصلاة والصيام، وإنما أدرك عندنا بسخاء الأنفس، وسلامة الصدور، والنصح للأمة.

قال أبو بكر المزني: ما فاق أبو بكر أصحاب رسول الله بصوم ولا بصلاة، ولكن بشيء كان في قلبه.

قال ابن علية: الذي كان في قلبه الحب لله عز وجل والنصيحة في خلقه.

وقال أبو الدرداء: إن شئتم لأنصحن لكم: إن أحب عباد الله إلى الله، الذين يحبّبون الله تعالى إلى عباده ويعملون في الأرض نصحاً.

وقال حكيم: ودّك من نصحك.

قال بعض السلف: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبّخه.

قال عبد العزيز بن أبي رواد رحمه الله: كان من كان قبلكم إذا رأى الرجل من أخيه شيئاً يأمره في رفق فيؤجر في أمره ونهيه، وإن أحد هؤلاء يخرق بصاحبه فيستغضب أخاه ويهتك ستره.

فائدة : ٦

وهذا الحديث يفيد بعمومه ورواياته أنه يجب أن ينصح المسلم لأخيه المسلم في جميع جوانب الحياة وليس في جانب واحد بل دنيا وأخرى.

وجرير بن عبد الله قد بايع الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم، قد طبق ذلك:

فقد ذكر النووي في شرح مسلم: أن جريراً أمر مولاه أن يشتري له فرساً، فاشترى له فرساً بثلاثمائة درهم وجاء به وبصاحبه لينقده الثمن، فقال جرير لصاحب الفرس: فرسك خير من ثلاثمائة درهم، أتبيعه بأربعمائة درهم؟ قال: ذلك إليك يا أبا عبد الله. فقال: فرسك خير من ذلك أتبيعه بخمسمائة درهم؟ ثم لم يزل يزيد مائة فمائة وصاحبه يرضى وجرير يقول فرسك خير إلى أن بلغ ثمانمائة درهم فاشتراه بها. فقيل له بذلك فقال: إني بايعت رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم.

هكذا يفعل صحابة الرسول ﷺ في النصح للمسلمين في أمور دينهم ودنياهم ولنا فيهم أسوة (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.

فائدة : ٧

وقد وَرَد في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عمومًا، وفي بعضها النصح لولاة أمورهم، وفي بعضها نصح ولاة الأمور لرعاياهم.

فأما الأول – وهو النصح للمسلمين عمومًا – ففي "الصحيحين" عن جرير بن عبد الله ﷺ قال (بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم) .

وفي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال (حَقّ المؤمن على المؤمن ست"، فذكر منها: "وإذا استنصحك فانصح له).

وفي "المسند" عن حكيم بن أبي يزيد، عن أبيه، عن النبيّ ﷺ قال (إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصح له) .

وأما الثاني – وهو النصح لولاة الأمور، ونصحهم لرعاياهم – :

ففي "صحيح مسلم" عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال (إن الله يرضى لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا، ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من وَلّاه الله أمركم) .

وفي "المسند" وغيره، عن جبير بن مُطعِم ﷺ أن النبي ﷺ قال في خطبته بالْخَيْف من منى (ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليهنّ قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين) .

وفي "الصحيحين" عن معقل بن يسار ﷺ عن النبي ﷺ قال (ما من عبد يسترعيه الله رعيةً، ثم لم يُحِطْها بنصحه، إلا لم يدخل الجنة) .

فائدة : ٨

ومن أعظم النصح أن ينصح لمن استشاره في أمره.

كما قال ﷺ (إذا استنصح أحدكم أخاه فلينصحه).

وكذلك النصح في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قالت له فاطمة بنت قيس: قد خطبني أبو جهم ومعاوية، فقال لها: أما أبو جهم فرجل ضراب للنساء، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، فبين النبي ﷺ حال الخاطبين للمرأة، فإن النصح في الدين أعظم من النصح في الدنيا، فإذا كان النبي ﷺ نصح المرأة في دنياها فالنصيحة في الدين أعظم.

فائدة : ٩

آداب النصيحة:

أولاً: الإخلاص لله عز وجل.

فلابد أن يقصد بنصحه وجه الله تبارك وتعالى كما في حديث عمر (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).

ثانياً: ألا يقصد التشهير.

ثالثاً: أن يكون النصح سراً.

قال الشافعي: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله: وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سراً.

قال بعضهم: من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبخه.

قال الشاعر:

تغمدني بنصحك في انفرادي ... وجنّبني النصيحةَ في الجماعة

فإن النصحَ بين الناسِ نوعٌ ... من التوبيخِ لا أرضى استماعه

رابعاً: أن يكون النصح بلطف وأدب ورفق ولا يثقل على الناصح ولا يكثر عليه.

كما جاء في الحديث عن عائشة أن النبي ﷺ قال (إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه).

خامساً: اختيار الوقت المناسب للنصيحة.

فائدة : ١٠

تحريم الغش والخديعة.

فائدة : ١١

بيان مكانة النصح في الإسلام، حيث اعتنى به الشارع فكان يبايع عليه.

فائدة : ١٢

النَّصِيحَةُ صِدْقٌ فِي إِسْلامِ العَبْدِ.

فائدة : ١٣

أَدَاءُ الحُقُوقِ لأَهْلِهَا.

فائدة : ١٤

حُبُّ الخَيْرِ للغَيْرِ.

فائدة : ١٥

الحِرْصُ عَلَى هِدَايَةِ الخَلْقِ.

الحديث الثامن

عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) متفق عليه .

==========

(أمرت) أمرني الله.

(الناس) عبدة الأوثان والمشركين.

(حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ) جُعلت غاية المقاتلة وجود ما ذكر، فمقتضاه أن من شهد وأقام وآتى عصم دمه ولو جحد باقي الأحكام؟ والجواب: أن الشهادة بالرسالة تتضمن التصديق بما جاء به، مع أن نص الحديث

(إلا بحق الإسلام) يدخل فيه جميع ذلك.

(وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ) أي: يؤدوها بخشوعها وأركانها وسننها.

(ويؤتوا الزكاة) يدفعوها إلى مستحقيها.

(فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ) أي: ما ذكِر من الشهادة وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

(عصموا) حفظوا ومنعوا.

(إِلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ) وفي رواية (إلا بحقها) أي: بحق الدماء والأموال، وأراد بحق الدماء ما جاء في حديث ابن مسعود قال: قال ﷺ (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس ...) وبحق الأموال الزكاة ونحوها من الحقوق المتعلقة بها.

(وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ) أي: يعاملون بالظاهر وأما الباطن فإلى الله، قال ابن رجب: يعني أن الشهادتين مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعصم دم صاحبها وماله في الدنيا، إلا أن يأتي ما يبيح دمه، وأما في الآخرة فحسابه على الله، فإن كان صادقاً أدخله الله الجنة، وإن كان كاذباً فإنه من جملة المنافقين.

فائدة : ١

في هذا الحديث ذكر النبي ﷺ أمران:

الأول: ما يثبت به الإسلام، وهو الشهادتان، فمن جاء بهما ثبت له عقد الإسلام وصار مسلماً معصوم الدم والمال.

والثاني: ما يبقى به الإسلام وأعظمه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.

فليس معنى الحديث أن العبد يُقاتَل حتى يأتي بالشهادتين ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، وأنه لا يكف عنه إلا بعد اجتماعها، وذلك لأن دلائل الوحيين ظاهرة في الاكتفاء بالشهادتين لعصمة الدم والمال، ولكنه إذا جاء بهما عصمته حالاً ثم لزمه ما بقي وراء الشهادتين من أحكام الدين المعظمة.

فالاقتصار على النطق بالشهادتين كافٍ لعصمة النفس والمال ..

والنبي ﷺ كان يقبل من كل من جاءه يريد الإسلام الشهادتين فقط، ويعصم دمه بذلك ويجعله مسلماً، ويؤيد هذا أحاديث قولية صحيحة لم يذكر فيها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة:

ففي الصحيحين عن أبي هريرة. أن النبي ﷺ قال (أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقها وحسابه على الله).

وفي رواية لمسلم (حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به).

وروى مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبدُ من دون الله، حرم الله دمه وماله وحسابه على الله).

وأنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد قتله لمن قال: لا إله إلا الله، واشتد نكيره عليه.

فائدة : ٢

قوله ﷺ (فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ...) أي: صارت دماؤهم وأموالهم حراماً غير حلال لما علِم من ظاهرِهم دون اعتداد بباطنهم.

وهذه العصمة نوعان:

أحدهما: عصمة الحال.

ويُكتفَى فيها بالشهادتين، فمن أقر بالشهادتين عُصِم دمه وماله حالاً.

والثاني: عصمة المآل .

ولا يكتفَى فيها بالشهادتين، بل لابد من الإتيان بحقوقِهما من أركان الإسلام وغير ذلك من الشرائع، وعندئذ يُحكم ببقاء إسلامه وامتداد ما ثبت له من العصمة ابتداءً.

فائدة : ٣

الحديث دليل على وجوب مقاتلة الكفار (مع القدرة) حتى يسلموا وينطقوا بالشهادتين، وحتى لا يبقى شرك.

قال تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ) (لا تكون فتنة) أي لا يبقى شرك، لأن الدين لا يكون كله لله ما دام في الأرض مشرك.

ولقوله ﷺ (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ...).

فائدة : ٤

المراد بقوله (أمرت أن أقاتل الناس) ما عدا أهل الكتاب، لأن هؤلاء تؤخذ منهم الجزية، وأما غيرهم فيقاتلون إذا لم يسلموا (وهذا مذهب كثير من العلماء).

فائدة : ٥

الحديث دليل على أن أول واجب على المكلف هو النطق بالشهادتين لا النظر والاستدلال.

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله).

فائدة : ٦

عظم التوحيد وأنه سبب لحقن الدم.

فائدة : ٧

فضل الجهاد في سبيل الله وقتال الكفار، وأنه ينقسم إلى قسمين:

قسم طلب، وقسم دفاع.

فائدة : ٨

أن الأحكام تجري على الظاهر والله يتولى السرائر لقوله ﷺ (وحسابهم على الله) فمن أظهر لنا الإسلام وقام بما يجب عليه عصم دمه وماله وعومل معاملة المسلمين.

وقد جاءت أحاديث كثيرة كلها تدل على هذا الأصل : أن الحكم في الدنيا على الظاهر دون الباطن .

قال النووي: القاعِدةُ المعروفةُ في الفِقهِ والأصولِ: أنَّ الأحكامَ يُعمَلُ فيها بالظَّاهِرِ، واللهُ يتولَّى السَّرائِرَ .

وقال ابنُ تيميَّةَ: إنَّ الإيمانَ الذي عُلِّقَت به أحكامُ الدُّنْيا، هو الإيمانُ الظَّاهِرُ، وهو الإسلامُ، فالمسَمَّى واحِدٌ في الأحكامِ الظَّاهرةِ.

وقال الشَّاطبي: إنَّ أصلَ الحُكمِ بالظَّاهِرِ مَقطوعٌ به في الأحكامِ خُصوصًا، وبالنِّسبةِ إلى الاعتقادِ في الغيرِ عُمومًا؛ فإنَّ سَيِّدَ البَشَرِ مع إعلامِه بالوَحْيِ يُجري الأمورَ على ظواهِرِها في المنافِقين وغيرِهم، وإن عَلِمَ بواطِنَ أحوالِهم، ولم يكُنْ ذلك بمُخْرِجِه عن جَرَيانِ الظَّواهِرِ على ما جَرَت عليه .

وقال ابنُ حَجَر : كلُّهم أجمعوا على أنَّ أحكامَ الدُّنْيا على الظَّاهِرِ، واللهُ يتوَلَّى السَّرائِرَ .

أ-عن أَبي عبدِ الله طارِق بن أشْيَم ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُول الله ﷺ يقول (مَنْ قالَ لاَ إلهَ إلاَّ الله، وَكَفَرَ بمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى الله تَعَالَى». رواه مسلم.

ب-وعن أَبي معبد المقداد بن الأسْود ﷺ قَالَ: قُلْتُ لرسول الله ﷺ (أرَأيْتَ إنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الكُفَّارِ، فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ، فَقَطَعَها، ثُمَّ لاَذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ: أَسْلَمْتُ لِلهِ، أَأَقْتُلُهُ يَا رَسُول الله بَعْدَ أَنْ قَالَهَا؟ فَقَالَ: «لاَ تَقْتُلهُ» فَقُلْتُ: يَا رَسُول الله، قَطَعَ إحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟! فَقَالَ: «لَا تَقتُلْهُ، فَإنْ قَتَلْتَهُ فَإنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ التي قَالَ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

ج-وعن أُسَامة بن زيدٍ رضي الله عنهما، قَالَ (بعثنا رَسُول الله ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ فَصَبَّحْنَا القَوْمَ عَلَى مِيَاهِهِمْ، وَلَحِقْتُ أنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشَيْنَاهُ، قَالَ: لاَ إلهَ إلاَّ الله، فَكفَّ عَنْهُ الأَنْصَاري، وطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المدِينَةَ، بَلَغَ ذلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَة، أقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ؟!» قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إنَّمَا كَانَ متعوِّذًا، فَقَالَ: «أقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ؟!» فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وفي رواية: فَقَالَ رَسُول الله ﷺ (أَقَالَ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وقَتَلْتَهُ؟!» قُلْتُ: يَا رَسُول الله، إنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِن السِّلاحِ، قَالَ: : أَفَلاَ شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لاَ؟!) فمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أنِّي أسْلَمْتُ يَوْمَئذٍ.

د-وعن جندب بن عبد الله ﷺ الحديث : قَالَ رَسُول الله ﷺ «أَقَتَلْتَهُ؟» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَكَيفَ تَصْنَعُ بلاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، إذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُول الله، اسْتَغْفِرْ لِي. قَالَ: «وكَيفَ تَصْنَعُ بِلا إلهَ إلاَّ الله إذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ؟» فَجَعَلَ لاَ يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيفَ تَصْنَعُ بِلاَ إلهَ إلاَّ الله إذَا جَاءَتْ يَوْمَ القِيَامَةِ». رواه مسلم.

ففي الحديث زجر شديد وتحذير من الإقدام على قتل من تلفظ بالتوحيد ، وتحذير صريح من تجاوز الظاهر والحكم على ما في القلب دون بينة .

قال النووي : قَولُه ﷺ (أفلا شَقَقْتَ عن قَلْبِه حتى تعلَمَ أقالَها أم لا)؟ الفاعِلُ في قوله (أقالَها) هو القَلْبُ، ومعناه: أنَّك إنَّما كُلِّفْتَ بالعَمَلِ بالظَّاهِرِ، وما ينطِقُ به اللِّسانُ، وأمَّا القَلْبُ فليس لك طريقٌ إلى معرفةِ ما فيه. فأنكَرَ عليه امتناعَه من العَمَل بما ظَهَر باللِّسانِ، وقال: أفلا شقَقْتَ عن قَلْبِه لتنظُرَ: هل قالها القَلْبُ واعتقَدَها وكانت فيه أم لم تكُنْ فيه بل جَرَت على اللِّسانِ فحَسْبُ؟ يعني: وأنت لستَ بقادِرٍ على هذا، فاقتَصِرْ على اللِّسانِ فحَسْبُ .

وقال رحمه الله : فيه دليل على القاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام فيها بالظاهر والله يتولى السرائر .

هـ–وعن عبد الله بن عتبة بن مسعود، قَالَ: سَمِعْتُ عمر بن الخطاب ﷺ يقولُ (إِنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُول الله ﷺ وَإِنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ، وإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الآن بما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أعمَالِكُمْ، فَمَنْ أظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمَّنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ، وَلَيْسَ لَنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ، اللهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ: إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ) رواه البخاري.

فائدة : ٩

قوله (**إلا بحقها**) كأن يرتكب ما يبيح دم المسلم: كالقتل – أو الزنا للمحصن – أو الردة.

لقوله ﷺ (لا يحل دم امراء مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة) متفق عليه.

فائدة : ١٠

أهمية الصلاة وأنها تأتي بالمرتبة الثانية بعد الشهادتين.

فائدة : ١١

أهمية الزكاة، وأنها تأتي بالمرتبة الثالثة بعد الصلاة.

فائدة : ١٢

إثبات الحساب والجزاء يوم القيامة.

فائدة: ١٣

كثيراً ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والزكاة:

فقيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

الحديث التاسع

عن أبي هُرَيْرَةَ . قال : قال رَسُولَ اللَّهِ ﷺ (مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ وَاخْتِلاَفُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِم) متفق عليه .

==========

(**ما نهيتكم**) عن شيء من المحرمات .

والنهي طلب الكف على وجه الاستعلاء .

(**اجتنبوه**) ابتعدوا عنه وفي رواية (دَعُوه) .

(**وما أمرتكم**) الأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء .

(**ما استطعتم**) ما قدرتم عليه .

(**أهلك**) صار سبب الهلاك .

(**من قبلكم**) كاليهود والنصارى .

(**كثرة مسائلهم**) أي :كثرة أسئلتهم التي كانوا يسألونها وليس وجه شرعي ، كسؤال الرؤية، والكلام، وقضيّة البقرة.

تنبيه :

قد جاء في صحيح مسلم : عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ (أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاَثاً فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ -ثُمَّ قَالَ- ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوه) رواه مسلم

فائدة : ١

قال النووي رحمه الله: هذا الحديث من قواعد الإسلام المهمة، ومن جوامع الكلم التي أعطيها النبي ﷺ، ويدخل فيما لا يحصى من الأحكام .

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هو حديث عظيم من قواعد الدين وأركان الإسلام، فينبغي حفظه والاعتناء به .

فائدة : ٢

وجوب الكف عما نهى عنه النبي ﷺ .

وهذا النهي ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : نهي تحريم .

كالشرك ، وقتل النفس ، والربا ، وشرب الخمر ، والغيبة ، والنميمة ، وغيرها .

فهذا يجب اجتنابه والابتعاد عنه .

القسم الثاني : نهي كراهة .

وذلك أن الشارع نهى عن تصرفات ، لكن قامت الأدلة على أن هذا النهي للكراهة وليس للتحريم .

فهذا الأفضل اجتنابه وتركه .

فائدة : ٣

أن ما نهى عنه الشرع يجب اجتنابه والابتعاد عنه جملة وتفصيلاً ، ولا يجوز للمكلف فعل شيء منه .

فالربا يجب اجتناب قليله وكثيره .

فائدة : ٤

يجوز فعل المحرم للضرورة ، لأن القاعدة [لا محرم مع الضرورة] .

لقوله تعالى (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) .

ومعنى الضرورة إلى المحرم : أن لا يجد سوى هذا المحرم ، وتندفع به الضرورة .

مثال : يجوز الأكل من الميتة للمضطر .

فائدة : ٥

ينبغي فعل ما أمرنا به النبي ﷺ على قدر الاستطاعة ... وما أمرنا به ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : واجبات ، فهذا يثاب فاعله ويعاقب تاركه .

كالصلاة ، والزكاة ، والصيام .

القسم الثاني : مستحبات ، فهذه يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها ، كالسنن الرواتب ، والسواك .

فالواجبات : يجب على المسلم أن يؤديها كما أمر ، فإن لم يستطع فعلى قدر استطاعته (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها).
مثال : القيام في الصلاة الفريضة ركن ، فإذا عجز عنه الإنسان فإنه يصلي جالساً .
وأما المستحبات : فالأفضل للمسلم أن يحرص عليها وأن يجتهد في الإكثار منها على حسب استطاعته .
مثال : قيام الليل : فالأفضل أن يصلي من الليل ولو شيئاً قليلاً .
قال النوويّ – رَحِمَهُ اللهُ –: هذا من قواعد الإسلام المهمّة، ومن جوامع الكلم التي أُعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يُحصَى من الإحكام؛ كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها، أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء، أو الغسل غَسَل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته، أو لغسل النجاسة، فَعَل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات، أو فطرة جماعة من تلزمه نفقتهم، أو نحو ذلك، وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته، أو حَفِظَ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة.

فائدة : ٦

قال النوويّ رحمه الله: وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) .
وأما قوله تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) ففيها مذهبان:
أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}.
والثاني: – وهو الصحيح، أو الصواب–، وبه جزم المحققون أنها ليس منسوخةً، بل قوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) مفسّرة لها، ومبيّنة للمراد بها. قالوا: وحقّ تقاته، هو امتثال أمره، واجتناب نهيه، ولم يأمر الله سبحانه وتعالى إلا بالمستطاع .
قال الله تعالى (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .
وقال تعالى (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) . (نووي)
وقال ابن حجر : وزعم بعضهم أن قوله تعالى (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) نَسَخَ قولَهُ تعالى (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ) والصحيح أن لا نسخ، بل المراد بـ (حَقَّ تُقَاتِهِ) امتثال أمره، واجتناب نهيه مع القدرة، لا مع العجز.

فائدة : ٧

يجب طاعة الرسول والانقياد لأمره .
قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ...) .
وطاعة النبي ﷺ لا تتحقق إلّا بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى.
وطاعة النبي شرط من شروط الإيمان، وقد حذرنا الله من مخالفته وعصيانه، فقال تعالى: (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ).
وأوجب علينا تصديق خبره، واتباع أمره، وجعل طاعته فرضا لازما، فهي مفتاح الجنة، وسبيل الهداية، فقال تعالى (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا).
وقد أمر الله ـ عز وجل ـ عباده المؤمنين بطاعة النبي ﷺ وألزمهم بها في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وكذا على لسان نبيه ﷺ .
وهذا الأمر معلوم من الدين بالضرورة، ولا يسع أحد إنكاره.
قال أحمد بن حنبل: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً.

وقال ابن تيمية: أمر الله بطاعة رسوله في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن، وقَرَنَ طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته، كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يُذكر الله إلا ذُكِر معه .

فائدة : ٨

فضائل طاعة الله ورسوله:

أولاً: سبب للرحمة.

قال تعالى: (وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ).

وقال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ).

وقال تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) .

ثانياً: مع الذين أنعم الله عليهم.

قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ).

ثالثاً: سبب للحياة الحقيقية.

قال تعالى: (اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ).

رابعاً: سبب للهداية.

قال تعالى: (وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا).

وقال تعالى: (وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ).

خامساً: طاعته من أركان الإيمان.

قال تعالى (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً).

سادساً: سبب لدخول الجنة.

وقال تعالى (وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً).

سابعاً : طاعته سبب في حُب الله تعالى للعبد.

قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّه).

ثامناً : طاعته سبب في مغفرة الذنب.

قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

تاسعا : طاعته طاعة لله تعالى.

قال تعالى (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظ).

فائدة : ٩

(مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأنه من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى.

قال القرطبي: قوله تعالى (مَنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله) أعلم الله تعالى أن طاعة رسوله ﷺ طاعةٌ له.

وقال السعدي: كل مَنْ أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه (فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) تعالى لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ، لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولا أنه معصوم في كل ما يُبَلِّغ عن الله لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك . (السعدي)

وقد جاء في الحديث قال ﷺ (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله) متفق عليه.

وطاعة الرسول ﷺ سبب لمحبة الله كما قال تعالى (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ).

فائدة : ١٠

أن من أسباب هلاك الأمم كثرة مسائلهم .

والأسئلة التي هي سبب للهلاك :

أ- السؤال تعنتاً وتعمقاً .

ب- السؤال بما لا فائدة منه ولا حاجة له .

ج- السؤال على وجه الاستهزاء والسخرية والعبث .

د- كثرة السؤال في المسائل التي لم تقع .

هـ- السؤال عما أخفاه الله عن خلقه لحكمة يعلمها سبحانه ، مثل السؤال عن سر القضاء والقدر ، وعن قيام الساعة .

وأما السؤال للعلم والعمل وبما يهم الإنسان فهذا مطلوب ومحمود .

قال تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ .

وقال ﷺ : (نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين) .

ولما سئل ابن عباس ، كيف نلت العلم ؟ قال : " بلسان سؤول ، وقلب عقول ، وجسم غير ملول " .

وقيل : السؤال نصف العلم .

وقال الزهري : العلم خزانة ، مفتاحها المسألة .

قال البغويّ رحمه الله في "شرح السنّة": المسائل على وجهين:

أحدهما : ما كان على وجه التعليم لما يُحتاج إليه من أمر الدين، فهو جائز، بل مأمور به؛ لقوله تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ) وعلى ذلك تتنزّل أسئلة الصحابة ﷺ عن الأنفال، والكلالة، وغيرهما.

ثانيهما : ما كان على وجه التعنّت والتكلّف، وهو المراد في هذا الحديث، والله أعلم.

ويؤيّده ورود الزجر في الحديث عن ذلك، وذمّ السلف .

فعند أحمد من حديث معاوية (أن النبيّ ﷺ نَهَى عن الأغلوطات) .

قال الأوزاعيّ: هي شداد المسائل .

وقال الأوزاعيّ أيضًا: إن الله إذا أراد أن يَحْرِمَ عبده بركة العلم ألقى على لسانه المغاليط، فلقد رأيتهم أقلّ الناس علمًا.

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول: المراء في العلم يذهب بنور العلم من قلب الرجل .

الحديث العاشر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ». ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ) .

==========

(**إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ**) الطيب : اسم من أسماء الله ومعناه المنزه عن النقائص .

(**لا يقبل إلا طيباً**) أي : من الأعمال إلا أطيبها وأخلصها .

(**وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ**) المراد بها أكل الحلال، وتحسين الأموال .

(**يُطِيلُ السَّفَرَ**) أي: زمانه، ويُكثر مباشرته، في العبادات، كالحجّ، والعمرة، والجهاد، وتعلم العلم، وسائر وجوه الخيرات.

(**أَشْعَثَ**) ثائر شعر الرأس؛ لعدم تسريحه ومشطه.

(**أَغْبَرَ**) أي : غيَّر الغبارُ لون شعره.

(**وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ**) بضم الغين، وكسر الذال المعجمة المخففة- كذا ضبطه النوويّ -رحمه الله-والمعنى رُبِّي بالحرام؛ أي: من صغره إلى كبره .

(**فَأَنَّى**) أي : فكيف .

(**يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ**) والاستفهام لاستبعاد الاستجابة .

فائدة : ١

أهمية هذا الحديث :

قال الإمام النووي – رحمه الله –: هذا الحديث أحد الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام، ومباني الأحكام .

قال الطوفي رحمه الله: واعلم أن هذا الحديث عظيم النفع؛ لأنه يتضمن بيان حكم الدعاء، وشرطه، ومانعه .

فائدة : ٢

قوله (إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ) .

فيه إثبات الطيب من أسماء الله .

قال ابن رجب : قوله ﷺ (إن الله طيّبٌ) هذا قد جاء أيضًا من حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال (إن الله طيّب يحب الطيب، نظيفٌ يحب النظافة، جوادٌ يحبّ الجود) أخرجه الترمذيّ، وفي إسناده مقال .

والطيّب هنا معناه: الطاهر، والمعنى أن الله -عز وجل- مُقَدَّسٌ منزهٌ عن النقائص والعيوب كلها، وهذا كما في قوله تعالى (وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ) والمراد المنزهون من أدناس الفواحش وأوضارها.

قال النووي رحمه الله: قال القاضي: الطيب في صفة الله تَعَالَى بمعنى: المنَزَّه عن النقائص، وهو بمعنى القدوس، وأصل الطيب: الزكاء والطهارة والسلامة من الخبث .

فائدة : ٣

قوله (لاَ يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا) .

أي : لا يقبل من الصدقات ونحوها من الأعمال إلا طيبًا أي: منزهًا عن العيوب الشرعية، والأغراض الفاسدة في النيّة.

قال القاضي البيضاويّ -رحمه الله-: الطيّب ضد الخبيث، فإذا وُصف به الله تعالى أُريد به أنه مُنَزَّه عن النقائص، مُقَدَّس عن الآفات والعيوب، وإذا وُصف به العبد مطلقًا أُريد به أنه المتَعَرّي عن رذائل الأخلاق، وقبائح الأعمال، والمتحلّي بأضداد ذلك، وإذا وُصف به الأموال أُريد به كونه حلالًا، من خيار الأموال.

ومعنى الحديث أنه تعالى مُنَزَّه عن العيوب، فلا يَقْبَل، ولا ينبغي أن يُتَقَرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى، وهو خيار أموالكم الحلال، كما قال تعالى (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) .

وقال الحافظ ابن رجب -رحمه الله-: قوله (لا يقبل إلا طيبًا) قد ورد معناه في حديث الصدقة، ولفظه (لا يتصدق أحدٌ بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبًا) متّفقٌ عليه، والمراد أنه تعالى لا يقبل من الصدقات إلا ما كان طيبًا حلالًا.

وجاء في تحفة الأحوذي : ومعنى الحديث أنه تعالى منزهٌ عن العيوب ، فلا يَقبل ولا ينبغي أن يُتقرَّب إليه إلا بما يناسبه في هذا المعنى ، وهو خيار أموالكم الحلال .

فالله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ولا يصعد إليه من الأقوال والأعمال ، ولا ينبغي أن يتقرب إليه العباد إلا بالطيب من ذلك .

قال عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَات مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيد) .

وروى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال (من تصدَّق بعَدْل تمرةٍ من كسبٍ طيب -ولا يقبل الله إلا الطيب- فإن الله يتقبَّلها بيمينه ثم يُربيها لصاحبها كما يُربّي أحدكم فلوَّه ، حتى تكون مثل الجبل) .

فلا يقبل الله تعالى الصَّدقة بالحرام ، لأنه تصرفٌ فيما لا يملك ، فمن تصدَّق من ربا أو سرقة أو غلولٌ فإن الله تعالى لا يقبله ، كما قال ﷺ (لا تُقبلُ صلاةٌ بغير طُهور ، ولا صدقةٌ من غُلُول) .

وكذلك كل الأقوال والأعمال لا يقبل الله عز وجل منها إلا الطيب الصالح .

قال عز وجل (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمَ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعَه) .

كذا الطيبون أهل الإيمان به عز وجل ومن اتبع رضوانه وعَمَر قلبه بمحبته ، فإنهم لا يُحبون إلا الطَّيب من القول ، ولا يتكلمون إلا بالحسن من الكلام .

كما قال الله تعالى في وصفهم (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ) .

قال مجاهد وابن جبير وأكثر المفسرين : المعنى : الكلماتُ الخبيثاتُ - من القول - للخبيثين من الرجال ، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول ، وكذا الكلمات الطيبات من القول للطيبين من الناس ، والطَّيبون من الناس للطيبات من القول .

وقيل المعنى : الخبيثاتُ من النساء للخبيثين من الرجال ، وكذا الطيبات للطيبين .

وأخبر عز وجل أنه يهدي أهل الجنة للكلمات الطيبة ، ويحفظ لسانهم عن الخبيث من القول .

قال سبحانه (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيد) .

وجاء في الحديث الصحيح (يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس) .

فائدة : ٤

في هذا الحديث إشارةٌ إلى أنه لا يُقبَلُ العملُ، ولا يزكو إلا بأكل الحلال، وأن أكل الحرام يفسد العمل، ويمنع قبوله، فإنه قال بعد تقريره (إن الله لا يقبل إلا طيبًا) وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا).

وقال (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُون) .

والمراد بهذا أن الرسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطيبات التي هي الحلال، وبالعمل الصالح، فما كان الأكل حلالًا، فالعمل الصالح مقبول، فإذا كان الأكل غير حلال، فكيف يكون العمل مقبولًا؟ وما ذكره بعد ذلك من الدعاء، وأنه كيف يتقبل مع الحرام، فهو مثال لاستبعاد قبول الأعمال مع التغذية بالحرام.

فائدة : ٥

فضل أكل الحلال .

قال تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم) .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) .

وقال سبحانه (كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه) .

قال الفضيل: من عرف ما يدخل جوفه كتب عند الله صديقاً.

وقال سهل التستري: من أكل الحلال أطاع الله شاء أم أبى، ومن أكل الحرام عصى الله شاء أم أبى.

وسُئِل الإمام أحمد رحمه الله: بِمَ تلين القلوب؟ قال: بأكل الحلال.

وقال عمر بن الخطاب: بالورع عما حرَّم الله يُقبل الدعاء والتسبيحُ.

وقال سهل بن عبد الله :النجاة في ثلاثة: أكل الحلال، وأداء الفرائض، والاقتداء بالنبي ﷺ .

وقال أبو عبدالله الباجي: خمس خصال بها تَمامُ العمل: الإيمان بالله، ومعرفة الحق، وإخلاص العمل لله، والعمل على السُّنة، وأكل الحلال .

فائدة : ٦

قال يوسف بن أسباط : إذا تعبد الشاب يقول إبليس: انظروا من أين مطعمه؟ فإن كان مطعمه مطعم سوء، قال: دَعُوه، لا تَشتغلوا به، دَعُوه يجتهد ويَنْصَب، فقد كفاكم نفسَه!

فائدة : ٧

خطر أكل الحرام ، وله عواقب وخيمة :

أولاً : من أسباب عدم إجابة الدعاء .

لحديث الباب .

عن مالك بن دينار رحمه الله قال: أصابَ بني إسرائيل بلاءٌ وقحطٌ، فخرجوا يُضِجُّون، فأوحى الله إلى نبيٍّ من أنبيائهم أن أخبِرهم: تخرجون إلى الصعيدِ بأبدانٍ نجِسَةٍ، وأيدٍ قد سفكتُم بها الدماءَ، وملأتم بطونَكم من الحرامِ؟ الآن حين اشتدَّ غضبي عليكم، ولن تزدادُوا مني إلا بُعدًا".

وقال بعض السلف: لا تستبطئ الإجابة وقد سددت طرقها بالمعاصي.

وعن وهب ابن منبه رحمه الله قال: من سره أن يستجيب الله دعوته، فليُطِب طعمته.

ثانياً : محق البركة:

قال الله تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) .

قال العلماء: يمحق الربا؛ أي: يُذهبه، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه بركة ماله، فلا ينتفع به، بل يعذبه به في الدنيا، ويعاقبه عليه يوم القيامة.

وعن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال (ما أحدٌ أكثرَ من الربا إلا كان عاقبَةُ أمرِه إلى قِلَّة) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ (الحَلِفُ مَنفَقةٌ للسلعةِ، ممحَقةٌ للربح) .

وعن حكيم بن حزام ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (البيِّعانِ بالخِيارِ ما لم يتفرَّقَا – أو قال: حتى يتفَرَّقا – فإن صدَقا وبيَّنَا، بورِك لهما في بيعِهما، وإن كتمَا وكذَبا، مُحِقَتْ بركةُ بيعِهما) .

ثالثاً : الخسارة والهلاك:

قال الله عز وجل (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُون) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يُقَالُ يومَ القيامة لآكل الربا: خذ سلاحَك للحربِ، قال (فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) .

رابعاً : من أسباب دخول النار .

قال ﷺ (أيما جسم نبت على سحت فالنار أولى به) رواه أحمد.

وعن خولَةَ الأنصارية رضي الله عنها قالت: سمعت النبي ﷺ يقول (إن رجالًا يتخوَّضون في مالِ الله بغيرِ حقٍّ، فلهم النارُ يومَ القيامةِ) .

وعن أم سلمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال (إنما أنا بشَرٌ، وإنكم تختَصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكونَ ألحَنَ بحجَّتِه من بعضٍ، وأقضِي له على نحو ما أسمَعُ، فمن قضَيتُ له من حق أخيه شيئًا، فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار) .

خامساً : عدم قبول صدقته .

قال ﷺ (لا تُقبَلُ صلاةٌ بغيرِ طُهُورٍ، ولا صدقةٌ من غُلُولٍ) .

فائدة : ٨

الحديث دليل على أن التوسع في أكل الحرام شرباً وأكلاً ولبساً وتغذية من أسباب منع إجابة الدعاء .

وقال ﷺ لسعد (أطب مطعمك تكن مجاب الدعوة) .

قال يوسف بن أسباط : بلغنا أن دعاء العبد يحبس عن السموات بسوء المطعم .

ومن موانع إجابة الدعاء :

أن يكون الدعاء في إثم أو ظلم.

لحديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال (ما على الأرض مسلم يدعو بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم) فقال رجل من القوم: إذن نكثر؟ قال: الله أكثر) رواه الترمذي وحسنه

وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

عن حذيفة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (والذي نفسي بيده؛ لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم). رواه أحمد والترمذي

وأن يعتدي في دعائه، كأن يرفع صوته، أو يحدث فيه بدعة.

قال تعالى: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ).

وقال ﷺ (سيكون قوم يعتدون في الدعاء). رواه أحمد .

فائدة : ٩

وجوب اتباع الرسل .

فائدة : ١٠

الأمر بالأكل من الطيبات .

فائدة : ١١

الحث على العمل الصالح .

والعمل الصالح أمر الله به وحث عليه .

قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ..) .

والعمل الصالح هو الذي يدخل مع الإنسان في قبره .

قال ﷺ (يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله) متفق عليه .

والعمل الصالح هو الحسب الحقيقي .

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

قال ﷺ : (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) رواه مسلم .

وهو أنيسك وجليسك في القبر.

قال النبي ﷺ (إن العبد المؤمن إذا وضع في قبره يأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح، فيقول: أبشر برضوان من الله وجنات، أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريع في طاعة الله بطيء في معصية الله).

وهو الذي يتمناه الإنسان عند الاحتضار.

قال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا ...).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ).

وهو الذي يتمناه الكفار إذا دخلوا النار.

قال تعالى (وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءكُمُ النَّذِيرُ. فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ).

والعمل الصالح سبب لتفريج الكروب.

وقد تقدم حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الغار، فتوسل كل واحد منهم بعمل صالح فانفرجت عنهم.

والعمل الصالح هو الذي يبقى.

قال تعالى (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً).

وهو سبب للحياة الطيبة .

قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً).

وسبب للأمن والاستقرار والتمكين.

قال تعالى (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا).

فائدة : ١٢

في هذا الحديث ذكر بعض أسباب إجابة الدعاء :

أولاً : طول السفر :

والسفر بمجرَّده يقتضي إجابةَ الدعاء .

كما في حديث أبي هريرة ، عن النَّبيِّ ﷺ (ثلاثُ دعواتٍ مستجابات لا شك فيهن : دعوةُ المظلوم ، ودعوةُ المسافر ، ودعوةُ الوالد لولده) .

ومتى طال السفر ، كان أقربَ إلى إجابةِ الدُّعاء ؛ لأنَّه مَظِنّةُ حصول انكسار النفس بطول الغُربة عن الأوطان ، وتحمُّل المشاق ، والانكسارُ من أعظم أسباب إجابة الدعاء .

ثانياً : الأشعث الأغبر .

وقال ﷺ (رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) .

قال ابن رجب : حصولُ التبذُّل في اللِّباس والهيئة بالشعث والإغبرار ، وهو -أيضاً- من المقتضيات لإجابة الدُّعاء ، كما في الحديث المشهور عن النَّبيِّ ﷺ (ربَّ أشعث أغبرَ ، مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبرَّه) .

. ولما خرج النَّبيُّ ﷺ للاستسقاء ، خرج متبذِّلاً متواضعاً متضرِّعاً .

وكان مُطَرِّفُ بنُ عبد الله قد حُبِسَ له ابنُ أخٍ ، فلبس خُلْقان ثيابه ، وأخذ عكازاً بيده ، فقيل له : ما هذا ؟ قالَ : أستكين لربي ، لعلَّه أنْ يشفِّعني في ابن أخي .

ثالثاً : رفع اليدين .

قال ﷺ : (إن الله ليستحي من عبده إذا رفع يديه إلى السماء أن يردهما صفراً) .

وكان النَّبيُّ ﷺ يرفع يديه في الاستسقاء حتى يُرى بياضُ إبطيه، ورَفَعَ يديه يومَ بدرٍ يستنصرُ على المشركين حتى سقط رداؤه عن منكبيه.

رابعاً : الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته .

وهو مِنْ أعظم ما يُطلب به إجابةُ الدعاء .

ومن تأمَّل الأدعية المذكورة في القرآن وجدها غالباً تفتتح باسم الرَّبِّ ، كقوله تعالى (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ) وقوله (رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) ومثل هذا في القرآن كثير .

١١-عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَسَنِ بنِ عَلِيّ بنِ أبِي طالبٍ سِبْطِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَرَيْحَانَتِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: حَفِظْتَ مِنْ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ: (دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيْبُكَ) رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

==========

(**عَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ الحَسَنِ بنِ عَلِيّ**) بن أبي طالب ، قرشي هاشمي مدني...، فأمّه فاطمة الزهراء بنت سيد المرسلين -صلوات الله وسلامه عليه-...، قال فيه ﷺ (ابني هذا سيّد) وُلِدَ في النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة على الأصح .

تولى الخلافة بعد أبيه، واستمر في الخلافة نحو ستة أشهر بالحجاز واليمن والعراق وخراسان، ثم دعاه كرمُه وحِلمه وورعُه لتركها لمعاوية رفقًا بالمسلمين، روى عن النبي ﷺ ثلاثة عشر حديثًا، وكان أشبهَ وجهًا برسول الله ﷺ ومَناقِبُه جَمَّة، مات سنة خمسين، -وفيه خلاف-، ودُفِن بالبقيع .

(**سبط**) السبط هو ولد الولد سواء ذكراً أو أنثى .

(**حفظتُ من رسول الله** ﷺ) أي: مشافهة؛ فإنَّه وُلِد سنة ثلاث من الهجرة، فتُوفِّي رسول الله ﷺ وهو ابن سبع سنين.

(**دع**) اترك .

(**ما يريبك**) أي ما تشك فيه ولا تطمئن إليه .

(**إلى ما لا يريبك**) أي إلى الشيء الذي لا ريب فيه .

فائدة : ١

هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الدين، واصل في الورع الذي عليه مدار اليقين، ومنج من ظلم الشكوك والأوهام المانعة من نور اليقين .

وهذا الحديث من جوامع الكلم، ومن الحِكم النبوية البليغة؛ فهو بكلماته القليلة قعَّد قاعدة عظيمة في ديننا الإسلامي، وهي ترك الشبهات، والتزام الحلال المتيقن .

قال العسكري - رحمه الله -: لو تأمَّل الحذَّاق هذا الحديث، لتيقَّنوا أنه استوعب كل ما قيل في تجنب الشبهات .

فائدة : ٢

معنى الحديث :

والمعنى : اترك ما تَشكّ فيه من الأقوال والأعمال أنَّه نُهِيَ عنه أو لا، أو سُنة أو بدعة، واعْدِلْ إلى ما لا تشكّ فيه منه، والمقصود: أنْ يَبْني المكلَّفُ أمرَه على اليقين البَحْت، والتَّحقيق الصِّرف، ويكون على بصيرة في دينه .

قال ابن رجب: ومعنى هذا الحديث يرجع إلى الوقوف عند الشبهات واتقائها، فإنَّ الحلالَ المحض لا يَحْصُلُ لمؤمن في قلبه منه ريب -والريب: بمعنى القلق والاضطراب- بل تسكن إليه النفسُ، ويطمئن به القلبُ، وأما المشتبهات فيَحْصُل بها للقلوب القلقُ والاضطرابُ الموجب للشك.

وقال ابن الملقن -رحمه الله- (دع ما يَريبك إلى ما لا يَريبك) هذا هو الورع.

وقال الصنعاني : واعلم أن هذه الأحاديث قاعدة مِن قواعد الدين، وأصلٌ في الورع الذي عليه مدار اليقين، وراحةٌ مِن ظُلْمة الشكوك والأوهام المانعة لنور اليقين .

وقال الطوفي -رحمه الله- قوله (يَرِيْبُكُ ...) هذا أصل في الورع، وهذا موافق لقوله ﷺ: «الحلال بيّن، والحرام بيّن» إلى قوله : فَمَن اتَّقى الشبهات استبرأ لدِينه وعِرضه ، ويُروى عن زيد بن ثابت أنه قال: ما شيء أسهل مِن الورع، إذا أرابك شيء فَدَعْهُ.

وقال ابن بطال –رحمه الله– (دعْ ما يَرِيبك إلى ما لا يَرِيبك) يقول: دع ما تشكّ فيه ولا تَتَيقَّن إباحته، وخذ ما لا شك فيه ولا التباس.

وقال المناوي رحمه الله: (دع ما يريبك) أي : اترك ما تشك في كونه حسناً أو قبيحاً، أو حلالاً أو حراماً، (إلى ما لا يريبك) أي: واعدل إلى ما لا شك فيه ، يعني ما تيقنت حسنه وحِلَّه .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وهذا الحديث من جوامع الكلم، وما أجوده وأنفعه للعبد إذا سار عليه، فالعبد يرد عليه شكوك في أشياء كثيرة، فنقول: دع الشك إلى ما لاشكّ فيه، حتى تستريح وتسلم، فكل شيء يلحقك به شكّ وقلق وريب: اتركه إلى أمر لا يلحقك به ريب، وهذا ما لم يصل إلى حد الوسواس، فإن وصل إلى حد الوسواس فلا تلتفت له .

وهذا يكون في العبادات، ويكون في المعاملات ، ويكون في النكاح، ويكون في كل أبواب العلم .

فائدة : ٣

قال الطوفي : يُروى عن زيد بن ثابت أنه قال: ما شيء أسهل مِن الورع، إذا أرابك شيء فَدَعْهُ.

قلت: هذا سهل على مَن سهَّلَه الله –عز وجل– عليه، وهو على كثير من الناس أصعب مِن نَقْل الجبال...، واعلم أنَّ الأشياء إمَّا واضح الحِلّ، أو واضح الحُرْمة، أو مُرتاب فيه، والرِّيبة قد تقع في العبادات والمعاملات والمناكحات وسائر أبواب الأحكام، وتَرك الرِّيبة في ذلك كلِّه إلى غيرها أمرٌ عَمِيم النَّفع، كثير الفائدة، وتفاصيل ذلك تَكثُر، وهذه قاعدته، والله –عز وجل– أعلم بالصواب.

وقال البخاري –رحمه الله– قال حسان بن أبي سنان: ما رأيت شيئًا أهون مِن الورع؛ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

وقال أبو عبد الرحمان العمري الزاهد: إذا كان العبدُ ورعاً، ترك ما يريبه إلى ما لا يريبُه.

وقال الفضيلُ: يزعم الناسُ أنَّ الورعَ شديدٌ، وما ورد عليَّ أمران إلا أخذتُ بأشدِّهما، فدع ما يريبُك إلى ما لا يريبُك .

فائدة : ٤

قال ابن رجب : وهاهنا أمر ينبغي التفطنُ له وهو أنَّ التدقيقَ في التوقف عن الشبهات إنَّما يَصْلُحُ لمن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعمالُه في التقوى والورع، فأما مَنْ يقع في انتهاك المحرَّمات الظاهرة، ثم يريد أنْ يتورَّعَ عن شيء من دقائق الشُّبَهِ، فإنَّه لا يحتمل له ذلك، بل يُنكر عليه، كما قال ابنُ عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألونني عن دم البعوض وقد قتلُوا الحسين، وسمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول (هُمَا رَيحَانَتاي من الدُّنيا) .

وسأل رجلٌ بشرَ بنَ الحارث عن رجلٍ له زوجةٌ وأُمَّه تأمره بطلاقها، فقال: إنْ كان بَرَّ أمه في كُلِّ شيءٍ، ولم يبق من برِّها إلا طلاقُ زوجته فليفعلْ، وإنْ كان يَبَرُّها بطلاق زوجته، ثم يقوم بعد ذلك إلى أُمِّه، فيضربها، فلا يفعل.

فائدة : ٥

للورع فضائل تقدمت في حديث (الحلال بين والحرام بين) .

فائدة : ٦

فضل اتقاء الشبهات .

فائدة : ٧

ترك الإنسان الأشياء التي يرتاب فيها.

فائدة : ٨

الإنسان مأمور باجتناب ما يدعو إلى القلق.

فائدة : ٩

المرء يبني أموره على اليقين، وأن يطرح الشك جانبًا.

١٢- عَنْ أبي هريرةَ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال (مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ) حديثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ التِّرمذيُّ وغَيرُهُ.

==========

(من حسن) أي من كمال وجمال.

(إسلام المرء) أي استسلامه وانقياده.

(تركه) يشمل الأقوال والأعمال.

(ما لا يعنيه) أي: ما لا تتعلق به عنايته ويهتم به.

فائدة : ١

مكانة هذا الحديث :

قال ابن رجب : وهذا الحديث أصلٌ عظيم من أصول الأدب .

وقد حكى الإمامُ أبو عمرو بن الصلاح، عن أبي محمد بن أبي زيد إمام المالكية في زمانه أنَّه قال: جماعُ آداب الخير وأزمته تتفرَّعُ من أربعة أحاديث: قول النَّبيِّ ﷺ (مَنْ كَانَ يُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فليَقُلْ خيراً أو ليَصْمُتْ) وقوله ﷺ (مِنْ حُسْنِ إسلامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ) وقوله للذي اختصر له في الوصية (لا تَغْضَبْ) وقوله ﷺ (المؤْمِنُ يُحبُّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه). (جامع العلوم)

وقَالَ حَمْزَةُ الْكِنَانِيُّ : هَذَا الْحَدِيثُ ثُلُثُ الْإِسْلَامِ، وَالثُّلُثُ الْآخَرُ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» ، وَالثُّلُثُ الثَّالِثُ «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ فَمَنْ تَرَكَ مَا تَشَابَهَ كَانَ أَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ . (المنتقى شرح الموطأ)

وقال ابن عبد البر : هذا الحديث من الكلام الجامع للمعاني الكثيرة الجليلة في الألفاظ القليلة ، وهو مما لم يقله أحد قبله ﷺ .

وقال أيضاً : من كلام النبوة وحكمتها ، وهو جامع لمعانٍ جمة من الخير .

فائدة : ٢

قوله ﷺ (من حسن إسلام المرء) المراد بالإسلام هنا اسم لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وله مرتبتان:

الأولى: مطلق الإسلام.

وهو القدر الذي يثبت به عقد الإسلام، فمتى التزم به العبد صار مسلماً داخلاً في جملة أهل القبلة، وحقيقته: التزام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والقيام بحقوقهما.

والأخرى: حسن الإسلام.

وحقيقته: امتثال شرائع الإسلام ظاهراً وباطناً باستحضار مشاهدة الله أو مراقبته للعبد.

وهذا القيام تحقق بمرتبة الإحسان المذكورة في حديث جبريل المتقدم.

وحديث الباب يتعلق بالمرتبة الثانية.

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن من حسن وكمال إيمان الإنسان تركه ما لا يهمه ولا يعنيه في دنياه وآخرته من أقوال أو أعمال.

والذي لا يعني العبد: هو ما لا يحتاج إليه في القيام بما أمِرَ به من عبادة الله.

والذي لا يعني العبد أفراده كثيرة لكن يمكن ردها إلى أربعة أصول:

أولها: المحرمات، وثانيها: المكروهات، وثالثها: المشتبهات لمن لم يتبينها، ورابعها: فضول المباحات وهي ما زاد عن حاجة العبد منها.

فائدة :

قال ابن رجب: وإذا حسُن الإسلام اقتضى ترك ما لا يعني كله من المحرمات والمشتبهات والمكروهات وفضول المباحات التي لا يحتاج إليها، فإن هذا كله لا يعني المسلم، إذا كمُل إسلامه وبلغ إلى درجة الإحسان، وهو أن يعبد الله تعالى كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه، فمن عبد الله عن استحضار قربه ومشاهدته بقلبه أو على استحضار قرب الله منه واطلاعه عليه، فقد حسن إسلامه ولزم من ذلك أن يترك كل ما لا يعنيه في الإسلام، ويشتغل بما يعنيه فيه، فإنه يتولد من هذين المقامين الاستحياء من الله، وترك كل ما يستحيى منه.

وقال ابن القيم: قد جمع النبي ﷺ الورع كله في كلمة واحدة فقال (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) فهذا يعم الترك لما لا يعني: من الكلام، والنظر، والاستماع، والبطش، والمشي، والفكر، وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، فهذه الكلمة كافية شافية في الورع.

فائدة : ٤

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ تركَ ما لا يعني المرء من حسن إسلامه، فإذا ترك ما لا يعنيه، وفعل ما يعنيه كله، فقد كَمُلُ حُسْنُ إسلامه .

وقد جاءت الأحاديثُ بفضل من حسن إسلامُه وأنَّه تضاعف حسناته، وتُكفر سيئاته، والظاهر أنَّ كثرة المضاعفة تكون بحسب حسن الإسلام .

ففي " صحيح مسلم " عن أبي هريرة، عن النَّبيّ ﷺ قال (إذا أحْسَنَ أَحَدُكُم إسلامَهُ، فكُلُّ حَسَنةٍ يَعْمَلُها تُكتَبُ بِعَشرِ أَمْثالِها إلى سبعِ مئة ضعفٍ، وكلُّ سَيِّئةٍ يعملها تُكتَبُ بمثلِها حتَّى يَلقى الله – عز وجل –) .

فالمضاعفةُ للحسنة بعشر أمثالها لابدَّ منه، والزيادةُ على ذلك تكونُ بحسب إحسّان الإسلام، وإخلاصِ النية والحاجة إلى ذلك العمل وفضله، كالنفقة في الجهاد، وفي الحج، وفي الأقارب، وفي اليتامى والمساكين، وأوقات الحاجة إلى النفقة .

وخرَّج النسائي من حديث أبي سعيد، عن النَّبيّ ﷺ قال (إذا أسلمَ العبدُ فحَسنُ إسلامُهُ، كَتبَ الله له كُلَّ حَسنةٍ كان أزلَفَها، ومُحِيتْ عنه كُلُّ سيئة كان أزلَفَها، ثم كان بَعْدَ ذلك القِصَاصُ، الحسَنَةُ بِعَشْر أمثالِها إلى سَبع مئةِ ضِعفٍ، والسَّيِّئَةُ بِمثلِها إلا أنْ يتجاوَزَ الله) .

فائدة : ٥

عواقب تدخل الإنسان فيما لا يعنيه :

أولا: أنه يؤدي إلى قساوة القلب ووهن البدن وتعسير الرزق .

فقد سُئل لقمان الحكيم أي عملك أوثق في نفسك؟ قال: ترك مالا يعنيني.

وقال مالك بن دينار: إذا رأيت قساوة في قلبك ووهنا في بدنك وحرمانا في رزقك فاعلم بأنك تكلمت بما لا يعنيك.

ثانياً : فيه مضيعة للوقت فيما لا يفيد .

ثالثاً : من لم يعمل بهذا الحديث قد يخسر مضاعفة حسناته .

لقوله ﷺ (إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا، تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا، تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ) .

قال ابن رجب -رحمه الله تعالى- في كتابه جامع العلوم والحكم معلقا على هذا الحديث: وَهَذَا الْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَ مَا لا يَعْنِي الْمَرْءَ مِنْ حُسْنِ إِسْلامِهِ، فَإِذَا تَرَكَ مَا لا يَعْنِيهِ، وَفَعَلَ مَا يَعْنِيهِ كُلَّهُ، فَقَدْ كَمُلَ حُسْنُ إِسْلامِهِ، وَقَدْ جَاءَتِ الأَحَادِيثُ بِفَضْلِ مَنْ حَسُنَ إِسْلامُهُ وَأَنَّهُ تُضَاعَفُ حَسَنَاتُهُ، وَتُكَفَّرُ سَيِّئَاتُهُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ كَثْرَةَ الْمُضَاعَفَةِ تَكُونُ بِحَسَبِ حُسْنِ الإِسْلامِ اهـ.

رابعاً : ذكر العلماء أن من علامة سخط الله على العبد أن يشغله بما لا يعنيه خذلاناً له .

قال الحسن البصري رحمه الله: "من علامة إعراض الله عز وجل عن العبد، أن يجعل شغله فيما لا يعنيه .

وقال الإمام مالك : لا يفلح الرجل حتى يترك ما لا يعنيه ويشتغل بما يعنيه .

وجاء في سير أعلام النبلاء في ترجمة الصحابي أبو دجانة، أنه دخل عليه بعض أصحابه وهو مريض ووجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقا : فَقَالَ مَا مِنْ عَمَلٍ أَوْثَقُ عِنْدِي مِنْ خَصْلَتَيْنِ: كُنْتُ لَا أَتَكَلَّمُ فِيمَا لَا يَعْنِينِي، وَكَانَ قَلْبِي سَلِيمًا لِلْمُسْلِمِين .

خامساً : الإنسان مؤاخذ ومحاسب حين يكون فضوليا ويتكلم فيما لا يعنيه .

عن أبي هريرة ﷺ قال (قُتل رجل على عهد رسول الله ﷺ شهيداً، فبكت عليه باكية، فقالت: واشهيداه، فقال النبي ﷺ : ما يدريكِ أنه شهيد؟ لعله كان يتكلم فيما لا يَعنيه، أو يبخل بما لا يَنقصه).

فائدة : ٦

المراد بإحسان الإسلام :

قيل : العمل بالواجبات والانتهاء عن المحرمات .

وقيل : الإخلاص لله تعالى .

قال ابن بطال : إحسان الإسلام مبالغة الإخلاص لله بالطاعة والمراقبة له .

وقيل : استحضار قرب الله من العبد والعمل على المراقبة والمشاهدة لله تعالى بالقلب .

قال ابن رجب : أن تقع طاعات المسلم على أكمل وجوهها وأتمها بحيث يستحضر العامل في حال عمله قرب الله منه واطلاعه عليه فيعمل له على المراقبة والمشاهدة لربه بقلبه .

وذكر هذا المعنى أيضا الحافظ ابن حجر فقال: أي صار إسلامه حسناً باعتقاده وإخلاصه ودخوله فيه بالظاهر والباطن، وأن يستحضر عند عمله قرب ربه منه واطلاعه عليه كما دل عليه تفسير الإحسان في حديث سؤال جبريل .

فائدة : ٧

وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني حفظ اللسان من لغو الكلام.

كما في قوله تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ).

وقال تعالى (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

وقال تعالى (أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ).

قال بعض العارفين: إذا تكلمت فاذْكر سمع الله لك، وإذا سكت فاذكر نظره إليك.

فائدة : ٨

أن عدم ترك الإنسان لما لا يعنيه يدل على أن إسلامه ليس بحسن.

فائدة : ٩

قال الغزالي: علاج ترك ما لا يعني أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسؤول عن كل كلمة تكلم بها، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكته يقدر على أن يقتنص -أي يصطاد- بها الحور العين، فإهماله وتضييعه فيما لا يعنيه خسران مبين.

فائدة : ١٠

من أقوال السلف :

قال الحسن: من علامة إعراض الله عن العبد أن يجعل شغله فيما لا يعنيه.

وقال معروف الكرخي: كلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله تعالى.

وقال مالك بن دينار: إذا رأيت قساوة في قلبك، وضعفاً في بدنك، وحرماناً في رزقك، فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك.

وقيل للقمان: ما بلغ بك ما نرى؟ قال: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنيني.

وقال يونس بن عبيد: ترك كلمة فيما لا يعني أفضل من صوم يوم.

وقال الشافعي: ثلاثة تزيد في العقل: مجالسة العلماء، ومجالسة الصالحين، وترك الكلام فيما لا يعني.

وقال أيضاً: من أراد أن ينور الله قلبه فليترك الكلام فيما لا يعنيه.

فائدة : ١١

ينبغي للمسلم أن ينشغل بما يعنيه وينفعه.

فائدة : ١٢

اغتنام الحياة بالعمل الصالح.

فائدة : ١٣

يخطئ البعض ويعتقد أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في التدخل فيما لا يعني الإنسان، وهذا خطأ كبير.

والتدخل في شؤون الغير له أحوال:

يكون واجباً: مثل التدخل لتغيير المنكر، ويأثم لو لم يتدخل وهو يستطيع.

يكون مستحباً: مثل التدخل لتحسين وضع أخيك في طريقة كلامه مثلاً.

ويكون مباحاً: كسؤال إنسان هل سافر أم لا.

ويكون مكروهاً: مثل سؤال رجل يتحرج في الجواب في أمر خاص به.

ويكون محرماً، مثل التجسس على المسلم.

١٣-عَنْ أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال (لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتَّى يُحِبَّ لأَخيهِ ما يُحِبُّ لِنَفسه) رواهُ البُخاريُّ ومُسلِمٌ .

==========

(**لا يؤمن أحدكم**) أي الإيمان الكامل.

قال العيني : المعنى لا يؤمن الإيمان الكامل؛ لأن أصل الإيمان لا يزول بزوال ذلك، أو التقدير: لا يكمل إيمان أحدكم .

وقال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– معناه: أنه لا يتم إيمان أحد الإيمان التام الكامل، حتى يضم إلى سلامة الناس منه إرادته الخير لهم، والنصح لجميعهم فيما يحاوله معهم.

(ما يحب لنفسه) من الخير، كما ثبت في رواية النسائي، والخير: كلمة جامعة تعم الطاعات، والمباحات الدنيوية والأخروية.

قال النووي : قال العلماء –رحمهم الله–: معناه: لا يؤمن الإيمان التام، وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة، والمراد: يحب لأخيه من الطاعات والأشياء المباحات، ويدل عليه ما جاء في رواية النسائي في هذا الحديث: حتى يحب لأخيه من الخير.

فائدة : ١

الحديث دليل على أن من علامات الإيمان الكامل أن يحب الإنسان لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير.

وقد جاء في الحديث عن يزيد بن أسد: قال: قال لي رسول الله ﷺ (أتحب الجنة؟ قلت: نعم، قال: فأحب لأخيك ما تحب لنفسك) رواه أحمد.

قال القرطبي : وعلى هذا: فمعنى الحديث: أن الموصوف بالإيمان الكامل: من كان في معاملته للناس ناصحًا لهم، مريدًا لهم ما يريده لنفسه، وكارهًا لهم ما يكرهه لنفسه، وتتضمن أن يفضلهم على نفسه؛ لأن كل أحد يحب أن يكون أفضل من غيره، فإذا أحب لغيره ما يحب لنفسه، فقد أحب أن يكون غيره أفضل منه، وإلى هذا المعنى أشار الفضيل بن عياض لَمَّا قال لسفيان بن عيينة: إن كنت تريد أن يكون الناس مثلك، فما أديت لله الكريم النصيحة، فكيف وأنت تودُّ أنهم دونك؟!

فائدة :

قال الصنعاني –رحمه الله–الحديث دليل على عظم حق الجار والأخ، وفيه نفي الإيمان عمَّن لا يحب لهما ما يحب لنفسه، وتأوله العلماء بأن المراد منه: نفي كمال الإيمان، إذ قد علم من قواعد الشريعة أن من لم يتصف بذلك لا يخرج عن الإيمان .

فائدة : ٢

قال ابن رجب : وحديثُ أنس هذا : فيه يدلُّ على أنَّ المؤمن يَسُرُّهُ ما يَسرُّ أخاه المؤمن، ويُريد لأخيه المؤمن ما يُريده لنفسه من الخير .

وهذا كُلُّه إنَّما يأتي من كمالِ سلامةِ الصدر من الغلِّ والغشِّ والحسدِ، فإنَّ الحسدَ يقتضي أنْ يكره الحاسدُ أنْ يَفوقَه أحدٌ في خير، أو يُساوَيه فيه؛ لأنَّه يُحبُّ أنْ يمتازَ على الناسِ بفضائله، وينفردَ بها عنهم، والإيمانُ يقتضي خلافَ ذلك، وهو أنْ يَشْرَكَه المؤمنون كُلُّهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أنْ ينقص عليه منه شيء .

وقد مدح الله تعالى في كتابه من لا يُريد العلوَّ في الأرض ولا الفساد، فقال (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً) .

ثم قال ابن رجب : وفي الجملة: فينبغي للمؤمن أنْ يُحِبَّ للمؤمنينَ ما يُحبُّ لنفسه، ويكره لهم ما يكره لِنفسه، فإنْ رأى في أخيه المسلم نقصاً في دينه اجتهدَ في إصلاحه.

قال بعضُ الصالحين مِن السَّلف: أهلُ المحبة لله نظروا بنور الله، وعطَفُوا على أهلِ معاصي الله، مَقَتُوا أعمالهم، وعطفوا عليهم ليزيلوهُم بالمواعظ عن فِعالهم، وأشفقوا على أبدانِهم من النار،

لا يكون المؤمنُ مؤمناً حقاً حتى يرضى للناسِ ما يرضاه لنفسه، وإنْ رأى في غيره فضيلةً فاق بها عليه فيتمنى لنفسه مثلها، فإنْ كانت تلك الفضيلةُ دينية، كان حسناً، وقد تمنى النَّبيُّ ﷺ لنفسه منْزلةَ الشَّهادة .

وقال ﷺ (لا حسدَ إلاَّ في اثنتين: رجل آتاهُ الله مالاً، فهو يُنفقهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجُلٌ آتاهُ الله القرآن، فهو يقرؤهُ آناءَ الليل وآناءَ النهار) .

وقال في الذي رأى مَنْ ينفق مالَه في طاعة الله، فقال (لو أنَّ لي مالاً، لفعلتُ فيه كما فعل، فهما في الأجر سواءٌ) .

وإنْ كانت دنيويةً، فلا خيرَ في تمنيها، كما قال تعالى (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً) .

فائدة : ٣

أمثلة:

عن أبي ذر. قال: قال لي رسول الله ﷺ (يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرن على اثنين، ولا تولين على اثنين) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وإنما نهاه عن ذلك لما رأى من ضعفه وهو ﷺ يحب هذا لكل ضعيف.

قال الشافعي: وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ولم ينسب إليّ منه شيء.

فقوله [وددت] دليل على محبته الخير للناس.

قال ابن عباس: إني لأمر على الآية من كتاب الله فأود أن الناس كلهم يعلمون منها ما أعلم.

وحكي أن بعضهم شكا كثرة الفأر في بيته، فقيل له: اقتني هرة، فقال: أخشى أن يسمع الفأر صوت الهرة فيهرب إلى دور الجيران فأكون قد أحببتُ لهم ما لا أحبه لنفسي.

وفي كلام بعضهم: ارضَ للناس ما لنفسك ترضى.

قيل للأحنف وكان أحلم الناس، ممن تعلمت الحلم؟ قال: من نفسي، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا كرهت شيئاً من غيري لم أفعل بأحد مثله.

فائدة : ٤

أن من كره لأخيه الخير فليس بمؤمن الإيمان الكامل.

قال الشيخ موسى شاهين -رحمه الله- إن الإيمان الكامل الذي وصل بالمؤمن إلى حب الله ورسوله، يدفعه حتمًا إلى أن يُحِبَّ للمسلمين ما يحب لنفسه من خيري الدنيا والآخرة.

أما الذين يحقدون على إخوانهم المسلمين، أو يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله، أو يسعون لبخس إخوانهم والتعالي عليهم، فهم ضعاف الإيمان، حظُّهم منه في الآخرة قليل، مصداقًا لقوله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) إن الإيمان الكامل ينزع الغل والحقد والحسد من قلب صاحبه، ويملؤه برغبة الخير، وبحب المعروف للناس، فالإيمان محبة ومودة وإخاء، ومجتمع إنساني فاضل كريم.

إن الحديث يعالج القلوب من هذه الأمراض الخبيثة، والقلوب إذا صلحت صلح الجسد كله؛ لأن الأعضاء آلات وجنود للقلوب، فإذا ما حل حب الخير للمسلم في قلب المسلم تحركت الجوارح لتنفيذ ميوله وتحقيق رغباته، فنطق اللسان بما فيه صلاحه والدفاع عنه، وامتدَّت اليد والرجل إلى ما يوصل النفع إليه، ذاك هدف الحديث، بناء مجتمع متآلف متعاون متراحم كالجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا .

فائدة : ٥

المؤمن مع المؤمن كالنفس الواحدة، فيحب لها ما يحب لنفسه من حيث أنها نفس واحدة، كقوله ﷺ (المسلمون كالجسد الواحد).

فائدة : ٦

الحث على التواضع ومحاسن الأخلاق، حيث بحبه لأخيه الخير كما يحب لنفسه دليل على تواضعه، وأنه لا يحب أن يكون أفضل من غيره.

فائدة : ٧

الحث على ترك البغضاء والغل.

فائدة : ٨

الترغيب في محبة المسلمين بعضهم بعضاً وائتلافهم، لأن ذلك يؤدي إلى التعاضد والتناصر.

فائدة : ٩

الحرص على الأعمال التي تؤدي إلى زيادة الإيمان كحب الخير للمسلمين.

فائدة : ١٠

التحذير من الأعمال التي تؤدي إلى نقصان الإيمان كعدم محبة الخير للمسلمين.

فائدة : ١١

ذم الأنانية والحسد والكراهية.

فائدة : ١٢

العمل بمضمون الحديث يؤدي إلى نشر المحبة بين أفراد المجتمع الإسلامي، ويؤدي أيضاً إلى تماسكه.

فائدة : ١٣

لحديث يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وفعل الخيرات، وينقص بالمعصية.

فائدة : ١٤

قال ابن حجر – رحمه الله –: المقصود – في الحديث – الحث على التواضع .

١٤–عَنْ عبدِ الله بن مَسعودٍ ﷺ قالَ: قالَ رَسولُ الله ﷺ (لا يَحِلُّ دَمُ امرِئٍ مُسلِمٍ إلاَّ بِإحْدَى ثَلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتَّارِكُ لِدينِهِ المُفارِقُ لِلجماعَةِ) رواهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ .

==========

(**لا يحل**) أي يحرم .

(**الثيب**) هو المحصن وهو الذي جامع وهو حر مكلف في نكاح سواء كان رجلاً أو امرأة .

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– الثيب هنا: المحصَن، وهو اسم جنس يدخل فيه الذكر والأنثى .

النفس بالنفس : المراد به القصاص ، أي إذا قتل إنسان إنساناً عمداً قتل به بالشروط المعروفة .

(**التارك لدينه**) المرتد عن الإسلام .

(**المُفارِقُ لِلجماعَةِ**) قال الشوكاني –رحمه الله – والمرادُ بـ(مفارقةِ الجماعةِ) مفارقةُ جماعةِ الإسلام، ولا يكون ذلك إلا بالكفر، لا بالبغي، والابتداع، ونحوهما؛ فإنَّه وإن كان في ذلك مخالفةٌ للجماعة، فليس فيه تركٌ للدين؛ إذ المرادُ التركُ الكُلِّي، ولا يكون إلا بالكفر، لا مجرَّدَ ما يصدق عليه اسمُ الترك .

فائدة : ١

الحديث دليل على أن الأصل في دم المسلم حرام وكبيرة من الكبائر : وقد جاءت نصوص كثيرة في تحريم ذلك .

قال تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً).

وقال تعالى (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً).

وقال تعالى: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ). قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ قَالَ (الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ وَأَكْلُ الرِّبَا وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ) متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله (أكبر الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس). رواه البخاري

وعنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْكَبَائِرِ قَالَ (الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَشَهَادَةُ الزُّور). رواه البخاري

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ) متفق عليه.

وعن بريدة قال: قال رسول الله (لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا) رواه النسائي.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (لا يزال المرء في فسحة من دينه ما لم يصب دماً حراماً) رواه البخاري.

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً). رواه البخاري

فائدة : ٢

يقتل المسلم في إحدى هذه الأمور الثلاثة :

أولاً : الزاني المتزوج بنكاح صحيح .

وطريقة قتله : الرجم حتى الموت كما ثبت بذلك الأحاديث الكثيرة .

فقد رجم النبي ﷺ الغامدية لما زنت .

ورجم ماعز لما اعترف بالزنا .

وقال ﷺ : (واغْد يا أنيْس إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها) .

قال القاضي عياض –رحمه الله– قوله (الثيب الزاني) إشارة إلى ما أجمع عليه المسلمون من الرجم .

وقال النووي –رحمه الله : المراد رجمه بالحجارة حتى يموت، وهذا بإجماع المسلمين .

وقال ابن رجب : أما زنى الثَّيِّبِ، فأجمع المسلمون على أنَّ حَدَّه الرجمُ حتَّى يموتَ .

وقال ابن حجر –رحمه الله– قوله (الثيب الزاني) أي: فيحل قتله بالرجم، وقد وقع في حديث عثمان عند النسائي بلفظ: رجل زنى بعد إحصانه، فعليه الرجم .

فائدة : ٣

ثانياً : قتل العمد .

لقوله (النفس بالنفس) .

قال ابن رجب : وأما النَّفسُ بالنفسِ، فمعناه: أنَّ المكلَّف إذا قتل نفساً بغير حق عمداً، فإنَّه يُقْتَلُ بها .

وقال ابن حجر –رحمه الله– قوله (النفس بالنفس) أي: مَن قتل عمدًا بغير حق قُتل بشرطه، ووقع في حديث عثمان: قتل عمدًا فعليه القود، وفي حديث جابر عند البزار : ومَن قتل نفسًا ظلمًا . انتهى .

ويقتل قاتل العمد سواء كان القاتل أو المقتول ذكراً أم أنثى .

يسقط القصاص إذا عفا أولياء المقتول .

فائدة : ٤

يستثنى من القصاص :

أولاً : الوالد إذا قتل ولده ، فإنه لا يقتل به عند جمهور العلماء .

لقوله ﷺ (لا يقتل والد بولده) رواه الترمذي .

ثانياً : المسلم إذا قتل كافراً .

لقوله ﷺ : (لا يقتل مسلم بكافر) متفق عليه .

ثالثاً : الحر إذا قتل عبداً فإنه لا يقتل ، عند جمهور العلماء .

فائدة : ٥

ثالثاً : المرتد .

لقوله (والتَّارِكُ لِدِينِهِ المفارِقُ لِلجماعَةِ)

ولقوله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه) رواه البخاري .

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – فِي رَجُلٍ أَسْلَمَ ثُمَّ تَهَوَّدَ – (لَا أَجْلِسُ حَتَّى يُقْتَلَ، قَضَاءُ اَللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَأُمِرَ بِهِ، فَقُتِلَ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَبِي دَاوُدَ (وَكَانَ قَدْ اُسْتُتِيبَ قَبْلَ ذَلِكَ) متفق عليه.

قال ابن قدامة: وَأَجْمَعَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى وُجُوبِ قَتْلِ الْمُرْتَدِّ، وَرُوِيَ ذَلِكَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ، وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ، وَعَلِيٍّ ، وَمُعَاذٍ ، وَأَبِي مُوسَى ، وَابْنِ عَبَّاسٍ ، وَخَالِدٍ ، وَغَيْرِهِمْ ، وَلَمْ يُنْكَرْ ذَلِكَ ، فَكَانَ إجْمَاعاً.

قال الترمذي بعد روايته لحديث (من بدل دينه فاقتلوه) هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَالعَمَلُ عَلَى هَذَا عِنْدَ أَهْلِ العِلْمِ فِي المرْتَد.

وقال ابن عبد البر: وفقه هذا الحديث، أن من ارتد عن دينه حل دمه وضربت عنقه، والأمة مجتمعة على ذلك، وإنما اختلفوا في استتابته. (التمهيد)

وجاء في (**الموسوعة الفقهية**) اتَّفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَنَّ الرِّدَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِ تُهْدِرُ دَمَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ (لاَ يَحِل دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنِّي رَسُول اللَّهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمُفَارِقُ لِدِينِهِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ). رواه البخاري ومسلم

وَلِقَوْلِهِ ﷺ (مَنْ بَدَّل دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ) رواه البخاري، وَيَقْتُلُهُ الإِمَامُ أَوْ نَائِبُه.

يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

فائدة : ٦

لا فرق بين الرجل والمرأة ، فإذا ارتدت المرأة وجب قتلها .

لقوله ﷺ (أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه فإن تاب وإلا فاضرب عنقه، وإيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن عادت وإلا فاضرب عنقها) سنده حسن كما قال الحافظ ابن حجر.

وهذا يدل على أن المرأة كالرجل وهو قول أكثر العلماء.

قَالَ ابْن الْمُنْذِر: قَالَ الْجُمْهُور: تُقْتَل الْمُرْتَدَّة.

وقال ابن قدامة: أنه لا فرق بين الرجال والنساء في وجوب القتل.

فائدة : ٧

الحكمة من قتل المرتد دون الكافر الأصلي.

قال ابن تيمية رحمه الله: فإنه لَوْ لَمْ يُقْتَلْ ذَلِكَ – أي المرتد – لَكَانَ الدَّاخِلُ فِي الدِّينِ يَخْرُجُ مِنْهُ، فَقَتْلُهُ حِفْظٌ لِأَهْلِ الدِّينِ وَلِلدِّينِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْنَعُ مِنْ النَّقْصِ، وَيَمْنَعُهُمْ مِنْ الْخُرُوجِ عَنْهُ، بِخِلَافِ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيه.

وقال ابن عاشور: وَحِكْمَةُ تَشْرِيعِ قَتْلِ الْمُرْتَدِّ – مَعَ أَنَّ الْكَافِرَ بِالْأَصَالَةِ لَا يُقْتَلُ – أَنَّ الِارْتِدَادَ خُرُوجُ فَرْدٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَهُوَ بِخُرُوجِهِ مِنَ الْإِسْلَامِ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ، يُنَادِي عَلَى أَنَّهُ لَمَّا خَالَطَ هَذَا الدِّينَ وَجَدَهُ غَيْرَ صَالِحٍ، وَوَجَدَ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ أَصْلَحَ، فَهَذَا تَعْرِيضٌ بِالدِّينِ وَاسْتِخْفَافٌ بِه ... وَفِيهِ أَيْضًا تَمْهِيدُ طَرِيقٍ لِمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْسَلَّ مِنْ هَذَا الدِّينِ، وَذَلِكَ يُفْضِي إِلَى انْحِلَالِ الْجَامِعَةِ، فَلَوْ لَمْ يُجْعَلْ لِذَلِكَ زَاجِرٌ، مَا انْزَجَرَ النَّاسُ، وَلَا نَجِدُ شَيْئًا زَاجِرًا مِثْلَ تَوَقُّعِ الْمَوْتِ، فَلِذَلِكَ جُعِلَ الْمَوْتُ هُوَ الْعُقُوبَةَ لِلْمُرْتَدِّ، حَتَّى لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ فِي الدِّينِ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ، وَحَتَّى لَا يَخْرُجَ مِنْهُ أَحَدٌ بَعْدَ الدُّخُولِ فِيهِ، وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْإِكْرَاهِ فِي الدِّينِ الْمَنْفِيِّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّهَا غَيْرُ مَنْسُوخَةٍ، لِأَنَّ الْإِكْرَاهَ فِي الدِّينِ هُوَ إِكْرَاهُ النَّاسِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ أَدْيَانِهِمْ وَالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا هَذَا فَهُوَ مِنَ الْإِكْرَاهِ عَلَى الْبَقَاءِ فِي الْإِسْلَام. ... (التحرير والتنوير)

فائدة : ٨

تحريم هذه الأشياء الثلاثة ، وهي : الزنا – والقتل – والردة .

فائدة : ٩

أن قتل القاتل والزاني بعد إحصانه والمرتد فيه مصالح عامة ، من حفظ النفوس والأنساب والأديان .

فائدة : ١٠

أن من أتى بالشهادتين وأتى بما تقتضيانه وابتعد عما يناقضهما فهو المسلم، محرّم الدم والمال والعرض، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

فائدة : ١١

قوله : (الثيب الزاني) دليل على أن البكر ليس حده الرجم ، فقد جاء النص أن حده الجلد والتغريب .

١٥-عَنْ أبي هُرَيرةَ ﷺ عن رَسول اللهِ ﷺ قالَ (مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَومِ الآخرِ، فَلْيَقُلْ خَيراً أَوْ لِيَصْمُتْ، ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، فَليُكْرِمْ جَارَهُ، ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) رواه البخاريُّ ومُسلمٌ .

=========

(**من كان يؤمن**) أي إيماناً كاملاً .

(**ليصمت**) ليسكت .

(**اليوم الآخر**) أي يوم القيامة وسمي بذلك لأنه لا يوم بعده .

فائدة : ١

قوله (**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا، أَوْ لِيَصْمُت**).

أن الكلام الصادر من الإنسان ينقسم إلى أقسام:

الأول: أن يكون خيراً، فإنه يقوله بعد تفكر وتأمل.

الثاني: أن يكون شراً، فإنه لا يقوله.

الثالث: أن يكون مباحاً، فالصمت أفضل، لأنه قد يجر الكلام المباح إلى حرام.

فائدة : ٢

فمن علامات الإيمان بالله واليوم الآخر أن يقول خيراً أو ليسكت.

فائدة : ٣

قوله (**ومَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، فَليُكْرِمْ جَارَهُ**) .

دليل على أن من علامات الإيمان إكرام الجار .

فالجار له حق عظيم وكبير في الإسلام، وقد حث الإسلام ورغّب في الإحسان إليه، وفي تحريم إيذائه.

قال ﷺ (مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ).

وفي حديث الباب (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) متفق عليه، وفي رواية (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلاَ يُؤْذِى جَارَهُ).

وفي رواية عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ ...) رواه مسلم.

وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ) رواه مسلم.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ) رواه مسلم.

قال ﷺ (حسن الأخلاق وحسن الجوار يزيدان في الأعمار) رواه أحمد.

عن أبي هريرة قال (قال رجل: يا رسول الله! إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ قال: هي في النار). رواه أحمد

ولعظم حق الجار: أخبر ﷺ أن إثم إيذاء الجار يزيد على إثم العموم:

(لأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارَه).

وقال عبد الله بن مسعود: سألت النبي ﷺ أيّ ذنب أعظم؟ قال (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ". قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: "أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ"، قُلْتُ: ثُمَّ أيّ؟: "أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَك).

تنبيه :

معنى (حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُه) اختُلف في المراد بهذا التوريث:

فقيل: يُجعل له مشاركة في المال بفرض سهم يُعطاه مع الأقارب.

وقيل: المراد: أن يُنَزَّل منزلة من يرث في البِرّ والصلة.

والأول أظهر، فإن الثاني استمرّ، والخبر مُشعِر بأن التوريث لم يقع، ويؤيده ما أخرجه البخاريّ من حديث جابر ﷺ نحو حديث الباب بلفظ (حتى ظننت أنه يَجْعل له ميراثاً).

فائدة : ٤

فضل الإحسان إلى الجار:

أولاً: الإحسان إلى الجار من الإيمان.

لحديث الباب (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ) وفي رواية (فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ).

ثانياً: المحسن إلى الجار من خير الناس.

قال ﷺ (خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره) رواه الترمذي.

ثالثاً: الجار الصالح من السعادة.

عن نافع بن الحارث. قال: قال ﷺ (من سعادة المرء: الجار الصالح، والمركب الهنيء، والمسكن الواسع) رواه ابن حبان.

رابعاً: الإحسان إلى الجار من كمال الإيمان.

عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً) رواه الترمذي.

خامساً: الإحسان إلى الجار سبب لمحبة الله.

قال ﷺ (إن أحببتم محبة الله ورسوله؛ فأدوا إذا ائتمنتم، واصدُقوا إذا حدثتم، وأحسنوا جوار مَن جاوركم).

سادساً: الإحسان إلى الجار سبب لدخول الجنة.

سأل رجل النبي ﷺ عن عمل يُدخل الجنة فقال: كن محسناً، قال: متى أكون محسناً؟ قال: إن أثنى عليك جيرانك فأنت محسن.

سابعاً: أن حسن الجوار سبب لعمار الديار وطول الأعمار.

قال ﷺ (... وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ، وَحُسْنُ الْجِوَارِ، يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَار).

فائدة : ٥

قسم الفقهاء –رحمهم الله– الجيران إلى ثلاثة أقسام:

أ– جار له حق واحد، وهو الذمي الأجنبي.

ب– جار له حقان، وهو المسلم الأجنبي، له حق الجوار، وحق الإسلام.

ج– جار له ثلاثة حقوق، وهو المسلم القريب، له حق الإسلام، وحق الجوار، وحق القرابة.

فائدة : ٦

حدود الجوار .

اختلفت عبارات أهل العلم اختلفت في حد الجوار المعتبر شرعًا، على أقوال:

القول الأول: إن حد الجوار المعتبر شرعًا: أربعون دارًا من كل جانب.

وقد جاء ذلك عن عائشة رضي الله عنها كما جاء ذلك عن الزهري والأوزاعي.

لحديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (حق الجار أربعون داراً هكذا وهكذا وهكذا ...) رواه أبو يعلى وهو ضعيف.

القول الثاني: الجار هو الملاصق فقط.

وبه قال أبو حنيفة وزفر.

قالوا: لأن الجار من المجاورة وهي الملاصقة حقيقة، والاتصال بين الملكين بلا حائل بينهما، فأما مع الحائل فلا يكون مجاوراً حقيقة.

القول الثالث: أن الجار هو الملاصق وغيره ممن يجمعهم المسجد إذا كانوا أهل محلة واحدة.

وبه قال القاضي أبو يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني.

القول الرابع: الجار هو من قاربت داره دار جاره، ويرجع في ذلك إلى العرف.

وهذا اختيار ابن قدامة، وصوبه في الإنصاف.

وهذا القول هو الراجح.

قال الألباني: وقد اختلف العلماء في حد الجوار على أقوال ذكرها في "الفتح" (١٠/ ٣٦٧) وكل ما جاء تحديده عنه ﷺ بأربعين ضعيف لا يصح، فالظاهر أن الصواب تحديده بالعرف.

فائدة : ٧

قوله (**وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ واليَومِ الآخرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ**) .

من علامات الإيمان إكرام الضيف .

وقد كان النبي ﷺ كان معروفاً بإكرام الضيف حتى قبل البعثة.

فحين رجع النبي ﷺ إلى خديجة من غار حراء فزعاً من لقائه جبريل عليه السلام قال لخديجة: أي خديجة، ما لي لقد خشيت على نفسي) أخبرها الخبر، قالت خديجة (كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق) متفق عليه.

قال القسطلاني: وتَقرِي الضيف أي: تهيئ له طعامه ونزله.

والنبي ﷺ جعل للضيف حقاً على المضيف:

ففي حديث ابن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له (وإن لزَوْرِك عليك حقاً). رواه البخاري

قال ابن حجر: قوله: (لزَورك) بفتح الزاي، أي: لضيفك.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- وقد أفاد هذا الحديث أنَّها (يعني: إكرام الضيف) من أخلاق المؤمنين، ومما لا ينبغي لهم أن يتخلفوا عنها؛ لما يحصل عليها من الثواب في الآخرة؛ ولما يترتب عليها في الدنيا من إظهار العمل بمكارم الأخلاق، وحُسن الأحدوثة الطيبة، وطيب الثناء، وحصول الراحة للضيف المتعوب بمشقات السفر، المحتاج إلى ما يخفف عليه ما هو فيه من المشقة والحاجة... ولم تزل الضيافة معمولًا بها في العرب من لدن إبراهيم عليه السلام؛ لأنه أول من ضيَّف الضيف، وعادةً مستمرةً فيهم، حتى إن مَن تركها يُذمُّ عُرفًا، ويُبخَّلُ ويُقبَّحُ عليه عادة، فنحن وإن لَمْ نقل: إنها واجبةٌ شرعًا فهي متعيِّنة؛ لما يحصل منها من المصالح، ويندفع بها من المضار، عادةً وعرفًا.

فائدة : ٨

قوله (فليكرم ضيفه) دليل على الأمر بها، واختلف العلماء في حكمها:

فقيل: واجبة في حق أهل البوادي دون القرى.

وهذا المذهب.

قال ابن حجر: وخصه أحمد بأهل البوادي دون القرى.

قال النووي: وقد جاء في حديث: (الضيافة على أهل الوبر وليست على أهل المدر) لكنه حديث موضوع.

قال: ولأن المسافر يجد في الحضر المنازل في الفنادق ومواضع النزول.

وقيل: واجبة مطلقاً.

وبه قال الليث مطلقاً.

لحديث عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ قَالَ (قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ تَبْعَثُنَا فَنَنْزِلُ بِقَوْمٍ فَلاَ يَقْرُونَنَا فَمَا تَرَى فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْ نَزَلْتُمْ بِقَوْمٍ فَأَمَرُوا لَكُمْ بِمَا يَنْبَغِي لِلضَّيْفِ فَاقْبَلُوا فَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا فَخُذُوا مِنْهُمْ حَقَّ الضَّيْفِ الَّذِى يَنْبَغِي لَهُم) متفق عليه.

قال النووي: واحتج بحديث: (ليلة الضيف حق واجب على كل مسلم).

وبحديث عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ (إن نزلتم بقوم فأمر لكم بما ينبغي للضيف فاقبلوا، فإن لم تفعلوا فخذوا منهم حق الضيف). رواه البخاري

وقيل: أنها سنة مؤكدة غير واجبة.

قال النووي: وهو قول عامة الفقهاء.

وقال ابن حجر: وقال الجمهور الضيافة سنة مؤكدة.

وأجاب الجمهور عن حديث عقبة السابق: حمله على المضطرين.

وقيل: أن ذلك كان في أول الإسلام إذ كانت المواساة واجبة، ورجح هذا النووي.

وقيل: أن هذا خاص بالعمال المبعوثين لمقتضى الصدقات من جهة الإمام.

وقيل: أن هذا خاص بأهل الذمة.

والراجح -والله أعلم- أن ضيافة المسافر المجتاز -لا المقيم- واجبة، وأن وجوبها على أهل القرى، والأمصار، دون تفريق.

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) وَقَدْ ذَهَبَ الْحَنَفِيَّةُ وَالْمَالِكِيَّةُ وَالشَّافِعِيَّةُ إِلَى أَنَّ الضِّيَافَةَ سُنَّةٌ، وَمُدَّتُهَا ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ، وَهُوَ رِوَايَةٌ عَنْ أَحْمَدَ.

وَالرِّوَايَةُ الأُْخْرَى عَنْ أَحْمَدَ -وَهِيَ الْمَذْهَبُ- أَنَّهَا وَاجِبَةٌ، وَمُدَّتُهَا يَوْمٌ لَيْلَةٌ، وَالْكَمَال ثَلاَثَةُ أَيَّامٍ. وَبِهَذَا يَقُول اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ.

وَيَرَى الْمَالِكِيَّةُ وُجُوبَ الضِّيَافَةِ فِي حَالَةِ الْمُجْتَازِ الَّذِي لَيْسَ عِنْدَهُ مَا يُبَلِّغُهُ وَيَخَافُ الْهَلاَكَ.

وَالضِّيَافَةُ عَلَى أَهْل الْقُرَى وَالْحَضَرِ، إِلاَّ مَا جَاءَ عَنِ الإْمَامِ مَالِكٍ وَالإْمَامِ أَحْمَدَ فِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَهْل الْحَضَرِ ضِيَافَةٌ.

قال الشيخ ابن عثيمين: حكم الضيافة واجب، وإكرام الضيف أيضاً واجب، وهو أمر زائد على مطلق الضيافة، قال النبي ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه).

قوله: (المجتاز به) يعني: الذي مرَّ بك وهو مسافر، وأما المقيم: فإنه ليس له حق ضيافة.

قوله (في القرى) دون الأمصار، والقرى: البلاد الصغيرة، والأمصار: البلاد الكبيرة.

قالوا: لأن القرى هي مظنة الحاجة، والأمصار بلاد كبيرة فيها مطاعم، وفنادق، وأشياء يستغني بها الإنسان عن الضيافة. وهذا – أيضاً– خلاف القول الصحيح؛ لأن الحديث عامّ، وكم من إنسان يأتي إلى الأمصار وفيها الفنادق، وفيها المطاعم، وفيها كل شيء، لكن يكرهها ويربأ بنفسه أن يذهب إليها، فينزل ضيفاً على صديق، أو على إنسان معروف، فلو نزل بك ضيف –ولو في الأمصار: فالصحيح: الوجوب. ... (الشرح الممتع)

فائدة : ٩

كثيراً ما يقرن الله بين الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر.

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً).

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ).

وقال تعالى (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَة ...).

وقال ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم والآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

وقال ﷺ (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً).

وذلك لأن الإيمان باليوم الآخر من أعظم الحوافز التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، حيث الجزاء على الأعمال في ذلك اليوم، فهو أعظم دافع إلى العمل الصالح، وهو أعظم رادع على التمادي في الباطل لمن وفقه الله تعالى.

ولهذا قال عمر: لولا الإيمان باليوم الآخر لرأيت من الناس غير ما ترى.

قال السعدي: الآخرة اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان، ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، واليقين: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، والموجب للعمل.

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: لأن الإيمان بالله هو الذي يبعث على العمل، ولهذا يقرن الله دائماً الإيمان بالله وباليوم الآخر.

فائدة : ١٠

أن إكرام الضيف والجار وحفظ اللسان من صفات المؤمن، وليس معنى ذلك انتفاء الإيمان عمَّن فقد هذه الصفات، فإن عبارة «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر» أريد بها المبالغة والحث على الالتزام، كما نقول: من كان ابني فلْيُطِعْنِي؛ إذ المقصود منه التهييج على الطاعة بذكر الباعث عليها وهو البنوة، والباعث هنا على الانصياع للأوامر الثلاثة هو الإيمان بالله وبجزائه، وهو لا يظلم مثقال ذرة، وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا .

فائدة : ١١

تعظيم حق الجار.

فائدة : ١٢

الحث على إكرام الضيف.

فائدة : ١٣

قال العلماء: المطلوب من المضيف أنْ يُبالغ في إكرام الضيف اليوم الأول وليلته، وفي باقي اليومين يأتي له بما تيسر من الإكرام.

وفي الحديث: الحث على النظر إلى حال المضيف والتخفيف عنه.

فائدة : ١٤

الأمر بقول الخير.

فائدة : ١٥

إمساك اللسان عن الشر.

١٦-عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَجُلاً قالَ للنَّبيِّ ﷺ أوصِني، قال (لا تَغْضَبْ) فردَّد مِراراً قال: (لا تَغْضَبْ). رواهُ البُخاريُّ

==========

(**أنَّ رَجُلاً**) **قال ابن حجر** –رحمه الله– قوله: «إنَّ رجلًا» هو: جارية –بالجيم– بن قدامة، أخرجه أحمد، وابن حبان، والطبراني، من حديثه مُبهمًا ومفسرًا، ويحتمل: أن يُفسَّر بغيره، ففي الطبراني من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي ﷺ قلتُ: يا رسول الله، قل لي قولًا أنْتَفِع به، وأَقْلِلْ، قال: «لا تغضب ولك الجنة»، وفيه عن أبي الدرداء ، قلتُ: يا رسول الله، دُلَّني على عملٍ يدخلني الجنة، قال: «لا تغضب»، وفي حديث ابن عمر –رضي الله عنهما– عند أبي يَعلى، قلتُ: يا رسول الله، قُل لي قولًا وَأَقْلِلْ؛ لعَلِّي أَعْقِلُهُ. (الفتح)

قال السيوطي –رحمه الله– والرَّجل المذكور: جاريةُ بن قُدامة التميمي، عَمُّ الأحنف بن قيس .

(**أوصِني**) الوصية : هي العهد إلى الشخص بأمر هام .

قال ابن حجر –رحمه الله– قوله: «أوصني» في حديث أبي الدرداء: «دُلَّني على عمل يدخلني الجنة» وفي حديث ابن عمرو – رضي الله عنهما– عند أحمد: «ما يُبَاعِدني من غضب الله؟».

(**قال : لا تَغْضَبْ**) سيأتي معناها إن شاء الله .

(**فردَّد مِراراً**) **قال ابن حجر** –رحمه الله– قوله: «فردَّد مِرارًا» أي: ردَّدَ السؤال؛ يلتمس أنْفَعَ من ذلك، أو أبْلَغَ أو أعَمَّ، فلم يزده على ذلك .

وقال الطوفي –رحمه الله– وقوله (فردَّد مرارًا) يعني: السائل كرَّر السؤال مرارًا، يقول: أوصني يا رسول الله؛ لأنه لم يقنع بقوله (لا تغضب) فطلب وصيَّةً أنْفَعَ وأَبْلَغَ منها، فلم يزده النبي ﷺ عليها؛ لعِلْمِهِ بعموم نفْعِهَا، ونبَّهَ السائل على ذلك بتكرارها.

فائدة : ١

في هذا الحديث وصية للنبي ﷺ بعدم الغضب ، فإن الغضب من الصفات الذميمة التي وردت النصوص في ذمها والتحذير منها، فكم سبب من عداوات، وأحقاد، وفرقة بين الأزواج، وتشتت الأسر وضياع الأولاد، وقطع الأرحام، وكم حصل بسببه من حروب، وفتن، وسفك للدماء؟!

فهنيئاً لمن امتثل هذه الوصية وعمل بها، ولا شك أنها وصية جامعة مانعة لجميع المسلمين.

لما في الغضب من الشر والعواقب الوخيمة .

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث: فهذا الرجلُ طلب مِن النَّبيِّ ﷺ أنْ يُوصِيه وصيةً وجيزةً جامعةً لخِصال الخيرِ، ليحفظها عنه، خشيةَ أنْ لا يحفظها لكثرتها، فوصَّاه النَّبيُّ ﷺ أنْ لا يغضب، ثم ردَّد هذه المسألة عليه مراراً، والنَّبيُّ ﷺ يردِّدُ عليه هذا الجوابَ، فهذا يدلّ على أنَّ الغضب جِماعُ الشرِّ، وأنَّ التحرّز منه جماعُ الخير .

فائدة : ٢

معنى (لا تغضب) .

قال السعدي : فإن قوله (لا تغضب) يتضمن أمرين عظيمين:

أحدهما: الأمر بفعل الأسباب والتمرن على حسن الخلق والحلم والصبر، وتوطين النفس على ما يصيب الإنسان من الخلق، من الأذى القولي والفعلي؛ فإذا وفق لها العبد، وورد عليه وارد الغضب، احتمله بحسن خلقه، وتلقَّاه بحلمه وصبره، ومعرفته بحسن عواقبه؛ فإن الأمر بالشيء أمر به، وبما لا يتم إلا به، والنهي عن الشيء أمر بضده، وأمر بفعل الأسباب التي تعين العبد على اجتناب المنهي عنه، وهذا منه.

الثاني: الأمر بعد الغضب أن لا ينفذ غضبه: فإن الغضب غالباً لا يتمكن الإنسان من دفعه ورده، ولكنه يتمكن من عدم تنفيذه.

وقال الخطابي –رحمه الله– معنى قوله (لا تغضب) هو أن يحذر أسباب الغضب، (وألَّا) يتعرض للأمور التي تجلب عليه الضجر فتُغضِبه، فأما نفس الغضب فطَبْعٌ في الإنسان لا يمكنه نَزْعُه وإخراجه من جِبِلَّتِه، وقد يكون معنى قوله: «لا تغضب» أي: لا تفعل ما يأمرك به الغضب، ويحملك عليه من القول والفعل .

وقال ابن عبد البر –رحمه الله– هذا من الكلام القليل الألفاظ الجامع للمعاني الكثيرة، والفوائد الجليلة، ومَن كَظَم غَيظَه، ورَدَّ غَضَبَه أحْرَى شيطانَه، وسَلِمَتْ مُرُوءَتُه ودِيْنُه، ولقد أحسن القائل: لا يُعْرف الحِلْمُ إلا ساعة الغضبِ.

وقال علي بن ثابت: العقل آفَتُه الإعجابُ والغضبُ، والمال آفتُه التبذير والنَّهبُ .

وقال أبو العتاهية:

ولم أرَ في الأعداء حين خَبرْتُهُم*** عدوًا لعقل المرء أعْدَى من الغضب.

وكل هؤلاء إنما حاولوا ودَنْدَنُوا حول معنى هذا الحديث، وكان رسول الله ﷺ قد أُوتي جوامع الكلم ﷺ . (التمهيد)

وقال ابن العربي –رحمه الله– قال علماؤنا: إنما نهاه عما عَلِمَ أنه هواه، كما قال لوَفْدِ عبدِ القيس: «لا تشربوا مُسْكِرًا»، وترَكَ بيان سائر المعاصي؛ وإنما كان ذلك لأن المرء إذا ترك ما يشتهي كان أجدر أن يترك ما لا يشتهي، وخصوصًا الغضب؛ فإنَّ من مَلَكَ نفسه عنده كان شديدًا سديدًا، وإذا مَلَكَهَا عند الغضب كان أحْرى أن يمْلِكَها عند الكِبْر والحَسَد وأخواتهما .

فائدة : ٣

قال ابن حجر –رحمه الله– قوله (قال: لا تغضب) في رواية أبي كريب: «كل ذلك يقول: لا تغضب».

وفي رواية عثمان بن أبي شيبة قال (لا تغضب ثلاث مرات) وفيها بيان عدد المرار، وقد تقدم حديث أنس أنه ﷺ كان يُعيد الكلمة ثلاثًا؛ لتُفْهَم عنه، وأنه كان لا يُراجَع بعد ثلاث.

فائدة : ٤

خطر الغضب وشدة آثاره السيئة .

قال الخطابي –رحمه الله– الغضب يغيِّر الطباع، ويفسد الرأي، ويضر بالعقل.

وقال النووي–رحمه الله– الغضب من نزغَات الشيطان؛ ولهذا يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب؛ ولهذا قال النبي ﷺ للذي قال له: أَوْصِنِي: «لا تغضب، فردَّد مرارًا، قال: لا تغضب»، فلم يَزِدْه في الوصية على «لا تغضب»، مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عِظَم مفسدة الغضب، وما ينشأ منه.

وقال ابن الجوزي –رحمه الله– الغضب: غَلَيَان دم القلب؛ طلبًا للانتقام، وذلك يُخرج الطبع عن حد الاعتدال .

فائدة : ٥

علاج الغضب :

الاستعاذة بالله من الشيطان.

عن سُلَيْمَان بْنَ صُرَدٍ. قَالَ (اسْتَبَّ رَجُلاَنِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ حَتَّى انْتَفَخَ وَجْهُهُ وَتَغَيَّرَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ الَّذِي يَجِدُ فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ تَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ فَقَالَ أَتُرَى بِي بَأْسٌ أَمَجْنُونٌ أَنَا اذْهَب) متفق عليه .

وبالسكوت.

قال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم فليسكت) رواه أحمد.

قال ابن رجب : وهذا أيضاً دواء عظيم للغضب؛ لأنَّ الغضبان يصدر منه في حال غضبه من القول ما يندم عليهِ في حال زوال غضبه كثيراً من السِّباب وغيره مما يعظم ضَرَرُهُ، فإذا سكت زال هذا الشرّ كله عنه .

وقال السندي –رحمه الله– قوله (فليسكت) لأن الكلام في تلك الحالة يؤدي إلى الندامة .

وقال المناوي –رحمه الله– فإن السكوت يُسَكِّنُ الغضب، وحركة الجوارح تُثِيْرُه.

وبالجلوس وإلا فليضطجع .

قال رسول الله ﷺ (إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع) رواه أحمد.

قال العلامة الخطابي – رحمه الله القائم متهيئ للحركة والبطش، والقاعد دونه في هذا المعنى، والمضطجع ممنوع منهما، فيشبه أن يكون النبي ﷺ إنما أمره بالقعود والاضطجاع لئلا يبدر منه في حال قيامه وقعوده بادرة يندم عليها فيما بعد .

وقال ابن قدامة –رحمه الله–:وأما الجلوس والاضطجاع فيمكن أن يكون إنما أمر بذلك ليقرب من الأرض التي منها خُلِق، فيَذْكُرُ أصلَه فيذلّ، ويمكن أنْ يكون ليتواضع بِذُلِّه؛ لأن الغضب ينشأ من الكِبْرِ، بدليل ما روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه ذَكَرَ الغضب وقال : مَن وجد شيئًا من ذلك فلْيُلْصِقْ خدَّه بالأرض .

وقال البغوي –رحمه الله–قيل: إنَّما أمَرَه بالقعود والاضطجاع لئلا يحصل منه في حال غضبه ما يندم عليه، فإن المضطَجِع أبْعَد في الحركة والبطش من القاعد، والقاعد من القائم .

وقال ابن رجب : وقد قيل: إنَّ المعنى في هذا أنَّ القائم متهيِّئ، للانتقام والجالس دونَه في ذلك، والمضطجع أبعدُ عنه، فأمره بالتباعد عن حالةِ الانتقام .

وقال الطوفي –رحمه الله– (فليضطَجِع) والغرض أنْ يبعد عن هيئة الوثوب والتسرع إلى الانتقام ما أمكن؛ حسمًا لمادة المبادرة.

وقال ابن رسلان –رحمه الله–قوله (وإلا فليضطجع) لأن المضطجِع أقلُّ حركة من الجالس، ويشبه أنْ يكون النبي ﷺ إنَّما أمره بالقعود والاضطجاع؛ لئلا يبدو منه في حال قيامه وقعوده بادرة بالانتقام من عدوِّه، فيندم عليها فيما بعد، والله أعلم.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله–إذا كان قائمًا فليجلس، وإذا كان جالسًا فليضطجع؛ لأن تغيُّر حاله الظاهر يوجب تغير حاله الباطن.

وتذكر وصية النبي ﷺ للرجل: لا تغضب.

كما في حديث الباب .

وقد جاء في رواية قال الرجل: ففكرت حين قال النبي ﷺ ما قال فإذا الغضب يجمع الشر كله.

وترك الغضب من أسباب دخول الجنة.

فقد جاء في رواية (لا تغضب ولك الجنة) وعزاه ابن حجر إلى الطبراني.

الأجر العظيم لمن كظم غيظه.

عن معاذِ بنِ أَنسٍ ﷺ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَال (مَنْ كَظَمَ غَيظاً، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاء) رواه أَبو داود والترمذي.

معرفة الرتبة العالية والميزة المتقدمة لمن ملك نفسه.

عن أبي هريرةَ ﷺ أنّ رسولَ الله ﷺ قَال (لَيْسَ الشَّدِيدُ بالصُّرَعَةِ، إنَّمَا الشَدِيدُ الَّذِي يَملكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَب) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

(وَالصُّرَعَةُ): بضَمِّ الصَّادِ وَفَتْحِ الرَّاءِ وأَصْلُهُ عِنْدَ العَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كَثيراً.

وقال ﷺ (الصرعة كل الصرعة الذي يغضب فيشتد غضبه ويحمر وجهه، ويقشعر شعره فيصرع غضبه) رواه الإمام أحمد.

وينتهز عليه السلام الفرصة في حادثة أمام الصحابة ليوضّح هذا الأمر.

فعن أنس (أن النبي ﷺ مرّ بقوم يصطرعون، فقال: ما هذا؟ قالوا: فلان الصريع ما يصارع أحداً إلا صرعه قال: أفلا أدلكم على من هو أشد منه، رجلٌ ظلمه رجلٌ فكظم غيظه فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه). رواه البزار قال ابن حجر بإسناد حسن

التأسي بهديه ﷺ في الغضب.

وهذه السمة من أخلاقه ﷺ وهو أسوتنا وقدوتنا، واضحة في أحاديث كثيرة، ومن أبرزها:

حديث أنس رضي الله عنه قال (كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه بردائه جذبة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ (ما بين العنق والكتف) وقد أثرت بها حاشية البرد، ثم قال: يا محمد مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء) متفق عليه.

معرفة أن رد الغضب من علامات المتقين.

قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

ومن أخلاقهم أنهم (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ).

دعاء الله.

كان من دعائه ﷺ (اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيراً لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى ...).

قال الحافظ ابن رجب: وأما قوله (وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا) فعزيز جداً، وقد مدح الله من يغفر عند غضبه فقال (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) لأن الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل، فمن كان لا يقول إلا الحق في الغضب والرضا، دل ذلك على شدة إيمانه وأنه يملك نفسه.

ثم قال رحمه الله: فإن من لا يملك نفسه عند الغضب إذا غضب قال فيمن غضب عليه ما ليس فيه من العظائم، وهو يعلم أنه كاذب .

فائدة : ٦

قال أحد السلف: إياك والغضب، فإنه يصيرك إلى ذل الاعتذار.

وقال بعضهم: عجباً لمن قيل فيه السوء وهو فيه كيف يغضب!، وعجباً لمن قيل فيه الخير وليس فيه كيف يفرح!

وقال مورق العجلي: ما قلت في الغضب شيئاً إلا ندمت عليه في الرضا.

وكان الشعبي ينشد:

ليست الأحلام في حال الرضا ... إنما الأحلام في حال الغضب

وكان ابن عون إذا اشتد غضبه على أحد قال: بارك الله فيك ولم يزد.

وقال الفضيل بن عياض: أنا منذ خمسين سنة أطلب صديقاً إذا غضب لا يكذب عليّ ما أجده.

وقال جعفر بن محمد: الغضب مفتاح كل شر.

وقيل لابن المبارك: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة: قال: ترك الغضب.

وروي أن معاوية بن أبي سفيان قال لعرابة بن أوس: بم سدت قومك يا عرابة؟ فقال عرابة: يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم، وأعطي سائلهم، وأسعى في حوائجهم، فمن فعل منهم فعلي فهو مثلي، ومن جاوزني فهو أفضل مني، ومن قصر عني فأنا خير منه.

وممن اشتهر بالحلم وعدم الغضب الأحنف بن قيس وكان يقال: أحلم من أحنف.

فائدة : ٧

الغضب ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول : مذموم.

وهو الغضب الدنيوي الذي حذرنا منه النبي ﷺ كما في حديث الباب.

القسم الثاني : وهو محمود.

ما كان لله وللحق.

قالت عائشة (وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمات الله) متفق عليه.

وغضب ﷺ لما شكيَ إليه الإمام الذي يطيل بالناس صلاته حتى يتأخر بعضهم عن الصلاة معه، غضب واشتد غضبه ووعظ الناس وأمر بالتخفيف.

قال السيوطي -رحمه الله-قال الباجي: وإنما أراد ﷺ مَنْعَهُ من الغضب في معاني دنياه ومعاملته، وأما فيما يعود إلى القيام بالحق، فالغضب فيه قد يكون واجبًا، كالغضب على أهل الباطل، والإنكار عليهم بما يجوز، وقد يكون مندوبًا، وهو الغضب على المخطئ، كما غضِب رسول الله ﷺ لما سأله رَجُل عن ضالَّة الإبل؛ ولما شُكي إليه معاذ أنه يطوِّل في الصلاة .

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- الغضب لله ولشرائع الله محمود، وهو مِن هدي الرسول ﷺ ودليل على غيرة الإنسان وعلى محبته لإقامة شريعة الله، أما الغضب للنفس فينبغي للإنسان أن يكْتُمه، وأن يَحْلُم.

فائدة : ٨

قال ابن حجر -رحمه الله- قال ابن التين: جمَع ﷺ في قوله : **تغضي** ، الدنيا والآخرة؛ لأن الغضب يَؤُولُ إلى التقاطع، ومَنْعِ الرِّفق، وربما آل إلى أن يُؤْذِي المغضوب عليه، فيُنْتَقَصُ ذلك من الدِّين .

فائدة : ٩

لماذا خص هذا الرجل بهذه الوصية .

قال ابن حجر -رحمه الله- قال بعضهم: لعل السائل كان غضوبًا، وكان النبي ﷺ يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيَّته له على ترك الغضب .

وقال ابن هبيرة -رحمه الله- من الجائز أن يكون النبي ﷺ علِم من هذا الرجل كثرة الغضب، فخصَّه بهذه الوصية، وقد مدَح رسولُ الله الذي يملك نفسه عند الغضب .

وقال ابن الملك -رحمه الله- يحتمل: أن يكون الرجل المسْتَوصِي مبتلى بالقوة الغضبية، وعَرَف ﷺ ذلك منه بالكشف لأحوال الناس؛ إما بالاطلاع الإلهي، أو بالفراسة الصادقة، فأجابه بكل مرَّة بكَسْر تلك القوة .

فائدة : ١٠

قال ابن حجر -رحمه الله- ويُعِينُ على ترك الغضب: استحضار ما جاء في كظْمِ الغيظ من الفضل، وما جاء في عاقبة ثمرة الغضب من الوعيد، وأن يستعيذ من الشيطان.

فائدة : ١١

قال النووي -رحمه الله- روى النَّحاسُ عن أبي بكر محمد بن يحيى، وكان أحد الفقهاء العلماء الأدباء، أنه قال: يُكره أنْ يُقال لأحدٍ عند الغضب: اذْكُر اللَّهَ تَعالى؛ خوفًا من أنْ يحملَه الغضبُ على الكفر، قال: وكذا لا يُقال له: صلِّ على النبيّ ﷺ خوفًا من هذا . (الأذكار)

فائدة : ١٢

أن الغضبُ جِمَاعُ الشرِّ كُلِّهِ.

فائدة : ١٣

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله: لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ولا تجاوز خمسة عشر سوطًا .

فائدة : ١٤

من أعظم أسباب الغضب المجادلة ففي كثير من الأحيان يبدأ النقاش ثم يتحول إلى مجادلة ونزاع يُغْضِب ويورث العداوة فكان من حكمة الشارع النهي عن المجادلة :

فعن أبي أمامة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً وببيت في أعلى الجنة لمن حَسَّنَ خلقه) رواه أبو داود .

فائدة : ١٥

نهى النبيُّ ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان؛ لأنَّ الغضب يمنع القاضي من تصوُّر المسألة، ثمَّ من تطبيق الحكم الشرعي عليها، فيهلك ويحكم بين الناس بغير الحقِّ.

فائدة : ١٦

منْ أسبابِ تحصيلِ العلمِ السؤالُ.

فائدة : ١٧

جواز طلب الوصية من العالم.

فائدة : ١٨

جواز الاستزادة من الوصية.

عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّاد بنِ أوسٍ، عَنْ رسولِ الله ﷺ قال (إنَّ الله كَتَبَ الإحسّانَ على كُلِّ شيءٍ، فإذَا قَتَلْتُم فَأَحْسِنُوا القِتْلَة، وإذا ذَبَحْتُم فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ) رواهُ مُسلم .

==========

(**عَنْ أَبِي يَعْلَى شَدَّاد بنِ أوسٍ**) هو شداد بن أوس بن ثابت بن المنذر ابن أخي حسان بن ثابت الأنصاري، يكنى أبا يعلى، نزل الشام بناحية فلسطين، من فضلاء الصحابة وعلمائهم.

قال عبادة بن الصامت: كان شداد بن أوس ممن أوتي العلم والحِلم، وقال خالد بن معدان: لم يبقَ بالشام أحدٌ كان أوثق ولا أفقه ولا أرضى من عبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، وقال المفضل الغلابي: زهاد الأنصار ثلاثة: أبو الدرداء، وعمير بن سعد، وشداد بن أوس ، ولما قتل عثمان رضي الله عنه، اعتزل، وعكف على العبادة.

قال ابن سعد: نزل فلسطين وله عقب، مات سنة ثمان وخمسين، وهو ابن خمس وسبعين سنة، وكانت له عبادة واجتهاد .

(**إنَّ الله كَتَبَ**) أي : فرض وأوجب .

(**الإحسّانَ على كُلِّ شيءٍ**) **قال القرطبي** : "الإحسان " هنا: بمعنى الإحكام، والإكمال، والتحسين في الأعمال المشروعة، فحقّ من شَرَع في شيء منها أن يأتي به على غاية كماله، ويُحافظ على آدابه المصحّحة، والمكمّلة .

(**فإذَا قَتَلْتُم**) أي :أردتم قتل من يجوز قتله .

(**فَأَحْسِنُوا القِتْلَة**) أي : هيئة القتل ، وإحسانها : اختيار أسهل الطرق وأخفها إيلاماً .

(**وإذا ذَبَحْتُم**) أي : أردتم ذبح ما يحل ذبحه من الحيوان .

(**فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ**) أي : هيئة الذبح ، بأن يكون بسكين حادة ، وأن يعجل إمرارها .

(**ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَهُ**) **قال** النووي : قوله (وَلْيُحِدَّ) هُوَ بِضَمِّ الْيَاء يُقَال: أَحَدّ السِّكِّين وَحَدَّدَهَا وَاسْتَحَدَّهَا بِمَعْنًى .

(**ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**) وَلْيُرِحْ ذَبِيحَته، بِإِحْدَادِ السِّكِّين وَتَعْجِيل إِمْرَارهَا وَغَيْر ذَلِكَ، وَيُسْتَحَبّ أَلَّا يُحِدّ السِّكِّين بِحَضْرَةِ الذَّبِيحَة، وَأَلَّا يَذْبَح وَاحِدَة بِحَضْرَةِ أُخْرَى، وَلَا يَجُرّهَا إِلَى مَذْبَحهَا. وَقَوْله ﷺ: (فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَة) عَامّ فِي كُلّ قَتِيل مِنْ الذَّبَائِح، وَالْقَتْل قِصَاصًا، وَفِي حَدّ وَنَحْو ذَلِكَ. وَهَذَا الْحَدِيث مِنْ الْأَحَادِيث الْجَامِعَة لِقَوَاعِدِ الْإِسْلَام. (شرح مسلم)

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث :

هذا الحديث عظيم، وهو من قواعد الدين .

قال ابن دقيق العيد – رحمه الله –: هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد كثيرة .

وقال النووي – رحمه الله –: هذا الحديث من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام .

وقال المناوي – رحمه الله –: وهذا الحديث من قواعد الدين .

فائدة : ٢

في الحديث الأمر بالإحسان في كل شيء .

كما قال تعالى (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

وقال تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) .

وهذا الأمر بالإحسان قد يكون واجباً : كالإحسان إلى الوالدين والأرحام .

وقد يكون مستحباً : كصدقة التطوع .

فائدة : ٣

الإحسان هو بذل جميع المنافع من أي نوع كان لأي مخلوق يكون ، ولكنه يتفاوت بتفاوت المحسَن إليهم ، وحقهم ومقامهم ، وبحسب الإحسان ، وعظم موقعه ، وعظيم نفعه ، وبحسب إيمان المحسن وإخلاصه ، والسبب الداعي إلى ذلك .

فائدة : ٤

فضائل الإحسان :

أولاً: أن من أحسن إلى الناس أحسن الله إليه.

كما قال تعالى (هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ).

وقال تعالى (وَأَحْسِنُوَا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

وقال تعالى (ويَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى).

ثانياً: لهم في الدنيا حسنة.

قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ).

ثالثاً: رحمة الله قريبة من المحسنين.

قال تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ).

رابعاً: لهم الجنة ونعيمها.

قال تعالى (لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ).

خامساً: تبشير المحسنين.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ).

سادساً: أن الله معهم.

قال تعالى (وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ).

سابعاً: إن الله يحب المحسنين.

قال تعالى (وَأَحْسِنُوَا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ).

ثامناً: إن الله لا يضيع أجر المحسنين.

قال تعالى (إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ).

تاسعاً: الإحسان سبب في دخول الجنة.

قال تعالى (... آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ).

عاشراً: الكافر إذا رأى العذاب تمنى أن لو أحسن في الدنيا.

قال تعالى (أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِين).

قال ابن رجب: قوله تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) وقد ثبت في " صحيح مسلم " عنِ النَّبيّ ﷺ تفسيرُ الزّيادةِ بالنّظرِ إلى وجهِ الله –عز وجل– في الجنة، وهذا مناسبٌ لجعلِه جزاءً لأهلِ الإحسّانِ؛ لأنَّ الإحسانَ هو أنْ يَعبُدَ المؤمنُ ربّه في الدُّنيا على وجهِ الحُضورِ والمراقبةِ، كأنّه يراهُ بقلبِهِ وينظرُ إليه في حال عبادتِهِ، فكانَ جزاءُ ذلك النَّظرَ إلى الله عياناً في الآخرة، وعكس هذا ما أخبرَ الله تعالى به عَنْ جَزاءِ الكُفَّار في الآخرةِ (إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ) وجعلَ ذلك جزاءً لحالهم في الدُّنيا، وهو تراكُم الرَّانِ على قُلوبِهم، حتّى حُجِبَتْ عن معرفتِهِ ومُراقبته في الدُّنيا، فكان جزاؤُهم على ذلك أنْ حُجِبوا عن رُؤيته في الآخرة.

فائدة : ٥

قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) هذا تعليل للأمر بالإحسان، أي: إن الله يحب المحسنين بنوعي الإحسان، الإحسان في عبادته، والإحسان إلى عباده.

فائدة : ٦

وأعظم دافع للإحسان مراقبة الله تعالى، ولذلك قال النبي ﷺ في تعريفه (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تره فإنه يراك).

وسؤال جبريل هذا ليعلم أصحاب النبي ﷺ معنى الإحسان، وأن إحسان العمل إنما يكون لمن راقب الله وعلم يقيناً أن الله مطلع عليه.

لأن الإحسان هو الغاية التي من أجلها خلق الخلق، وأنه سبحانه يختبر عباده في إحسانهم للعمل.

كما قال تعالى في أول سورة هود (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً). ولم يقل أيكم أكثر عملاً.

وقال تعالى في أول سورة الكهف (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا) ثم بيّن الحكمة بقوله (لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

وقال تعالى في أول سورة الملك (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ) ثم بيّن الحكمة فقال (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً).

فائدة : ٧

الإحسان في عبادة الله: أن تقوم بالعمل متقناً فيه إخلاصاً ومتابعة.

والإحسان إلى المخلوق: بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك.

قال السعدي: والإحسان نوعان:

الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى المخلوق.

فالإحسان في عبادة الخالق: فسرها النبي ﷺ بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وأما الإحسان إلى المخلوق: فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبيده. (تفسير السعدي)

فائدة : ٨

ذكر النبي ﷺ مثالاً للإحسان : وهو الإحسان في ذبح الحيوان . فقال (**وإذا ذَبَحْتُم فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وليُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَهُ، ولْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**) .

فالحديث دليل على الأمر بإحسان ذبح الذبيحة ... وذلك بأن نذبحها على الوجه المشروع .

ومن ذلك :

حد الشفرة لأن ذلك أسهل للذبيحة . فلا يجوز أن يذبحها بآلة كالة [أي ليست بجيدة] .

ولا يحد الشفرة أمام الذبيحة ، لأن النبي ﷺ أمر أن تحد الشفار ، وأن توارى عن البهائم .

قال النوويّ –رحمه الله– قوله (ولْيُرِح ذبيحته) أي: بإحداد السكين، وتعجيل إمرارها، وغير ذلك، ويستحبّ أن لا يُحِدّ السكين بحضرة الذبيحة، وأن لا يذبح واحدة بحضرة أخرى، ولا يَجُرّها إلى مذبحها.

وقال القرطبيّ : وإحسان الذبح في البهائم: الرفقُ بالبهيمة، فلا يصرعها بعنف، ولا يجُرّها من موضع إلى موضع، وإحداد الآلة، وإحضار نيّة الإباحة والقربة، وتوجيهها إلى القبلة، والتسمية، والإجهاز، وقطع الودجين، والحلقوم، وإراحتها، وتركها إلى أن تبرُد، والاعتراف لله تعالى بالمنّة، والشكر له على النعمة بأنه سخّر لنا ما لو شاء لسلّطه علينا، وأباح لنا ما لو شاء لحرّمه علينا. وقال ربيعة: من إحسان الذبح ألا تذبح بهيمة، وأُخرى تنظر.

وقال ابن رجب –رحمه الله–: قال الإمام أحمد: تُقاد إلى الذبح قودًا رفيقًا، وتوارى السكين عنها، ولا تظهر السكين إلا عند الذبح، أمر رسول الله ﷺ بذلك أنْ تُوارى الشفار، وقال: ما أُبهمت عليه البهائم فلم تبهم أنها تعرف ربها، وتعرف أنها تموت، وقال يُروى عن ابن سابط أنه قال: إنَّ البهائم جُبلت على كل شيء، إلا أنَّها تعرف ربها، وتخاف الموت.

وقال ابن الملقن –رحمه الله– وكَرِهَ أبو هريرة أنْ تُحَدَّ الشفرةُ والشاة تنظر إليها، وروي أنه عليه السلام رأى رجلًا أضجع شاة، فوضع رِجْلَهُ على عُنقها وهو يحد شفرته، فقال عليه السلام: «ويلك، أردتَ أنْ تميتها موتات، هلَّا حددت شفرتك قبل أن تضجعها؟ .

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– قوله (الحجاوي) (وأنْ يحدَّها والحيوان يُبصره) أي: يحد الآلة، وجُملة «والحيوان يُبصره» هذه جملة حاليَّة، يعني: والحال أنَّه يبصره؛ لأنَّ النبي ﷺ «أَمَرَ أنْ تُحدَّ الشِّفَار، وأنْ تُوارى عن البهائم»، فأمر بأمرين:

الأول: حد الشفرة، يعني: سَنّها.

الثاني: أنْ تُوارى عن البهائم حال حدِّها، وفي غير هذه الحال أيضًا، حتى إذا أتيتَ لتذبحها لا تُظهر لها السكين، بل وارها عنها، إلا عند الذبح، كما نص على ذلك الإمام أحمد –رحمه الله–، وهذا ظاهر الحديث (وأنْ تُوارى) يعني: الشفرة «عن البهائم»؛ لأنها تَعرف ربها –سبحانه وتعالى–، وتسبّح بحمده، وتَعرف الموت؛ ولهذا تَهْرُب .

وقال الشيخ ابن عثيمين أيضاً : يجب حدُّ الشَّفرة؛ لأن ذلك أسهل للذبيحة، ومعنى إحدادها: أنْ يمسحها بشيء يجعلها حادة، فإنْ ذبح بشفرة كالَّة –أي: ليست بجيدة– ولكن قطع ما يجب قطعه، فالذبيحة حلال؛ لكنه آثم، حيث لم يحد الشفرة.

وقال ابن قدامة –رحمه الله– يكره أنْ يُسن السكين والحيوان يُبصره، ورأى عمر رجلًا قد وضع رجله على شاة، وهو يحد السكين، فضربه حتى أفْلَتَ الشاة.

وقال النووي –رحمه الله– الأَولى أنْ تُساق (الذبيحة) إلى المذبح برفق، وتُضجع برفق، ويعرض عليها الماء قبل الذبح، ولا يحدّ الشفرة قبالتها، ولا يذبح بعضها قبالة بعض .

وقال المناوي –رحمه الله– من الرِّفق بها (الذبيحة) والرحمة بها أنْ لا يذبح أخرى عندها، ولا يحد السكين وهي تنظر، فقد مر النبي ﷺ برجل واضع رجله على صفحة شاة وهو يحد شفرته وهي تلحظُه فقال: أفلا قَبْلَ هذا؟ تريد أن تميتها موتات؟». رواه الطبراني وغيره

فائدة : ٩

وجوب إراحة الذبيحة .

فائدة : ١٠

في الحديث الحث على الرحمة والشفقة بالحيوان، والإسلام له السبق في هذا الميدان، قبل جماعات الرفق بالحيوان التي أنشئت حديثًا في أوروبا وغيرها.

وفي مسند أحمد عن قُرَّةَ بن إياس ﷺ (أن رجلًا قال: يا رسول الله إني لأذبح الشاة، وأنا أرحمها، أو قال: إني لأرحم الشاة أن أذبحها، فقال: والشاة إن رحمتها رحمك الله، والشاة إن رحمتها رحمك الله) .

قال الساعاتي –رحمه الله– رحمة الشاة: أن يستعمل معها الآداب ...كأن يحد السِّكين، وأن يسرع في الذبح، وأن لا يذبحها أمام أختها، ونحو ذلك. . انتهى .

وفي الحديث : أن الرَّحمة بالمخلوقات من أسباب استحقاقِ رحمةِ الله في الآخرة.

قال المناوي –رحمه الله– (والشاة إن رحمتها رحمك الله ...) ولهذا ورد النهي عن ذبح حيوان بحضرة آخر.

وقال رحمه الله : ... ومن الرفق بها، والرحمة بها: أنْ لا يذبح أخرى عندها، ولا يحد السكين وهي تنظر، فقد مرَّ النبي ﷺ برجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحد شفرته، وهي تلحظُهُ، فقال: أفلا قَبْل هذا؟ تريد أن تميتها موتات؟ .

وقال ابن عبد البر –رحمه الله– الرفق بالدواب في ركوبها، والحمل عليها واجب سُنة، فإنها عجم لا تشكو، وهي من ملك اليمين، وفي كل كبد رطبة أجر، هذا قول رسول الله ﷺ، وإذا كان في الإحسان إليها أجر، فكذلك في الإساءة إليها وزر، وقد شكا إلى رسول الله ﷺ جملٌ أنَّ صاحبه يُجِيْعُهُ، فأمره بالإحسان إليه، أو يبيعه، ولا يحمل على الدواب أكثر من طاقتها، ولا يضرب وجوهها، ولا تتخذ ظهورها كراسي، ولا تقلد الأجراس إلا أنْ تكون بدار الحرب تهيُّبًا للعدون، ولا تُستعمل ليلًا إلا أنْ يروح عنها نهارًا، ولا يحل حبس بهيمة مربوطة عن السرح، والتحريش بين البهائم مكروه .

فائدة : ١١

النهي عن المُثْلة بالإنسان بعد قتله دون وجه حق.

فائدة : ١٢

فيه سماحة الشريعة ويسرها؛ حيث بنيت على الإحسان والإتقان.

فائدة : ١٣

من أجل أنواع الإحسان : الإحسان إلى من أساء إليك بقول أو فعل .

قال تعالى (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) .

١٨–عَنْ أَبي ذَرٍّ ومعاذِ بن جَبَلٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُما – : أنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قال (اتَّقِ الله حَيثُمَا كُنْتَ ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا ، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ) رواه التِّرمذيُّ وقال : حَديثٌ حَسنٌ ، وفي بعضِ النُّسَخِ : حَسَنٌ صَحيحٌ .

==========

(اتق الله) أي: اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

(حَيْثُمَا كُنْتَ) أي: في أي مكان وأي زمان كنت فيه، لوحدك أو مع الناس.

(وَخَالِقِ النَّاسَ) أي: عامل الناس.

(بِخُلُقٍ حَسَنٍ) الخلق الحسن: هو فعل الفضائل وترك القبائح.

فائدة : ١

الحديث دليل على وجوب تقوى الله تعالى لقوله (اتق الله) .

قال ابن رجب –رحمه الله–: فهذه الوصية وصيةٌ عظيمةٌ جامعة لحقوق الله، وحقوق عباده، فإن حقَّ الله على عباده أن يتقوه حقَّ تقاته، والتقوى وصيةُ الله للأوّلين والآخرين. قال تعالى (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ) .

وأصلُ التقوى: أن يجعل العبدُ بينَه وبينَ ما يخافُه ويحذره وقايةً تَقِيهِ منه، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبينَ ما يخشاه من ربه، من غضبه وسخطه وعقابه وقايةً تَقِيهِ من ذلك؛ وهو فعلُ طاعته، واجتنابُ معاصيه. (ابن رجب)

والتقوى مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان لنفسه وقاية من عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وهذا من أجمع التعاريف، وقد جاء في معناها آثار عدة عن السلف كلها داخلة تحت هذا المعنى.

قال علي: التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل.

وقال ابن مسعود: حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

وقال طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف عقاب الله.

قال ابن القيم: وهذا من أحسن ما قيل في حد التقوى.

وروي أن عمر بن الخطاب سأل أبي بن كعب عن التقوى؟ فقال: هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت؟ قال: تشمرت وحذرت، قال: فذاك التقوى.

قال ابن المعتز:

خل الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

كن مثل ماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة ... إن الجبال من الحصى

فائدة : ٢

فضائل التقوى :

أولاً: أنها سبب لتيسير الأمور.

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً).

ثانياً: أنها سبب لإكرام الله.

قال تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ).

ثالثاً: العاقبة لأهل التقوى.

قال تعالى (وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

رابعاً: أنها سبب في دخول الجنة.

قال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ).

خامساً: أنها سبب لتكفير السيئات.

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً).

سادساً: أنها سبب لحصول البشرى لهم.

قال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا).

سابعاً: أنها سبب للفوز والهداية.

قال تعالى (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ).

ثامناً: أنها سبب للنجاة يوم القيامة.

قال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً).

تاسعاً: أنها سبب لتفتيح البركات من السماء والأرض.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ).

عاشراً: أنها سبب للخروج من المأزق.

قال تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ).

الحادي عشر: أنها سبب لمحبة الله.

قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ).

الثاني عشر: أنها سبب للاهتداء بالقرآن.

قال تعالى (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ).

الثالث عشر: بالتقوى تنال معية الله.

قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ).

الرابع عشر: أنها خير زاد.

قال تعالى (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى).

الخامس عشر: أنها من أسباب نيل الأجر العظيم.

قال تعالى (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ).

السادس عشر: أن الآخرة خير من الدنيا للمتقين.

قال تعالى (والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

السابع عشر: أنها سبب لقبول الأعمال.

قال تعالى (قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ).

الثامن عشر: أن لباس التقوى خير لباس.

قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ).

التاسع عشر: أنها من أسباب الرحمة.

قال تعالى (وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنَا يُؤْمِنُونَ).

العشرون: أنها من أسباب ولاية الله.

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

وقال تعالى (وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ).

قال الحسن: ما زالت التقوى بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام.

وقال الثوري: إنما سموا متقين، لأنهم اتقوا ما لا يُتقى.

قال ابن القيم: مراتب التقوى: التقوى ثلاث مراتب:

إحداها: حميّة القلب والجوارح عن الآثام والمحرمات، والثانية: حميّتها عن المكروهات، **والثالثة:** الحمية عن الفضول وما لا يعني.

فالأولى تعطي العبد حياته، والثانية تفيده صحته وقوته، والثالثة تكسبه سروره وفرحه وبهجته.

فائدة : ٣

الحديث دليل على وجوب تقوى الله في السر والعلن ومراقبته سبحانه :

لقوله (اتق الله حيثما كنت) حيث يراه الناس وحيث لا يرونه.

قال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– قوله (حيثُما كنت) أي: في أيّ مكانٍ كنتَ فيه، حيث يراك الناس، وحيث لا يرونك؛ اكتفاءً بنظره تعالى؛ قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) .

وقال ابن رجب –رحمه الله– قوله (حيثُما كنت) مراده في السر والعلانية، حيث يراه الناس، وحيث لا يرونه .

وقال الصنعاني –رحمه الله– (حيثُما كنت) في أي مكان نزلْتَ، وأي جهة حلَلْتَ، فلا يخص بالتقوى مكانًا دون مكان؛ لأنك بمرأى منه تعالى؛ ولأن الأماكن بالنسبة إلى علمه بعملك سواء.

إن تقوى الله في الغيب، وخشيته في السر، دليل كمال الإيمان، وسبب حصول الغفران، ودخول الجنان، بها ينال العبد كريم الأجر وكبيره.

قال تعالى (إنما تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيم).

وقال تعالى (إن الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير).

وقال تعالى (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ. هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ. مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ. ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ. لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد).

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة).

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات، كما قال ﷺ (ثلاث منجيات، وذكر منها: خشية الله في السر والعلن).

وقال الشافعي: أعز شيء في الوجود ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف.

وكان الإمام أحمد ينشد:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوتُ ولكنْ قل عليّ رقيب.

ولا تحسبنّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أن ما يخفى عليه يغيبُ.

وقال الشاعر:

إذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلَى الطغيان.

فاستحي مِن نظر الإله وقل لها ... إن الذي خلق الظلام يراني.

قال ابن رجب رحمه الله: وفي الجملة، فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناء في قلوب المؤمنين.

وقال رحمه الله في شرح حديث عمار: فأما خشية الله في الغيب والشهادة، فالمعنى أن العبد يخشى الله سراً وإعلاناً وظاهراً وباطناً، فإن أكثر الناس يرى أنه يخشى الله في العلانية وفي الشهادة، ولكن الشأن في خشيته في الغيب إذا غاب عن أعين الناس، وقد مدح الله من يخافه بالغيب:

قال تعالى (الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ).

وقال تعالى (مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ).

وقال تعالى (لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ).

وقال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ).

ومن هنا عظم ثواب من أطاع الله سراً بينه وبينه، ومن ترك المحرمات التي يقدر عليها سراً.

فأما الأول: فمثل قوله تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ... فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال بعض السلف: أخفوا لله العمل فأخفى لهم الجزاء.

وفي حديث السبعة الذي يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) متفق عليه

وأما الثاني: فمثل قوله ﷺ في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله).

فائدة : ٤

من أقوال السلف في المراقبة.

قال عبد الله بن دينار: خرجت مع عمر بن الخطّاب ﷺ إلى مكّة فعرّسنا في بعض الطّريق فانحدر عليه راع من الجبل، فقال له: يا راعي، بعني شاة من هذه الغنم؟ فقال: إنّي مملوك، فقال: قل لسيّدك: أكلها الذّئب؟ قال: فأين الله؟ قال: فبكى عمر ﷺ ثمّ غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه، وأعتقه وقال: أعتقتك في الدّنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

قال ابن المبارك لرجل: راقب الله تعالى، فسأله عن تفسيرها فقال: كن أبداً كأنك ترى الله عز وجل.

وسئل الحارث المحاسِبي عن المراقبة فقال: علم القلب بقرب الله تعالى.

قال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للنّاس فكن واعظاً لنفسك وقلبك، ولا يغرّنّك اجتماعهم عليك فإنّهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

وقيل لبعضهم: متى يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيباً.

قال ابن عطاء رحمه الله: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات.

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبداً وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

قال ابن منظور رحمه الله: من راقب الله أحسن عمله.

قال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال رجل لوُهَيب بن الوَرْد رحمه الله: عظني؟ قال: اتق أن يكون الله أهون الناظرين إليك.

وقال بعضهم: ليس الخائف من بكى فعصر عينيه، إنما الخائف من ترك ما اشتهى من الحرام إذا قدر عليه.

قال ابن رجب: فتقوى الله في السر، هي علامة كمال الإيمان، ولها تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبها الثناء في قلوب المؤمنين.
قال أبو الدرداء: ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله، فيلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين.
وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السر، فيصبح وعليه مذلته.
وقال غيره: إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك الذنب عليه.
قال ابن القيم: وكان شجاع الكرماني يقول: من عمَّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه عن الشهوات، واعتاد أكل الحلال؛ لم تخط له فراسة، وكان شجاع هذا لا تخطئ له فراسة.

فائدة : ٥

الموجب لخشية الله في السر والعلانية أمور:

منها: قوة الإيمان بوعده ووعيده على المعاصي.

ومنها: النظر في شدة بطشه وانتقامه، وقوته وقهره، وذلك يوجب للعبد ترك التعرض لمخالفته، كما قال الحسن: ابن آدم، هل لك طاقة بمحاربة الله، فإن من عصاه فقد حاربه.

ومنها: قوة المراقبة له، والعلم بأنه شاهد ورقيب على قلوب عباده وأعمالهم، وأنه مع عباده حيث كانوا، كما دل القرآن على ذلك في مواضع كقوله تعالى (... إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا) وقال تعالى (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ).
قال بعض السلف: خف الله على قدر قدرته عليك واستحيي منه على قدر قربه منك.
وقال بعضهم لمن استوصاه: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك.
دخل بعضهم غيضة ذات شجر، فقال: لو خلوت ها هنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفاً بصوت ملأ الغيضة (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ).

فائدة : ٦

الحديث دليل على أن الحسنات يذهبن السيئات .
لقوله (وأتبع السيئة الحسنة تمحها).
قال ابن رجب: فإنه لما كان العبد مأموراً بالتقوى في السر والعلانية مع أنه لابد أن يقع منه أحياناً تفريط في التقوى، إما بترك بعض المأمورات، أو بارتكاب بعض المحظورات، أمره أن يفعل ما يمحو به هذه السيئة، وهي أن يتبعها بالحسنة وقد قال تعالى (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ).
وفي الصحيحين عن ابن مسعود (أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلة، ثم أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فسكت النبي ﷺ حتى نزلت هذه الآية، فدعاه فقرأها عليه، فقال رجل: هذا له خاصة؟ قال: بل للناس عامة) متفق عليه.
وقد وصى الله المتقين في كتابه بمثل ما وصى به النبي ﷺ في هذه الوصية في قوله تعالى (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ).
ومعنى (ذكروا الله) أي: ذكروا عظمته وشدة بطشه وانتقامه، وما توعد به على المعصية من العقاب، فيوجب ذلك لهم الرجوع في الحال والاستغفار وترك الإصرار. (ابن رجب)

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الأسباب العشر التي تندفع بها عقوبة السيئات فقال: والمؤمن إذا فعل سيئة فإن عقوبتها تندفع عنه بعشرة أسباب: أن يتوب فيتوب الله عليه، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، أو يستغفر فيغفر له، أو يعمل حسنات تمحوها فإن الحسنات يذهبن السيئات.

قال الشيخ ابن سعدي -رحمه الله-: ... ثم لما كان العبد لا بد أن يحْصُل منه تقصير في حقوق التقوى وواجباتها أمر ﷺ بما يدفع ذلك ويمحوه، وهو أن يُتْبِع الحسنة السيئة، (والحسنة) اسم جامع لكل ما يُقرب إلى الله تعالى، وأعظم الحسنات الدافعة للسيئات: التوبة النصوح، والاستغفار والإنابة إلى الله، بذكره وحبِّه، وخوفه ورجائه، والطمع فيه، وفي فضله كل وقت، ومن ذلك: الكفارات المالية والبدنية التي حددها الشارع.

ومن الحسنات التي تدفع السيئات: العفو عن الناس، والإحسان إلى الخلق من الآدميين وغيرهم، وتفريج الكربات، والتيسير على المعسرين، وإزالة الضرر والمشقة عن جميع العالمين، قال تعالى (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) وقال ﷺ (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بينهن ما اجتُنبت الكبائر) وكم في النصوص من ترتيب المغفرة على كثير من الطاعات.

ومما يُكفِّر الله به الخطايا: المصائب؛ فإنه لا يصيب المؤمن من هَمٍّ ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يُشاكها، إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه، وهي إما فوات محبوب، أو حصول مكروه بدني أو قلبي، أو مالي، داخلي أو خارجي، لكن المصائب بغير فعل العبد، فلهذا أمره بما هو من فعله؛ وهو أن يُتبع السيئة الحسنة . (بهجة قلوب الأبرار)

فائدة : ٧

الحديث حث على مخالقة الناس بخلق حسن.

لقوله (وخالق الناس بخلق حسن) .

والخلق الحسن ذو أهمية بالغة ، لأن الله -عز وجل- أمر به نبيه الكريم، وأثنى عليه به، وعظّم شأنه الرسول الأمين ﷺ .

قال الله تعالى (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ).

وقال تعالى (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم).

قال ابن رجب رحمه الله: هذا من خصال التقوى، ولا تتم التقوى إلا به، وإنما أفرد بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوى هي القيام بحق الله دون حقوق عباده ... إلى أن قال: والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جداً، ولا يقوى عليه إلا الكمل من الأنبياء والصديقين.

فائدة : ٨

فضائل حسن الخلق :

أولاً: أنه من أسباب دخول الجنة.

فقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الجنة فقال (تقوى الله وحسن الخلق). رواه الترمذي

ثانياً: أنه أثقل شيء في الميزان.

قال ﷺ (ما من شيء أثقل في الميزان يوم القيامة من حسن الخلق) رواه الترمذي .

ثالثاً: أن حسن الخلق من كمال الإيمان.

قال ﷺ (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) رواه أحمد .

رابعاً: أن النبي ﷺ حصر دعوته في حسن الخلق.

قال ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه أحمد .

خامساً: يدرك المؤمن بحسن خلقه درجة الصائم القائم.

قال ﷺ (إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) رواه أبو داود .

سادساً: بيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه.

قال ﷺ (أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه) رواه أبو داود .

زعيم: ضامن.

سابعاً: أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ صاحب الخلق الحسن.

قال ﷺ (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً) رواه الترمذي .

ثامناً: جعله من خصال التقوى.

قال تعالى (... أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين).

تاسعاً : خير الناس أحسنهم خلقاً .

عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرو قال (لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاحِشًا، وَلاَ مُتَفَحِّشًا وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاَقًا).

عاشراً : كان النبي ﷺ يدعو به.

كان ﷺ يقول في استفتاحه لصلاة الليل (واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت. ...).

الحادي عشر : الخلق الحسن من أسباب النجاة من النار.

عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (ألا أخبركم بمن يحرم على النار؟ على كُلِّ قريب هيّن سهل) رواه الترمذي.

الثاني عشر : ويحصل بالخلق الحسن: جوامع الخيرات والبركات.

قال النبي ﷺ (البر حسن الخلق) رواه مسلم.

والخلق الحسن من أعظم الأساليب التي تجذب الناس إلى الإسلام، والهداية، والاستقامة.

ولهذا من تتبَّع سيرة المصطفى ﷺ وجد أنه كان يلازم الخلق الحسن في سائر أحواله وخاصة في دعوته إلى الله تعالى، فأقبل الناس ودخلوا في دين الله أفواجاً بفضل الله تعالى ثم بفضل حسن خلقه ﷺ فكم دخل في الإسلام بسبب خلقه العظيم.

فهذا يُسلم ويقول (والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحبَّ الوجوه كلها إلي).

وذاك يقول (اللَّهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً) تأثر بعفو النبي ﷺ ولم يتركه على تحجيره رحمة الله التي وسعت كل شيء، بل قال له (لقد تحجَّرت واسعاً).

والآخر يقول (فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه).

والرابع يقول (يا قومي أسلموا فإن محمداً يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة).

قال الحسن: حسن الخلق: الكرم، والبذلة، والاحتمال.

وقال ابن المبارك: هو بسط الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى.

وسئل سلام بن أبي مطيع عن حسن الخلق فأنشد شعراً فقال:

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله.

ولو لم يكن في كفه غيرُ روحهِ ... لجاد بها فليتق اللهَ سائلُه.

هو البحرُ من أي النواحي أتيتَه ... فلجته المعروفُ والجودُ ساحلُه .

وقال الشاعر:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

قال ابن القيم: حسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا يتصوّر قيام ساقِه إلا عليها: الصبر، والعفّة، والشجاعة، والعدل، ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة.

١٩-عَنْ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : كُنتُ خَلفَ النَّبيِّ ﷺ فقال (يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكُ كَلماتٍ : احفَظِ الله يَحْفَظْكَ ، احفَظِ الله تَجِدْهُ تجاهَكَ ، إذا سَأَلْت فاسألِ الله ، وإذا استَعَنْتَ فاستَعِنْ باللهِ ، واعلم أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمعت على أنْ ينفعوك بشيءٍ ، لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ قد كَتَبَهُ الله لكَ ، وإنِ اجتمعوا على أنْ يَضرُّوكَ بشيءٍ ، لم يضرُّوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبهُ الله عليكَ ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ) رواه الترمذيُّ ، وقال : حديثٌ حسنَ صَحيحٌ .

وفي رواية غير التِّرمذي (احفظ الله تجده أمامَك ، تَعرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاء يَعْرِفْك في الشِّدَّةِ ، واعلَمْ أنَّ ما أخطَأَكَ لم يَكُن لِيُصِيبَكَ ، وما أصابَكَ لم يَكُن ليُخطِئَكَ ، واعلَمْ أنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبرِ ، وأنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وأنَّ معَ العُسْرِ يُسراً) .

==========

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث .

قال النووي رحمه الله: هذا حديث عظيم الموقع .

وقال ابن رجب : وهذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهمِّ أمور الدين ، حتى قال بعض العلماء : تدبرتُ هذا الحديثَ ، فأدهشني وكِدتُ أطيشُ ، فوا أسفى من الجهل بهذا الحديث ، وقِلَّةِ التفهم لمعناه .

فائدة : ٢

قوله ﷺ (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْك) أي: أن من حفظ الله وذلك بإقامة أوامره وترك نواهيه حفظه الله في الدنيا والآخرة، ويحفظه في صحة بدنه وقوته وعقله وماله.

أمثلة لحفظ الله لمن حفظه:

كان العبد الصالح أبو الطيب الطبري رحمه الله، قد جاوز المائة، وهو متمتع بعقله وقوته وكافة حواسه، حتى أنه سافر ذات مرة مع رفقة له، فلما اقتربت السفينة من الشاطئ وثب منها إلى الأرض وثبة شديدة، عجز عنها بقية الذين كانوا معه على السفينة، فاستغرب بعضهم هذه القوة الجسدية التي منحها الله إياه مع كبر سنه وشيخوخته، فقال لهم الطبري: هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.

وكان العبد الصالح شيبان الراعي رحمه الله، يرعى غنماً له في البرية، فإذا جاءت الجمعة خط عليها خطاً، ثم ذهب وشهد الجمعة والخطبة مع جماعة المسلمين، ثم عاد إليها، فيجدها كما هي لم تتحرك منها شيء، ولم تجاوز الخط منها أي غنمة، فسبحان الحافظ المعين.

وقال عروة بن الزبير: بلغت أسماء بنت أبي بكر مائة سنة لم يسقط لها سن ولم ينكر لها عقل.

⋆ وقد يحفظ الله العبد بصلاحه في ولده وولد ولده:

كما قيل في قوله تعالى (وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً) إنهما حفظا بصلاح أبيهما.

قال محمد بن المنكدر: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وقريته التي هو فيها، والدويرات التي حولها، فما يزالون في حفظ الله وستر.

⋆ ومن أنواع حفظ الله لمن حفظه في دنياه: أن يحفظه من شر كل من يريده بأذى من الجن والإنس.

كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً) قالت عائشة: يكفيه غم الدنيا وهمها.

وكتبت عائشة إلى معاوية: إن اتقيت الله كفاك الناس، وإن اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئاً.

كتب بعض السلف إلى أخيه: فإنه من اتقى الله فقد حفظ نفسه، ومن ضيع تقواه فقد ضيع نفسه، والله الغني عنه.

قال ابن رجب: ومن عجيب حفظ الله لمن حفظه أن يجعل الحيوانات المؤذية بالطبع حافظة له من الأذى:

كما جرى لسفينة مولى النبي ﷺ حيث كسر به المركب وخرج إلى جزيرة فرأى الأسد، فجعل يمشي معه حتى دله على الطريق، فلما أوقفه عليها جعل يهمهم كأنه يودعه ثم رجع عنه.

وكان العبد الصالح إبراهيم بن أدهم نائماً ذات مرة في بستان، فجاءته حية في فمها نرجس، فما زالت تذب عنه الحيات التي تريد به سوءاً وتدافع عنه، حتى استيقظ من نومه.

قال مسروق بن الأجدع: من راقب الله في خطرات قلبه، عصمه الله في حركات جوارحه.

وقال سعيد بن المسيب لابنه: لأزيدن في صلاتي من أجلك رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية: وكان أبوهما صالحاً.

⋆ ومن أعظم الحفظ حفظه تعالى لعبده في دينه، فيحفظ عليه دينه وإيمانه في حياته من الشبهات المردية والشهوات المحرمة، ويحفظ عليه دينه عند موته، فيتوفاه على الإسلام.

ثبت في الصحيحين من حديث البراء أن النبي ﷺ علمه أن يقول عند منامه (اللهم إن قبضت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين).

وفي حديث عمر عن النبي ﷺ أنه علمه أن يقول (اللهم احفظني بالإسلام قائماً، واحفظني بالإسلام قاعداً، واحفظني بالإسلام راقداً) رواه ابن حبان.

وكان النبي ﷺ إذا ودّع من يريد السفر يقول له: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك.

وكان عمر يقول في خطبته: اللهم اعصمنا بحفظك، وثبتنا على أمرك.

وهذا كما حفظ يوسف عليه السلام قال (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فمن أخلص لله خلصه الله من السوء والفحشاء منها من حيث لا يشعر، وحال بينه وبين أسباب المعاصي المهلكة.

وسمع عمر رجلاً يقول: اللهم إنك تحول بين المرء وقلبه، فحُل بيني وبين معاصيك، فأعجب ذلك عمر ودعا له بخير.

راود رجل امرأة عن نفسها وأمرها بغلق الأبواب ففعلت، وقالت له: قد بقي باب واحد، قال: وأي باب هو؟ قالت: الباب الذي بيننا وبين الله، فلم يتعرض لها.

وراود رجل أعرابية، قال لها: ما يرانا إلا الكوكب، قالت: فأين مكوكبها؟

وهذا كله من ألطاف الله وحيلولته بين العبد ومعصيته.

⋆ ومن أنواع حفظ الله لعبده في دينه: أن العبد قد يسعى في سبب من أسباب الدنيا، إما بالولايات أو التجارات أو غير ذلك، فيحول الله بينه وبين ما أراده لما يعلم له من الخيرة في ذلك وهو لا يشعر مع كراهته لذلك.

وأعجب من هذا أن العبد قد يطلب باباً من أبواب الطاعات، ولا يكون فيه خيرة، فيحول الله بينه وبينه صيانة له وهو لا يشعر.
وكان بعض السلف يدور على المجالس ويقول: من أحب أن تدوم له العافية فليتق الله.
وقال بعض السلف: من حفظ الله فقد حفظ نفسه.

فائدة : ٣

أن من لم يحفظ الله لم يحفظه الله.
قال تعالى (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).
وقال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ).

فائدة : ٤

قوله ﷺ **(احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ)** أي: من حفظ حدود الله وراعى حقوقه، وجد الله معه في جميع الأحوال، يحوطه وينصره ويحفظه ويوفقه ويؤيده ويسدده، فإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وهو تعالى مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.
كتب بعض السلف إلى أخ له: أما بعد، فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟ والسلام.

فائدة : ٥

قوله ﷺ **(إِذَا سَأَلْت فَاسْأَلْ اللَّهَ)** هذا أمر بإفراد الله عز وجل بالسؤال ونهي عن سؤال غيره من الخلق.
وقد أمر الله بسؤاله فقال (واسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ).
وفي الترمذي عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه).
واستحق الغضب لأمرين:
الأول: لأنه ترك محبوباً لله، فإن الله يحب أن يسأل، ذكر ذلك المناوي.
والثاني: لأن ترْك الدعاء دليل على الاستغناء عن الله، ذكر ذلك المباركفوي.
وفي النهي عن سؤال المخلوق أحاديث كثيرة أيضاً، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئاً منهم: أبو بكر، وأبو ذر، وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته فلا يسأل أحداً أن يناوله.
واعلم أن سؤال الله تعالى دون خلقه هو المتعين عقلاً وشرعاً وذلك من وجوه متعددة:
منها: أن السؤال فيه بذل لماء الوجه وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده، وهذا هو حقيقة العبادة التي يختص بها الإله الحق.
كان الإمام أحمد يقول في دعائه: اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك فصنه عن المسألة لغيرك.
ولهذا كان عقوبة من أكثر المسألة بغير حاجة أن يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم كما ثبت في الصحيحين، لأنه أذهب عز وجهه وصيانته وماءه في الدنيا، فأذهب الله من وجهه في الآخرة جماله وبهاءه الحسي، فيصير عظماً بغير لحم، ويذهب جماله وبهاؤه المعنوي، فلا يبقى له عند الله وجاهة.
ومنها: أن في سؤال الله عبودية عظيمة، لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج، وفي سؤال المخلوق ظلم، لأن المخلوق عاجز عن جلب النفع لنفسه ودفع الضر عنها، فكيف يقدر على ذلك لغيره.
قال بعض السلف: إني لأستحي من الله أن أسأله الدنيا وهو يملكها فكيف أسألها ممن لا يملكها؟ يعني المخلوق.

ومنها: أن الله يحب أن يُسأل، ويغضب على من لا يسأل، فإنه سبحانه يريد من عباده أن يرغبوا إليه ويسألوه ويدعوه ويفتقروا إليه، ويحب الملحين في الدعاء، والمخلوق غالباً يكره أن يُسأل لفقره وعجزه.

قال أبو العتاهية:

الله يغضب إن تركتَ سؤاله ... وبُنيّ آدم حين يسأل يغضب

فاجعل سؤالك للإله فإنما ... في فضل نعمة ربنا نتقلب.

قال ابن تيمية: سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد:

الأولى: مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي نوع من الشرك.

والثانية: مفسدة إيذاء المسؤول وهي نوع من ظلم الخلق.

والثالثة: فيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس، فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة.

فائدة : ٦

قوله ﷺ **(وَإِذَا اسْتَعَنْت فَاسْتَعِنْ بِاَللَّهِ)** .

أرشد ﷺ بالاستعانة بالله بعد حفظه لحدود الله والقيام بدعائه.

وهذا منتزع من قوله تعالى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وهي كلمة عظيمة جامعة يقال: إن سر الكتب الإلهية كلها ترجع إليها وتدور عليها.

وفي استعانة الله فائدتان:

إحداهما: أن العبد عاجز عن الاستقلال بنفسه في عمل الطاعات.

والثانية: أنه لا معين له على مصالح دينه ودنياه إلا الله، فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.

وفي الحديث (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز).

وكان ﷺ يقول في خطبته ويعلم أصحابه أن يقولوا (الحمد لله نستعينه ونستهديه).

وأمر معاذ بن جبل أن لا يدع في دبر كل صلاة أن يقول: (اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).

فائدة :

قوله ﷺ (وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوك بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوك إلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَك، وَإِنْ اجْتَمَعُوا ...) .

يريد بذلك أن ما يصيب العبد مما يضره أو ينفعه في دنياه فكله مقدر عليه، ولا يمكن أن يصيبه ما لم يكتب له ولم يُقدَّر عليه ولو اجتهد على ذلك الخلق كلهم جميعاً وقد دل القرآن أيضاً على مثل هذا:

كما قال تعالى (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا).

وقال تعالى (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا).

وقال سبحانه (قلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ).

قال ابن رجب: واعلم أن مدار هذه الوصية على هذا الأصل، وما ذكر قبله وبعده فهو متفرع عليه وراجع إليه، فإن العبد إذا علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر، وأن اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة، علم حينئذ أن الله وحده هو الضار النافع، المعطي المانع، فأوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل، وإفراده بالسؤال والتضرع والابتهال، وإفراده أيضاً بالعبادة والطاعة، لأن المعبود إنما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار، ولهذا ذم الله سبحانه من يعبد ما لا ينفع

ولا يضر ولا يغني عن عابده شيئاً، وأيضاً فكثير ممن لا يحقق الإيمان في قلبه يقدّم طاعة مخلوق على طاعة الله رجاء نفعه أو دفعاً لضره، فإذا تحقق العبد تفرد الله وحده بالنفع والضر وبالعطاء والمنع، أوجب ذلك إفراده بالطاعة والعبادة، ويقدم طاعته على طاعة الخلق كلهم جميعاً، كما يوجب ذلك أيضاً إفراده سبحانه بالاستعانة به والطلب منه.

فائدة : ٧

قوله ﷺ **(تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفُك فِي الشِّدَّةِ)** .

يعني أن العبد إذا اتقى الله، وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفه إليه في الرخاء، فنجّاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه ومحبته له وإجابته لدعائه.

فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته.

لأن معرفة الله لعبده نوعان:

الأولى: معرفة عامة، وهي علمه سبحانه بعباده، واطّلاعه على ما أسروه وما أعلنوه.

كما قال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ).

وقال تعالى (هو أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ).

والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي محبته لعبده، وتقريبَه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ...).

قال الضحاك: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، وإن يونس عليه السلام كان يذكر الله كثيراً، فلما وقع في بطن الحوت قال الله (فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ. لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)، وإن فرعون كان طاغياً ناسياً لذكر الله، فلما أدركه الغرق، قال: آمنت، فقال الله (آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).

لما هرب الحسن البصري دخل إلى بيت حبيب أبي محمد، فقال له حبيب: يا أبا سعيد، أليس بينك وبين ربك ما تدعوه، فيسترك مِن هؤلاء؟ ادخل البيت، فدخل، ودخل الشُّرط على أثره، فلم يروه، فذُكر ذلك للحجاج، فقال: بل كان في البيت، إلا أنّ الله طمس أعينهم فلم يروه.

وخرج الترمذي من حديث أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد، فليكثر الدعاء في الرخاء).

قال رجل لأبي الدرداء أوصني؟ فقال: اذكر الله في السراء يذكرك في الضراء.

وعنه أنه قال: ادعُ الله في يوم سرّائك لعله أن يستجيب لك في يوم ضرائك.

فائدة : ٨

قوله ﷺ **(احفظ الله يحفظك)** .

ومن أعظم ما يجب حفظه من أوامر الله:

أولاً: الصلاة.

قال تعالى (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ).

ثانياً: الطهارة.

قال ﷺ (ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن) رواه أحمد.

ثالثاً: الأيْمان.

قال تعالى (وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ).

رابعاً: حفظ الرأس والبطن.

قال ﷺ (الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، وتحفظ البطن وما حوى) رواه الترمذي

خامساً: حفظ الفرج.

قال تعالى (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ).

فائدة : ٩

أن الجزاء من جنس العمل، فمن حفظ الله حفظه الله، وهذه قاعدة شرعية جاءت نصوص كثيرة تدل عليها:

قال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ).

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ).

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ).

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم.

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك).

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد.

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه.

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود.

وقال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود.

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود.

فائدة : ١٠

قوله (**وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ**) .

يشمل النصر في الجهادين، جهاد العدو الظاهر (وهو جهاد الكفار) وجهاد العدو الباطن (وهو جهاد النفس والهوى)، فمن صبر فيهما، نُصِر وظفر بعدوهِ، ومن لم يصبر فيهما وجَزِع، قهِرَ وصار أسيراً لعدوه أو قتيلاً له.

قال تعالى (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ).

قال عمر لأشياخ من بني عبس: بم قاتلتم الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم كما صبروا لنا.

وقال بعض السلف: كلنا يكره الموت، وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر.

وقال بعض العلماء: الشجاعة صبر ساعة.

قال أبو الطيب المكي: اعلم أن الصبر سبب دخول الجنة، وسبب النجاة من النار، لأنه جاء في الخبر (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات) فيحتاج المؤمن إلى صبر على المكاره ليدخل الجنة، وإلى صبر عن الشهوات لينجو من النار.

وقال في مقام آخر: واعلم أن كثرة معاصي العباد في شيئين: قلة الصبر عما يحبون، وقلة الصبر على ما يكرهون.

فائدة : ١١

قوله (وَأَنْ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

فيه البشارة العظيمة بأن تفريج الكربات وإزالة الشدائد مقرون بالكرب، فكلما كرب الإنسان فرج الله عنه. ويشهد لهذا:

قوله تعالى (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا).

وقوله تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا).

وقوله تعالى (حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ).

قال ابن رجب رحمه الله: وكم قص سبحانه من قصص تفريج كربات أنبيائه عند تناهي الكرب، كإنجاء نوح ومن معه في الفلك، وإنجاء إبراهيم من النار، وفدائه لولده الذي أمر بذبحه، وإنجاء موسى وقومه من اليم، وإغراق عدوهم.

وقال رحمه الله: ومن لطائف اقتران الفرج بالكرب واليُسر بالعسر: أن الكربَ إذا اشتد وعظُمَ وتناهي، حصل للعبد الإياس من كشفه من جهة المخلوقين، وتعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلبُ بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ).

قال الفضيل: لو يئست من الخلق حتى لا تريد منهم شيئاً، لأعطاك مولاك كل ما تريد.

فائدة : ١٢

فوائد البلايا والمصائب:

منها: تكفير الخطايا بها، والثواب على الصبر عليها.

ومنها: تذكر العبد بذنوبه، فربما تاب ورجع منها.

ومنها: انكسار العبد لله عز وجل وذله له.

ومنها: أنها توجب للعبد الرجوع بقلبه إلى الله تعالى، والوقوف ببابه والتضرع له والاستكانة.

ومنها: أن البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى مخلوق ويوجب له الإقبال على الخالق وحده.

وقد حكى الله عن المشركين إخلاص الدعاء له عند الشدائد، فكيف بالمؤمن.

فالبلاء يوجب للعبد تحقيق التوحيد بقلبه، وذلك أعلى المقامات وأشرف الدرجات.

فائدة : ١٣

وجوب الرضا بالقضاء والقدر والإيمان بهما.

فائدة : ١٤

أن بعد كل كرب فرَجًا، وبعد كل عسرٍ يسرًا.

فائدة : ١٥

لن يصيب الإنسان إلا ما كتب الله له.

فائدة : ١٦

الأعمال الصالحة ترفع البلاء.

٢٠-عَنْ أبي مَسعودٍ البَدريّ ﷺ، قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ (إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلام النُّبُوَّةِ الأُولى : إذا لَمْ تَستَحْيِ ، فاصْنَعْ ما شِئْتَ) رَواهُ البُخاريُّ .

==========

(**عَنْ أبي مَسعودٍ البَدريّ**) الصحابي الجليل .

(**إنَّ مِمَّا أدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلام النُّبُوَّةِ الأُولى**) أي : أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين ، وأن الناس تداولوه بينهم ، وتوارثوه عنهم قرناً بعد قرن .

قال ابن حجر -رحمه الله- أي: إنه مما نَدَبَ إليه الأنبياء، ولم يُنْسَخ فيما نُسِخَ من شرائعهم؛ لأنه أمرٌ أطبقت عليه العقول.

وقال السيوطي -رحمه الله- قوله (من كلام النُّبُوَّة الأُولى) أي: مما اتفق عليه الأنبياء، ولم يُنْسَخ في شريعة؛ لأنه أمرٌ أطبقت العقول على حسنه .

(**إذا لَمْ تَستَحْيِ ، فاصْنَعْ ما شِئْتَ**) سيأتي معناها إن شاء الله .

فائدة : ١

معنى الحديث :

قال الخطابي : معنى قوله (النُّبُوَّة الأُولى) أن الحياء لم يَزَلْ أمرُه ثابتًا، واستعمالُه واجبًا منذ زمان النُّبُوَّة الأُولى، وأنه ما من نبي إلَّا وقد ندب إلى الحياء، وبعث عليه، وأنه لم يُنْسَخ فيما نُسِخَ من شرائعهم، ولم يُبَدَّل فيما بُدِّلَ منها؛ وذلك أنه أمر قد عُلِمَ صوابُه، وبان فضله، واتفقت العقول على حُسْنه، وما كان هذا صفته لم يَجُزْ عليه النسخ والتبديل.

وقال ابن رجب -رحمه الله- يُشِير إلى أن هذا مأثور عن الأنبياء المتقدمين، وأن الناس تداولوه بينهم، وتوارثوه عنهم قرنًا بعد قرن، وهذا يدل على أن النُّبُوَّة المتقدمة جاءت بهذا الكلام، وأنه اشتهر بين الناس، حتى وصل إلى أول هذه الأمة : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت .

وقال ابن الملك -رحمه الله- في إضافة الكلام إلى النُّبُوَّة: إشعارٌ بأن هذا الكلامَ من نتائج الوحي، وفي التقييد بـ(الأُولى): إشارةٌ بأن الحياءَ كان مندوبًا إليه في الأولِين، لم يَجْرِ عليه النسخُ من شرائعهم.

فائدة : ٢

معنى قوله (**إذا لَمْ تَستَحْيِ ، فاصْنَعْ ما شِئْتَ**) .

قال ابن القيم : في معناه قولان :

أحدهما: أنه أمر تهديد ، ومعناه الخبر : أي من لم يستح صنعَ ما شاء .

والثانية: أنه أمر إباحة، أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله، فإن كان مما لا يستحيَى منه فافعله، والأول أصح وهو قول الأكثرين.

وقال الخطابي -رحمه الله- لفظه لفظ أمرٍ، ومعناه الخبر، يقول: إذا لم يكن لك حياءٌ يمنعك من القبيح صنعت ما شئت، يريد ما تأمرك به النفس، وتحملك عليه مما لا تُحْمَد عاقبته، وحقيقته: من لم يستحِ صنع ما شاء.

وقال ابن حجر -رحمه الله- أيضًا قوله (فاصنع ما شئت) قال الخطابي: الحكمة في التعبير بلفظ الأمر دون الخبر في الحديث: أن الذي يكفُّ الإنسان عن مُوَاقَعة الشر هو الحياء، فإذا تركه صار كالمأمور طبعًا بارتكاب كل شر.

الخلاصة :

أنَّ من لم يستحي صنع ما شاء، فإنَّ المانعَ من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياءٌ، انهمك في كُلِّ فحشاء ومنكر، وما يمتنع من مثله من له حياء .

فائدة : ٣

فهذا الحديث يدل : على أَنَّهُ إذا لَمَ يَكُنْ لَكَ حَياءٌ يَمنَعُكَ مِنَ القَبَائحِ، فَافعَلْ مَا شِئتَ فَإنَّكَ مُحَاسبٌ عَليهَا يَومَ تُبلى الفَضَائحُ، وَذَلِكَ مِثلُ قَولِهِ تَعَالى: (اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)، وَكَقولِه سُبحَانَهُ: (فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ)، يَعني: فَسَوفُ تُحَاسبُونَ عَلى العَملِ السيءِ والشِّركِ يَومَ القِيامةِ.

فَإنَّ الحَيَاءَ إذا ذَهَبَ نُزِعَتْ الأَقنِعَةُ والبَرَاقِعُ، وظَهَرَتْ مَعَادِنُ النَّاسِ عَلى الحَقَائقِ، وَبَانَ مَا كَانَ يَسترُهُ الحَيَاءُ مِنَ البَوائقِ، عِندَهَا لا تَسلْ عَن فَسَادِ الأَفرادِ والمجتَمَعاتِ، فَيَكونُ القَبرُ خَيراً مِن تِلكَ السَّنَواتِ الخَدَّاعَاتِ، وَصَدَقَ القَائلُ:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي *** وَلَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

فَلَا وَاَللَّهِ مَا فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ *** وَلَا الدُّنْيَا إِذَا ذَهَبَ الْحَيَاءُ

يَعِيشُ الْمَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيْرٍ *** وَيَبْقَى الْعُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ .

فمن نزع منه الحياء فعل ما يشاء.

قال الشاعر:

إذا قلّ ماء الوجه قل حياؤه ... فلا خير في وجه إذا قل ماؤه .

حياءك فاحفظه عليك فإنما ... يدل على وجه الكريم حياؤه .

قال ابن عبد البر –رحمه الله – ... فإن من لم يكن له حياء يحجزه عن محارم الله تعالى، فسواء عليه فعل الكبائر منها والصغائر .

وقال ابن عثيمين : أن الذي لا يستحي يصنع ما يشاء ولا يبالي بالناس .

قال الفضيل : خمس من علامات الشقوة : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

قال سليمان : إذا أراد الله بعبد هلاكاً نزع منه الحياء ، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتاً ممقتاً .

فائدة : ٤

فضل الحياء ، وأنه سبب لمنع القبيح وفعل الجميل .

قال ابن حجر –رحمه الله– الحياء: خُلق يبعث صاحبه على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق .

قال الخطابي: ومعنى قوله (الحياء شعبة من الإيمان) أن الحياء يقطع صاحبه عن المعاصي ويحجزه عنها فصار بذلك من الإيمان.

وقال السفيري: إنما أفرد ﷺ هذه الخصلة من خصال الإيمان في هذا الحديث وخصها بالذكر دون غيرها من باقي شعب الإيمان، لأن الحياء كالداعي إلى باقي الشعب، فإن صاحب الحياء يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر، فلما كان الحياء كالسبب لفعل باقي الشعب خص بالذكر ولم يذكر غيره معه.

وقال ابن رجب في قوله ﷺ (الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ) فَإِنَّهُ يَكُفُّ عَنِ ارْتِكَابِ الْقَبَائِحِ وَدَنَاءَةِ الْأَخْلَاقِ، وَيَحُثُّ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا، فَهُوَ مِنْ خِصَالِ الْإِيمَانِ بِهَذَا الِاعْتِبَار.

وقال ابن بطال: معناه أن الحياء من أسباب الإيمان وأخلاق أهله. وذلك أنه لما كان الحياء يمنع من الفواحش، ويحمل على الصبر والخير كما يمنع الإيمان صاحبه من الفجور، ويقيده عن المعاصي ويحمله على الطاعة صار كالإيمان لمساواته له في ذلك، وإن كان الحياء غريزة والإيمان فعل المؤمن فاشتبها من هذه الجهة.

فائدة : ٥

فضائل الحياء:

أنه من علامات الإيمان.

لحديث ابن عمر . قال : قال ﷺ (... دعه فإن الحياء من الإيمان).

وهو شعبة من شعب الإيمان.

عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (لِإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ) متفق عليه.

الحياء خير كله.

لحديث عمران . قال : قال ﷺ (الحياء خير كله) رواه مسلم .

والحياء أبهى زينة.

عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه، ولا كان الحياء في شيء قط إلا زانه) رواه الترمذي.

والحياء من صفات الرب.

عن يعلى بن أمية قال: قال رسول الله ﷺ (إن الله تعالى حيي ستير يحب الحياء والستر) رواه أبو داود.

والحياء خلق يحبه الله.

للحديث السابق (يحب الحياء ...) .

والحياء خلق الإسلام.

عن زيد بن طلحة قال: قال رسول الله ﷺ (إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَخُلُقُ الإِسْلاَمِ الْحَيَاءُ) رواه مالك.

الحياء مانع من فعل القبيح.

لقوله ﷺ (إذا لم تستح فاصنع ما شئت).

والحياء خلق نبوي.

لحديث أبي سَعِيدٍ قال (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا) رواه البخاري .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مِنْ سُنَنِ الْمُرْسَلِينَ: الْحَيَاءُ وَالْحِلْمُ، وَالْحِجَامَةُ، وَالتَّعَطُّرُ، وَالنِّكَاح) رواه الترمذي.

الحياء يدخل الجنة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (الْحَيَاءُ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ وَالْجَفَاءُ فِي النَّار) رواه الترمذي.

فائدة : ٦

قال ابن رجب: والحياء نوعان:

أحدهما: غريزي، وهو خلقٌ يمنحه الله تعالى العبد، ويجبله عليه، فيكفه عن ارتكاب القبائح والرذائل، ويحثه على فعل الجميل، وهو من أعلى مواهب الله تعالى للعبد، فهذا من الإيمان باعتبار أنه يؤثر ما يؤثره الإيمان من فعل الجميل، والكف عن القبيح، وربما ارتقى صاحبه بعده إلى درجة الإيمان، فهو وسيلة إليه، كما قال عمر: من استحيى اختفى، ومن اختفى اتقى، ومن اتقى وقيَ،

وقال بعض التابعين: تركت الذنوب حياء أربعين سنة، ثم أدركني الورع، وقال ابن سمعون: رأيت المعاصي نذالة، فتركتها مروءة فاستحالت ديانة.

والنوع الثاني: أن يكون مكتسباً ... إلى أن قال: وقد يتولد الحياء من الله من مطالعة النعم، فيستحيي العبد من الله أن يستعين بنعمته على معاصيه، فهذا كله من أعلى خصال الإيمان.

فائدة : ٧

اتفاق النبوات على فعل الخير .

فائدة : ٨

فضل التخلق بأخلاق الأنبياء .

فائدة : ٩

الحث على الحياء ، وأن كله خير .

فائدة : ١٠

قال ابن رجب رحمه الله : إن الحياء الممدوح في كلام النبي ﷺ إنما يريد به الخلق الذي يحث على فعل الجميل وترك القبيح ، فأما الضعف والعجز الذي يوجب التقصير في شيء من حقوق الله أو حقوق عباده فليس هو من الحياء فإنما هو ضعف وخور وعجز ومهانة .

فائدة : ١١

أن الحياء مانع من الأفعال القبيحة .

فائدة : ١٢

أن لإسلام يدعو إلى الفضائل ويمنع من الرذائل .

٢١-عَنْ سُفيانَ بن عبدِ اللهِ ﷺ، قالَ : قُلتُ : يا رَسولَ اللهِ ، قُلْ لي في الإسلام قولاً لا أسألُ عَنْهُ أحداً غَيرَكَ ، قال (قُلْ : آمَنْتُ باللهِ ، ثمَّ استقِمْ) رواهُ مسلم .

==========

(**قُلْ لي في الإسْلامِ قَولاً**) أي : قولاً جامعاً لمعاني الدين .

(**لا أسألُ عَنْهُ أحداً غَيرَكَ**) **قال القرطبي** : أي عَلِّمني قولًا جامعًا لمعاني الإسلام، واضحًا في نفسه، بحيث لا يحتاج إلى تفسير غيرك، أعمل عليه، وأكتفي به؛ وهذا نحو مما قاله له الآخر : علمني شيئًا أعيش به في الناس، ولا تُكثر عليَّ فأنسى ، فقال : لا تغضب .

(**قُلْ : آمَنْتُ بِاللهِ**) أي : الإيمان الكامل الذي يشمل اعتقاد القلب وقول اللسان وعمل الجوارح .

(**ثُمَّ استَقِمْ**) الاستقامة هي المداومة على فعل ما ينبغي فعله وترك ما ينبغي تركه وقيل : هي طلب إقامة النفس على الصراط المستقيم ، والصراط المستقيم هو الإسلام كما ثبت تفسيره من حديث ثوبان عند أحمد بسند جيد .

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث :

قال القاضي عياض رحمه الله: هذا من جوامع كلمه ﷺ ، وهو مطابق لقوله تعالى (الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا) .

وقال ابن الملقن : وهو على اختصاره مِن أجمع الأحاديث لأصول الإسلام؛ إذ الإسلام توحيد وطاعة، فالتوحيد حاصل بـ «آمنتُ بالله».

وقال القرطبي : فيه دليلٌ على أنَّ النبي ﷺ أُوتي جوامع الكلِم، واختُصر له القول اختصارًا؛ كما قال النبي ﷺ مخبرًا بذلك عن نفسه؛ فإنه عليه السلام جمع لهذا السائل في هاتين الكلمتين معاني الإسلام والإيمان كلها .

وقال المناوي : وهذا من بدائع جوامع الكلم؛ فقد جمعَتا جميع معاني الإيمان والإسلام اعتقادًا وقولاً وعملاً؛ إذ الإسلام توحيد، وهو حاصل بالجملة الأولى والطاعة بسائر أنواعها في ضِمن الثانية .

فائدة : ٢

قال السعدي رحمه الله: فهذا الرجل طلب من النبي ﷺ كلامًا جامعًا للخير، نافعًا موصلًا صاحبه إلى الفلاح، فأمره النبي ﷺ بالإيمان بالله، الذي يشمل ما يجب اعتقاده من عقائد الإيمان وأصوله، وما يتبع ذلك من أعمال القلوب، والانقياد والاستسلام لله باطنًا وظاهرًا، ثم الدوام على ذلك، والاستقامة عليه حتى الممات.

فائدة : ٣

الحديث دليل على وجوب الإيمان بالله تعالى .

والمراد بالإيمان هو: الشرعي الذي هو التصديق بالجنان، والقول باللسان، والعمل بالأركان، فيكون معنى قوله: «فاستقم» أي: ثُمّ دُم على ذلك الإيمان حتى تموت عليه.

فائدة : ٤

الحديث دليل على أن أول واجب على الإنسان هو الإيمان بالله تعالى .

فائدة :

الحديث دليل على فضل من آمن ثم استقام على طاعة الله واستمر على ذلك .

فائدة : ٥

فضائل الاستقامة بعد الإيمان :

أولاً : تتنزل عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة وعدم الخوف .

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ) .

قوله (تتنزل عليهم الملائكة) **قيل** : عند الاحتضار ، **وقيل** : يوم خروجهم من قبورهم ، **وقيل** : يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث، واختار هذا القول ابن كثير وقال: وهذا القول يجمع الأقوال كلها وهو حسن جداً .

ثانياً : الاستقامة سبب لبسط الرزق .

قال تعالى (وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً) .

قال القرطبي : أي لو آمن هؤلاء الكفار لوسعنا عليهم في الدنيا وبسطنا لهم في الرزق .

ثالثاً : أن الله أمر نبيه بالاستقامة .

قال تعالى (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ) .

كان الحسن يقول : اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة .

فائدة : ٦

أنه لا يلزم من الاستقامة عدم الوقوع بشيء من المعاصي فقد قال تعالى (فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ) .

قال ابن رجب : فيه إشارة إلى أنه لا بد من التقصير في الاستقامة المأمور بها ، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كما قال النبي ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها) وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لن يستطيعوا الاستقامة حق الاستقامة، ففي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (سددوا وقاربوا) فالسداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد، والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه، ولكن بشرط أن يكون مصمماً على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون مقاربته عن عمد .

وقد قال ﷺ (استقيموا ولن تحصوا) فيه بيان المأمور به شرعاً بقوله (استقميوا) وبيان الواقع قدراً بقوله (ولن تحصوا) .

فإن المتعبد لله لا يخلو من تفريط في طاعة أو المواقعة لمعصية، ولما كان هذا هو الأمر الذي طبع عليه ابن ادم، فإن الشرع أمر بالقصد والتسديد والمقاربة فقال ﷺ (سددوا وقاربوا) وعند البخاري (القصد القصد تبلغوا) .

فائدة : ٧

وأعظم ما ينبغي مراعاته في الاستقامة استقامة القلب، فهو ملك الأعضاء وهي جنوده، فإذا استقام الملك استقامت جنوده ورعاياه.

وكذلك مما ينبغي مراعاة استقامته بعد القلب اللسان ، فإنه ترجمان القلب .

ولذلك قال ﷺ (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، تقول: إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا). رواه الترمذي

وجاء في حديث الباب في رواية للترمذي: قلت يا رسول الله! ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه .

وقد جاء في مسند الإمام أحمد عن أنس . أن النبي ﷺ قال (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه).

فائدة : ٨

أسباب الاستقامة :

أولاً : دعاء الله بالثبات .

كان ﷺ يقول (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك) .

ثانياً : قراءة القرآن وتدبره .

قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) .

فائدة : ٩

أن من استقام في هذه الدار على الهداية ، وفقه الله تعالى للهداية يوم القيامة .

قال ابن القيم رحمه الله : فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط.

فائدة : ١٠

أنه لا خوف ولا حزن على المستقيم .

فائدة : ١١

الحث على مجالسة ومصاحبة أهل الاستقامة .

٢٢–عَنْ جَابِرِ بنِ عبدِ الله – رضي الله عنهما – (أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : أرأيتَ إذا صَلَّيتُ المكتُوبَاتِ ، وصُمْتُ رَمَضانَ ، وأَحْلَلْتُ الحَلالَ ، وحَرَّمْتُ الحَرامَ ، ولم أزِدْ على ذلك شيئاً ، أأدخُلِ الجَنَّةَ ؟ قالَ : نَعَمْ) رواهُ مسلم .

==========

(**أن رجلاً**) قيل هو النعمان بن قوقل الخزاعي ، وقيل غيره .

(**أرأيت**) أخبرني .

(**أحللت الحلال**) أي : اعتقدت حله .

(**وحَرَّمْتُ الحَرامَ**) أي : أي : اعتقدت حرمته مع اجتنابه ، والحرام : هو ما يثاب تاركه امتثالاً ويعاقب فاعله .

فائدة : ١

السؤال عن العلم سبب من أسباب تحصيله .

فائدة : ٢

الحرص على السؤال عن كل شيء يؤدي إلى الجنة .

فائدة : ٣

أن الجنة هي الهدف لكل مسلم .

فائدة : ٤

أن من أدى الواجبات وترك المحرمات فإن ذلك سبب لدخول الجنة . وقد جاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى

ففي الصحيحين عن طلحة بن عبيد الله (أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ثائر الرأس ، فقال : يا رسول الله ! أخبرني ماذا فرض الله عليّ من الصلاة ، فقال : الصلوات الخمس إلا أن تطوع ، فقال : أخبرني بما فرض الله عليّ من الصيام ؟ فقال : شهر رمضان إلا أن تطوع ، فقال : أخبرني بما فرض الله علي من الزكاة ؟ فأخبره رسول الله ﷺ بشرائع الإسلام ، فقال : والذي أكرمك بالحق لا أتطوع شيئاً ولا أنقص مما فرض الله عليّ شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : دخل الجنة إن صدق) متفق عليه .

وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة . (أن أعرابياً قال يا رسول الله ! دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤدي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان ، قال : والذي بعثك بالحق ، لا أزيد على هذا شيئاً أبداً ولا أنقص منه ، فلما ولى ، قال النبي ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا) .

وخرج الترمذي من حديث أبي أمامة . قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول (أيها الناس ! اتقوا الله ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأدوا زكاة أموالكم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم) .

لكن قد يوجد موانع من دخول الجنة :

كقوله ﷺ (لا يدخل الجنة قاطع رحم) متفق عليه .

وقوله (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) رواه مسلم .

فائدة : ٥

أن الإنسان إذا اقتصر على الأركان ولم يفعل المستحبات فلا لوم عليه .

فائدة : ٦

عظم منزلة هذه العبادات : الصلاة ، والصيام .

وقال ﷺ (قال تعالى : وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه) رواه البخاري

فائدة : ٧

أن الفرائض أفضل من النوافل كما يدل عليه الحديث السابق .

فائدة : ٨

لم يذكر النبي ﷺ في هذا الحديث الزكاة ولا الحج ؟ والجواب :

لم يذكر الزكاة ، لعل النبي ﷺ علم من حاله أنه فقير ولا يستطيع عليها ، وأما الحج ، فلعله لم يفرض بعد .

فائدة : ٩

أن فعل الواجب وترك المحرم وقاية من النار .

فائدة : ١٠

حكمة الله في التشريع ، حيث أن من الأعمال ما هو واجب ومنها ما هو مستحب .

فائدة : ١١

وجوب امتثال أمر الله والانتهاء عن نهيه .

فائدة : ١٢

أن التحليل والتحريم حق من حقوق الله تعالى .

فائدة : ١٣

على المسلم أن يسأل أهل العلم عن أمور دينه التي يجهلها .

٢٣-عَنْ أبي مالِكٍ الأشْعَرِيّ ﷺ قالَ : قالَ رسولُ الله ﷺ (الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ ، والحَمْدُ للهِ تَملأُ المِيزانَ ، وسُبحَانَ اللهِ ، والحَمْدُ للهِ ، تَملآنِ أو تَملأُ ما بَيْنَ السَّماواتِ والأرْضِ ، والصَّلاةُ نورٌ ، والصَّدقَةُ بُرهَانٌ ، والصَّبْرُ ضِياءٌ ، والقُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عَلَيكَ ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو ، فَبائعٌ نَفْسَهُ ، فمُعْتِقُها أو مُوبِقها) رواه مسلم .

==========

(**الطهور شطر الإيمان**) المراد بالطهور هنا الحسي وهو الوضوء، سمي طهوراً لأنه يطهر الأعضاء .

واختلف في معنى (الإيمان):

فقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة، كما قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي: صلاتكم.

ويكون المعنى: الطهور (برفع الحدث للصلاة) هو نصف الصلاة، لأنه مفتاحها التي تفتتح به.

وقيل: الإيمان هنا على ظاهره وأنه شرائع الدين، وذلك لأن خصال الإيمان قسمان، ظاهرة وباطنة، والطهور من الخصال الظاهرة، والتوحيد من الخصال الباطنة، ولذلك قرن النبي ﷺ بينهما في حديث عمر في قوله ﷺ (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله ... ، فهذا الحديث جامع بين فعل الوضوء وبين توحيد الله بالإتيان بكلمة التوحيد.

وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالطهارة هنا الطهارة المعنوية التي هي طهارة القلب من نجاسته كالشرك والبدعة والمعصية.
والشطر الآخر تحليته بما فيه قوته وصلاحه مما أمر الله بفعله.
والصحيح القول الأول، وأن المراد بالطهارة هنا الطهارة الحسية، وعلى هذا عمل الحفاظ كالإمام مسلم، والنسائي، وابن ماجه، فإنهم أدخلوا هذا الحديث في كتاب الطهارة، وأن المراد بالإيمان هنا شرائع الدين.
(والحَمدُ لله) الحمد: الثناء على الله مع المحبة والتعظيم.
(يغْدُو) أي: يذهب باكراً.
(فَمُعْتِقُهَا) أي: مخلصها.
(أَوْ مُوبِقُها) أي: مهلكها.
فائدة : ١
منزلة هذا الحديث :
قال النووي رحمه الله: هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام، قد اشتمل على مهمات من قواعد الإسلام .
وقال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام؛ لاشتماله على مهمات من قواعد الدين، بل نصف الدين، باعتبار ما قررناه في شطر الإيمان، بل على الدين جميعه، باعتبار ما قررناه من الصبر، وفي معتقها وموبقها .
فائدة : ٢
معنى (الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ) .
المراد بالطهور هنا الحسي وهو الوضوء، سمي طهوراً لأنه يطهر الأعضاء .
واختلف في معنى (الإيمان):
فقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة .
كما قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ) أي: صلاتكم.
ويكون المعنى: الطهور (برفع الحدث للصلاة) هو نصف الصلاة، لأنه مفتاحها التي تفتتح به.
وقيل: الإيمان هنا على ظاهره وأنه شرائع الدين .
وذلك لأن خصال الإيمان قسمان، ظاهرة وباطنة، والطهور من الخصال الظاهرة، والتوحيد من الخصال الباطنة، ولذلك قرن النبي ﷺ بينهما في حديث عمر في قوله ﷺ (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله ... ، فهذا الحديث جامع بين فعل الوضوء وبين توحيد الله بالإتيان بكلمة التوحيد.
وذهب بعض العلماء إلى أن المراد بالطهارة هنا الطهارة المعنوية التي هي طهارة القلب من نجاسته كالشرك والبدعة والمعصية.
والشطر الآخر تحليته بما فيه قوته وصلاحه مما أمر الله بفعله.
والصحيح القول الأول، وأن المراد بالطهارة هنا الطهارة الحسية، وعلى هذا عمل الحفاظ كالإمام مسلم، والنسائي، وابن ماجه، فإنهم أدخلوا هذا الحديث في كتاب الطهارة، وأن المراد بالإيمان هنا شرائع الدين.
قال ابن رجب -رحمه الله- الصحيح الذي عليه الأكثرون: أنَّ المراد بالطهور ها هنا: التطهير بالماء من الأحداث، وكذلك بدأ مسلم بتخريجه في أبواب الوضوء، وكذلك خرَّجه النسائي وابن ماجه وغيرهما

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (الطهور) يعني بذلك طهارة الإنسان (شطر الإيمان) أي: نصف الإيمان؛ وذلك لأن الإيمان تَخْلِيَة وتَحْلِية، أي: تبرُّؤ من الشرك والفسوق، تبرُّؤ من المشركين والفُساق بحسب ما معهم من الفسق، فهو تخلٍّ، وهذا هو الطهور، أنْ يتطهر الإنسان طهارة حِسية ومعنوية من كل ما فيه أذى، فلهذا جعله النبي ﷺ شطر الإيمان .

فائدة : ٣

الحديث دليل على فضل الوضوء، وقد جاءت أحاديث كثيرة في فضله:

أ-حديث الباب (الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ) .

ب-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيَامَةِ غُرّاً مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ) متفق عليه

ج-وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاَهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ) رواه مسلم .

د-وعن عُثْمَانَ . قال : سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ (مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ) رواه مسلم .

هـ-وعنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ). رواه مسلم

و-وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ (تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ) رواه مسلم .

ز- وعن عُثْمَانَ قَالَ (وَاللَّهِ لأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثاً لَوْلاَ آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا حَدَّثْتُكُمْ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لاَ يَتَوَضَّأُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ فَيُحْسِنُ الْوُضُوءَ فَيُصَلِّى صَلاَةً إِلاَّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلاَةِ الَّتِي تَلِيهَا) رواه مسلم .

ح-وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ . قال ﷺ (مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهُ ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّى رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلٌ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ إِلاَّ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ) رواه مسلم .

ط-وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ». قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ) رواه مسلم .

ض-وعن ثوبان أن النبي ﷺ قال (استقيموا تُفلحوا وخيرُ أعمالكم الصلاة ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمنٌ) رواه ابن ماجه .

فائدة : ٤

الحديث دليل على الفضل العظيم لكلمة : الحمد لله .

لقوله (والحَمْدُ للهِ تَملأُ الميزانَ) .

وقد اختلف في معنى [تملأ الميزان]:

فقيل: أنه ضرب مثل، وأن المعنى لو كان الحمد جسماً لملأ الميزان.

وقيل: بل الله عز وجل يمثل أعمال بني آدم وأقوالهم صوراً ترى يوم القيامة وتوزن.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله (والحمد لله تملأ الميزان) قد تقدَّم معنى الحمد، وأنه راجع إلى الثناء على مُثنًى ما بأوصاف كماله، فإذا حمد الله حامدٌ مستحضرًا معنى الحمد في قلبه، امتلأ ميزانه من الحسنات. .

وقال النووي –رحمه الله– أما قوله ﷺ (والحمد لله تملأ الميزان) فمعناه: عِظَمُ أجرها، وأنه يملأ الميزان، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسُّنة على وزن الأعمال، وثقل الموازين وخِفَّتها .

وقال الطوفي –رحمه الله–قوله (والحمد لله تملأ الميزان) أي: ثوابها يملأ الميزان خيرًا، ولعل السبب المناسب لذلك أنَّ اللام في الحمد لله للاستغراق، وجِنس الحمد الَّذي يجب لله –عز وجل– ويستحقه يملأ الميزان، فكذا ثوابه.

تنبيه :

والله عز وجل يحمد على كمال صفاته، وعلى كمال إنعامه:

الحمد على كمال صفاته:

كقوله تعالى (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً) وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ).

الحمد على إنعامه:

كقوله ﷺ (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشربَ الشربة فيحمده عليها) رواه مسلم.

فائدة : ٥

الحديث دليل على فضل قول: سبحان الله والحمد لله، حيث أنهما تملآن ما بين السماء والأرض .

وقد جاء في رواية النسائي وابن ماجه (والتسبيح والتكبير ملءُ السماء والأرض) وهذه الرواية أشبه بالصواب، ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم، وهو كذلك رواية ودراية، أما من جهة الرواية فلأن رواية النسائي وابن ماجه أصح طريقاً وأوثق رجالاً، وأما الدراية، فلأن ملء الميزان أعظم من ملء ما بين السماء والأرض، فكيف تكون الحمد لله على الانفراد في الجملة المتقدمة في الحديث (تملأ الميزان) ثم إذا اقترنت بالتسبيح تملأ ما بين السماء والأرض الذي هو أقل من ملءِ الميزان، فالأظهر تقديم الرواية الأخرى التي وقعت عند النسائي وابن ماجه (والتسبيح والتكبير).

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل هذه الكلمات:

قال ﷺ (لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) رواه مسلم .

وقال ﷺ (كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ). متفق عليه

وقال ﷺ (أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت). رواه أحمد

وقال ﷺ (لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال يا محمد: أقرئ أمتك مني السلام ... وأنها قيعان، وأن الجنة طيبة التربة ... وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (أفضل الكلام ما اصطفى الله لملائكته: سبحان الله وبحمده) رواه مسلم.

وقال ﷺ (من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد) رواه مسلم.

فائدة : ٦

الحديث دليل على فضل الصلاة وأنها نور.

قال تعالى (إن الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

فهي نور في الدنيا كما قال تعالى (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ).

وهي نور يوم القيامة، قال ﷺ (من حافظ عليها [أي الصلاة] كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبي بن خلف) رواه أبو داود.

قال النووي –رحمه الله– قوله (الصلاة نور) معناه: أنها تمنع من المعاصي وتنهى عن الفحشاء والمنكر وتهدي إلى الصواب، كما أن النور يستضاء به .

وقيل معناه: أنه يكون أجرها نورًا لصاحبها يوم القيامة .

وقيل: لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف وانشراح القلب ومكاشفات الحقائق؛ لفراغ القلب فيها وإقباله إلى الله تعالى بظاهره وباطنه، وقد قال الله تعالى (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) .

وقيل : معناه أنها تكون نورًا ظاهرًا على وجهه يوم القيامة ويكون في الدنيا أيضًا على وجهه البهاء بخلاف من لم يصلِّ. (شرح مسلم)

وقال ابن الجوزي –رحمه الله– قوله (والصلاةُ نورٌ) أي: بين يدي المصلي في سُبُله .

وقال المظهري –رحمه الله– قوله (والصلاة نور) يعني: تكون له نورًا في القبر، وفي ظلمة القيامة، حتى توصله إلى الجنة، ويحصل للمصلي في الدنيا ضياء في وجهه، وتُخرجه من ظلمة المعاصي، قال الله تعالى (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ) .

وقال الصنعاني –رحمه الله– (والصلاة نور) يحتمل نور لصاحبها في الدنيا؛ لِمَا يَجعل الله على ذاته من الوضاءة في الوجه والنور في القلب والبصيرة فيهتدي إلى كل خير، ويلتهي عن كل فحشاء، ويحتمل أنها نور له في الآخرة يهديه طريق النجاة في الصراط، ومواقف القيامة كما يشير إليه قوله تعالى (يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ) الآية، وأحاديث إعطاء المؤمن النور يوم القيامة على قدر إيمانه تشهد لذلك، أو المراد أنها نور له في الدارين، ثم المراد الفريضة، والمراد منها ما أتم فاعلها أركانها وأذكارها، وهي التي تقول له: حفظك الله، لا التي تُلَفُّ ويُضرب بها وجهه .

فائدة : ٧

الحديث دليل على فضل الصبر .

لقوله (**والصبر ضياء**).

قال ابن رجب: ولما كان الصبر شاقاً على النفوس، يحتاج إلى مجاهدة النفس، وحبسها وكفها عما تهواه، كان ضياء، فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر.

وقال القرطبي : ... والأَولى أن يقال: إن الصبر في هذا الحديث غير الصوم، بل هو الصبر على العبادات والمشاق والمصائب، والصبر عن المخالفات والمنهيات، كاتباع هوى النفس والشهوات وغير ذلك، فمن كان صابرًا في تلك الأحوال، متثبتًا فيها، مقابِلًا لكل حال بما يليق به، ضاءت له عواقب أحواله، ووضحت له مصالح أعماله، فظفر بمطلوبه، وحصل له من الثواب على مرغوبه، كما قيل: فقلَّ مَن جد في أمر يطالبه *** واستعمل الصبر إلا فاز بالظَّفَرِ.

وقال البيضاوي –رحمه الله– (الصبر ضياء) تنكشف به الكربات، وتنقلع به الظلمات؛ إذ الصبر ثبات النفس على المكاره، وحبسها عن الشهوات، فمَن صبر على ما أصابه من مكروه –علمًا بأنه من قضاء الله وقدره– هان عليه ذلك، وكُفي عنه شره، وادُّخِر له أجره، ومَن اضطرب فيه وأكثر الجزع له، لم ينفع تعبه، ولم يدفع سعيه شيئًا من قدر الله، بل يتضاعف به همه، ويتحبط

به أجره، وكذا من صبر على مشاق التكاليف، والكف عن الملاهي والمحرمات، فاز في الدارين فوزًا عظيمًا، ومن استأثر الاستراحة، واتَّبع الهوى، فقد خسر خسرانًا مبينًا .

وقال فيصل ابن المبارك -رحمه الله- (والصبر ضياء) وهو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة؛ لأن الصبر لا يحصل إلا بمجاهدة النفس .

فائدة : ٨

فضائل الصبر :

أولاً: معية الله للصابرين.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).

ثانياً: محبة الله لهم.

قال تعالى (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ).

ثالثاً: إطلاق البشرى لهم.

قال تعالى (وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ).

رابعاً: إيجاب الجزاء على أحسن أعمالهم.

قال تعالى (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

خامساً: ضمان المدد والنصرة لهم.

قال تعالى (بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةُ مُسَوِّمِينَ).

سادساً: استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم.

قال تعالى (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً).

وقال تعالى (وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ. سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ).

سابعاً: حفظهم من كيد الأعداء.

قال تعالى (وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ).

ثامناً: سبب للحصول على درجة الإمامة في الدين.

قال تعالى (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ).

قال ابن تيمية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. ثم تلا هذه الآية (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون).

تاسعاً: أنه من أسباب النصر.

كما في حديث ابن عباس (واعلم أن النصر مع الصبر).

عاشراً: أمر الله به المؤمنين.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ).

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

الحادي عشر: الصبر ضياء.

كما في حديث الباب (والصبر ضياء).

الثاني عشر: أنه خير ما أعطي العبد.

قال ﷺ (وما أعطي أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر) رواه مسلم.

فائدة : ٩

الحديث دليل على فضل الصدقة .

لقوله (**والصدقة برهان**) .

أي : أنها دليل وبرهان على صحة إيمان صاحبها، والسبب في ذلك أن المال محبوب للنفوس، فإذا أنفقت منه فهذا دليل على صحة إيمانها بالله وتصديقها بوعده ووعيده.

قال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– قوله (والصدقة برهان) أي: على صحة إيمان المتصدق، أو على أنه ليس من المنافقين الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات، أو على صحة محبة المتصدِّق لله تعالى؛ ولما لديه من الثواب؛ إذ قد آثر محبة الله تعالى، وابتغاء ثوابه، على ما جُبل عليه من حب الذهب والفضة، حتى أخرجه لله تعالى .

وقال ابن رجب : فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان، وطيب النفس بها علامة على وجود حلاوة الإيمان وطعمه ... وسبب هذا أنَّ المالَ تحبُّه النُّفوسُ، وتبخَلُ به، فإذا سمحت بإخراجه لله –عز وجل– دلَّ ذلك على صحَّة إيمانها بالله ووعده ووعيده، ولهذا منعت العربُ الزكاة بعدَ النَّبيِّ ﷺ وقاتلهم الصدِّيقُ رضي الله عنه على منعها .

وقال الصنعاني –رحمه الله– فسَّر (أي ابن الأثير في النهاية) البرهان بالحجة والدليل، في أنها حجة لطالب الأجر؛ من أجل أنها فرض يجازي الله به وعليه انتهى. قلت: ويحتمل أن المراد أن إخراجها دليل على إيمان صاحبها، فإنه لا يَسمح بها إلا من وقَر إيمانه وقام عليه برهان ولذا قال تعالى (وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ) خصَّها من بين الواجبات؛ لشدة الحامل على عدم إخراجها وهو حب المال .

فائدة : ١٠

فضائل الصدقة :

أولاً: أنها برهان على صحة الإيمان.

كما في قال ﷺ (والصدقة برهان) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وأما الصدقة فهي برهان، ... فكذلك الصدقة برهان على صحة الإيمان.

ثانياً: أنها تطهير للنفس.

قال تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ).

ثالثاً: أنها تغفر الذنوب.

قال ﷺ (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) رواه الترمذي.

رابعاً: أن الصدقة تزيد المال.

قال ﷺ (ما نقصت صدقة من مال) رواه مسلم.

خامساً: أنها تظلل صاحبها يوم القيامة.

قال ﷺ (العبد في ظل صدقته يوم القيامة) رواه أحمد.

وقال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

سادساً: أنها وقاية النار.

قال ﷺ (اتقوا النار ولو بشق تمرة) متفق عليه.

وقال ﷺ للنساء (يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ وَأَكْثِرْنَ الِاسْتِغْفَارَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ) متفق عليه.

سابعاً: دعاء الملائكة.

كما قال ﷺ (ما من صباح إلا وينزل ملكا: يقول أحدهما اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً). متفق عليه

ثامناً: أن فيها علاجاً من الأمراض.

روي عنه ﷺ أنه قال (داووا مرضاكم بالصدقة).

قال ابن شقيق (سمعت ابن المبارك وسأله رجل: عن قرحةٍ خرجت في ركبته منذ سبع سنين، وقد عالجها بأنواع العلاج، وسأل الأطباء فلم ينتفع به، فقال: اذهب فأحفر بئراً في مكان حاجة إلى الماء، فإني أرجو أن ينبع هناك عين ويمسك عنك الدم، ففعل الرجل فبرأ).

تاسعاً: أن الله يدفع بالصدقة أنواعاً من البلاء.

كما في وصية يحيى عليه السلام لبني إسرائيل (وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير، ففدى نفسه منهم).

فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه. (الوابل الصيب)

عاشراً: أنه لا يبقى لصاحب المال من ماله إلا ما تصدق به.

كما في قوله تعالى (ومَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُم).

ولما سأل النبي ﷺ عائشة عن الشاة التي ذبحوها ما بقى منها: قالت: ما بقى منها إلا كتفها، قال (بقي كلها غير كتفها). رواه الترمذي

الحادي عشر: أن يضاعف للمتصدق أجره.

كما في قوله عز وجل (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيم).

وقال تعالى (مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون).

وقال تعالى (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ).

وقال ﷺ (إن الله يربي الصدقة كما يربي أحدكم فلوه) متفق عليه.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ – وَلاَ يَقْبَلُ اللَّهُ إِلاَّ الطَّيِّبَ – إِلاَّ أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) متفق عليه.

الثاني عشر: أن فيها انشراحاً للصدر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا، فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّيَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُوَ أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا) متفق عليه.

فالمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه، وانفسح بها صدره، فهو بمنزلة اتساع تلك الجبة عليه، فكلمَّا تصدَّق اتسع وانفسح وانشرح، وقوي فرحه، وعظم سروره، ولو لم يكن في الصَّدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبدُ حقيقياً بالاستكثار منها والمبادرة إليها وقد قال تعالى (ومَن يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المفْلِحُون).

الثالث عشر: الفضل الكبير.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَال (بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاَةٍ مِنَ الأَرْضِ فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ. فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ فَإِذَا شَرْجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ مَا اسْمُكَ قَالَ فُلاَنٌ. لِلاِسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ فَقَالَ لَهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُنِي عَنِ اسْمِي فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتاً فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ اسْقِ حَدِيقَةَ فُلاَنٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا قَالَ أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثاً وَأَرُدُّ فِيهَا ثُلُثَه) رواه مسلم.

الرابع عشر : صاحب الصدقة موعود بالخلف.

كما قال تعالى (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) أي يخلفه عليكم في الدنيا بالبذل، وفي الآخرة بالجزاء والثواب.

الخامس عشر : أنها إرغام للشيطان وحسن ظن بالله.

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

السادس عشر : لا حسد إلا لمن أنفق في وجوه الخير.

قال ﷺ (لاَ حَسَدَ إِلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهْوَ يَقْضِى بِهَا وَيُعَلِّمُهَا).

قال السمرقندي: عليك بالصدقة بما قلّ أو كثر، فإن في الصدقة عشر خصال محمودة خمس في الدنيا وخمس في الآخرة:

أما التي في الدنيا:

فأولها: تطهير المال كما قال النبي ﷺ (ألا إن البيع يحضره اللغو والحلف والكذب، فشوبوه بالصدقة).

والثاني: أن فيها تطهير البدن من الذنوب، كما قال الله تعالى (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ...).

والثالث: أن فيها دفع البلاء والأمراض، كما قال النبي ﷺ (داووا مرضاكم بالصدقة).

والرابع: أن فيها إدخال السرور على المساكين، وأفضل الأعمال إدخال السرور على المؤمنين.

والخامس: أن فيها بركة في المال وسعة في الرزق، كما قال تعالى (ومَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ).

وأما الخمس التي في الآخرة:

فأولها: أن تكون الصدقة ظلاً لصاحبها في شدة الحر.

والثاني: أن فيها خفة الحساب.

والثالث: أنها تثقل الميزان.

والرابع: جواز على الصراط.

والخامس: زيادة الدرجات في الجنة.

فائدة : ١١

من أقوال ابن القيم في الصدقة :

قال ابن القيم : فالصدقة لها تأثير عجيب في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجرٍ أو ظالمٍ، بل من كافر، فإن الله تعالى يدفع بها أنواعاً من البلاء، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض مقرون به لأنهم قد جربوه. (الوابل الصيب)

وقال رحمه الله : الصدقة والإحسان ما أمكنه فإن لذلك تأثيرا عجيبا في دفع البلاء ودفع العين وشر الحاسد ولو لم يكن في هذا إلا تجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به . ... فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق. (بدائع الفوائد)

وقال رحمه الله: والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه وانفسح بها صدره ... ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها . (الوابل الصيب)

وقال رحمه الله : وفى الصدقة فوائد ومنافع لا يحصيها الا الله : فمنها انها تقى مصارع السوء – وتدفع البلاء حتى انها لتدفع عن الظالم ، وتطفئ الخطيئة – وتحفظ المال – وتجلب الرزق – وتفرح القلب – وتوجب الثقة بالله وحسن الظن به – وترغم الشيطان – وتزكى النفس وتنميها – وتحبب العبد الى الله والى خلقه – وتستر عليه كل عيب – وتزيد في العمر – وتستجلب أدعية الناس ومحبتهم – وتدفع عن صاحبها عذاب القبر –وتكون عليه ظلا يوم القيامة – وتشفع له عند الله – وتهون عليه شدائد الدنيا والآخرة – وفوائدها ومنافعها أضعاف ذلك . (عدة الصابرين)

وقال رحمه الله: إن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالىٰ، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه .

فائدة : ١٢

الحديث دليل على إثبات الميزان، **وفيه مباحث:**

أولاً: تعريفه:

هو ميزان حقيقي له كفتان.

ثانياً: أدلة ثبوته.

قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وقال تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وحديث الباب (.. تملأ الميزان ..).

والحديث السابق (كلمتان ثقيلتان في الميزان ...).

ثالثاً: اختلف العلماء في الذي يوزن على أقوال:

القول الأول: أن الذي يوزن الأعمال نفسها.

وإلى هذا ذهب ابن حزم، والطيبي، وابن حجر.

قال ابن حجر: والصحيح أن الأعمال هي التي توزن.

أ- لحديث الباب (والحمد الله تملأ الميزان).

ب- ولحديث أبي هريرة. قال: قال ﷺ (كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان ... : سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) متفق عليه.

قالوا: هذان الحديثان صريحان في وزن الأعمال أنفسها.

ج- ولقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

القول الثاني: أن الذي يوزن العامل (أي: صاحب العمل).

أ- لحديث أبي هريرة. أن رسول الله ﷺ قال (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة) متفق عليه .

ب- ولقوله ﷺ في ابن مسعود (إن ساقيه أثقل من جبل أحد في الميزان) رواه أحمد.

القول الثالث: أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

وإلى هذا ذهب ابن عبد البر، والقرطبي.

لحديث البطاقة وفيه (... وتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء) رواه الترمذي.

القول الرابع: أن الجميع يوزن.

وإلى هذا ذهب ابن كثير، وابن أبي العز، وحافظ حكمي، وابن باز وغيرهم.

قال ابن أبي العز بعدما ساق بعض النصوص الواردة في ذلك: فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال.

وقال حافظ حكمي: الذي استظهر من النصوص -والله أعلم- أن العامل وعمله وصحيفة عمله كل ذلك يؤذن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن قد وردت بكل ذلك ولا منافاة بينها.

وقال الشيخ ابن باز: الجمع بين النصوص أنه لا منافاة بينها فالجميع يوزن، ولكن الاعتبار في الثقل والخفة يكون بالعمل نفسه لا بذات العامل ولا بالصحيفة.

وهذا القول هو الراجح.

رابعاً: كيف توزن الأعمال مع أنها أعراض، لأن الوزن يكون للأجسام؟

أجاب بعضهم: بأن الله تعالى يقلب الأعراض يوم القيامة أجساماً ثم توزن.

قال ابن كثير: قوله (والحمد لله تملأ الميزان) فيه دلالة على أن العمل نفسه وإن كان عرضاً قد قام بالفاعل، يحيله الله يوم القيامة فيجعله ذاتاً يوضع في الميزان.

وقال ابن أبي العز: فلا يلتفت إلى قول ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام، فإن الله يقلب الأعراض أجساماً.

خامساً: هل هو ميزان واحد أم متعدد؟

وردت نصوص تدل على أنه متعدد، كقوله تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ) وقوله تعالى (فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...).

ووردت نصوص بالإفراد، كقوله ﷺ (كلمتان ثقيلتان في الميزان).

والراجح أنه ميزان واحد، لكنه متعدد باعتبار الموزون.

سادساً: قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديره ليكون الجزاء بحسبها.

فائدة : ١٣

في قوله ﷺ (الصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء)

البرهان: هو الشعاع الذي يلي وجه الشمس محيطاً بقرصها.

والصبر ضياء: وهو النور الذي يكون معه حرارة وإشراق دون إحراق.

فالتمثيل لها بما مثلت به يراد به شيئان:

أحدهما: باعتبار تأثيرها بالروح. (محله الدنيا).

والثاني: باعتبار ما يكون لها من الجزاء. (محله الآخرة).

فائدة : ١٤

الحديث دليل على أن القرآن إما أن يكون حجة للإنسان أو حجة عليه.

يكون حجة للإنسان: إذا اتبع أوامره، وانتهى عند نواهيه، وعمل به وأقام حدوده.

ويكون حجة على الإنسان: إذا ترك أمره، ووقع في نواهيه وأعرض عنه.

قال تعالى (وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً).

قال ابن مسعود: القرآن شافع ومشفع، فمن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره قاده إلى النار.

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- قوله (والقرآن حُجة لك أو عليك) يعني: أنك إذا امتثلت أوامره، واجتنبت نواهيه كان حُجة لك في المواقف التي تُسأل فيها عنه، كمسألة الملكين في القبر، والمسألة عند الميزان، وفي عقبات الصراط، وإن لم تمتثل ذلك احتج به عليك، ويحتمل أن يراد به: أنَّ القرآن هو الذي يُنْتَهَى إليه عند التنازع في المباحث الشرعية، والوقائع الحكمية، فبه تستدل على صحة دعواك، وبه يستدل عليك خصمك.

وقال النووي -رحمه الله- أما قوله ﷺ (والقرآن حُجة لك أو عليك) فمعناه ظاهر، أي: تنتفع به إن تَلَوْتَه، وعملتَ به، وإلا فهو حجة عليك .

وقال البيضاوي -رحمه الله- (والقرآن حجة) لمن عمل به، يدل على فوزه ونجاته، وحُجة على من أعرض عنه، يدل على سوء مآبه.

فائدة : ١٥

التحذير من الإعراض عن القرآن.

فائدة : ١٦

أن كل إنسان إما ساعٍ في هلاك نفسه أو فكاكها.

فمن سعى في طاعة الله فقد باع نفسه لله، وأعتقها من عذابه، ومن سعى في معصية الله فقد باع نفسه بالهوان وأوبقها بالآثام الموجبة لغضب الله وعقابه.

قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالأسير يسعى في فكاك رقبته، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله.

وقال: ابن آدم! إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همك نفسك، فإنك لن تربح مثلها أبداً.

وقال أبو بكر بن عياش: قال لي رجل مرة وأنا شاب: خلّص رقبتك ما استطعت في الدنيا من رق الآخرة، فإن أسير الآخرة غير مفكوك أبداً، قال: فوالله ما نسيتها بعد.

وكان بعض السلف يبكي ويقول: ليس لي نفسان، إنما لي نفس واحدة، إذا ذهبت لم أجد أخرى.

قال الصنعاني -رحمه الله-قسَّمهم (أي: الغادِين) قسمين: فمنهم من باع نفسه من الله تعالى، بأن جعل تصرُّفه كله على وفق ما أمره الله به، فأعتقها من عذابه وغضبه، أو بائع نفسه من شهواته بحظوظ دنياه، فهذا بائع نفسه «موبقها» مهلكها .

فائدة : ١٧

الحث على مجاهدة النفس على العمل الصالح.

فائدة : ١٨

التحذير من الأعمال السيئة.

فائدة : ١٩

أن الأعمال الصالحة سبب للنجاة يوم القيامة لما فيها من نور وثقل في الميزان وبرهان لصاحبها.

فائدة : ٢٠

أن المسلم يتقرب إلى الله بجميع أنواع العبادة القولية، والبدنية، والمالية، والقلبية.

فائدة : ٢١

أن أعظم ما يزكي العبد: الصلاة والذكر لأنهما يحييان القلب ويقويان الصلة بالله.

فائدة : ٢٢

أن الإيمان الحقيقي تظهر آثاره على السلوك في النظافة، والعبادة، والصبر، والإنفاق.

فائدة : ٢٣

في الحديث ترغيب في محاسبة النفس هل عند الإنسان نور صلاة؟ وبرهان صدقة؟ وصبر على الطاعة؟

فائدة : ٢٤

أن الإسلام يربط الأعمال بالجزاء الأخروي كالميزان والنور والبرهان.

فائدة : ٢٥

أن المؤمن يحتاج إلى الصبر في كل مراحل حياته في الطاعة، وعن المعصية، وعلى البلاء.

فائدة : ٢٦

أن الأعمال اليسيرة قد تفوق الأعمال الكبيرة بالإخلاص.

فائدة : ٢٧

الحث على دوام ذكر الله لأن التسبيح والتحميد من الأذكار السهلة العظيمة الأجر.

فائدة : ٢٨

أن المال محبوب للنفوس وبذله لله علامة على قوة الإيمان.

فائدة : ٢٩

أن الأعمال القلبية عظيمة الأثر كالصبر والإخلاص واليقين .

فائدة : ٣٠

أن الصبر أشقُّ على النفس من كثير من الأعمال ولذلك عُبِّر عنه بالضياء لما فيه من معاناة ومجاهدة.

فائدة : ٣١

الجمع بين التسبيح والتحميد من أكمل الأذكار لأن فيه تنزيهًا لله وثناءً عليه.

فائدة : ٣٢

أن الحمد من أجلِّ أنواع الذكر لأنه يتضمن الثناء على الله مع المحبة والتعظيم.

فائدة : ٣٣

أن القرآن سيكون شاهدًا للعبد أو عليه

فائدة : ٣٤

فضل العمل بالقرآن ، فمن قرأه وعمل بأوامره كان القرآن حجة له يوم القيامة.

فائدة : ٣٥

التحذير من هجر القرآن ، فمن ترك العمل به أو خالفه كان حجة عليه.

فائدة : ٣٦

أن الناس متفاوتون في الانتفاع بالقرآن ، فمنهم من يهتدي به، ومنهم من يعرض عنه.

فائدة : ٣٧

أن الإنسان مسؤول عن وقته وعمله

فائدة : ٣٨

أن كل إنسان يسعى كل يوم ، فلا أحد يبقى بلا عمل أو مقصد.

فائدة : ٣٩

أن الدنيا دار عمل وسعي ، وليس فيها راحة دائمة.

فائدة : ٤٠

أن الناس قسمان إما ناجٍ بطاعة الله، أو هالك بالمعصية.

فائدة : ٤١

أن العبد يختار طريقه بنفسه فهو الذي يبيع نفسه لله أو للهوى والشيطان.

فائدة : ٤٢

فضل الطاعة لأنها سبب لعتق النفس من النار.

فائدة : ٤٣

التحذير من المعاصي ، لأنها سبب لهلاك النفس.

فائدة : ٤٤

أن المعاصي تستعبد صاحبها ، وقد تهلكه في الدنيا والآخرة.

فائدة : ٤٥

الحث على محاسبة النفس يوميًا ، فكل صباح بداية تجارة جديدة مع الله.

فائدة : ٤٦

أن الأعمال لها عواقب فإما نجاة وإما هلاك.

٢٤-عن أبي ذر جندب بن جُنادة ﷺ ، عن النَّبيّ ﷺ فيما يروي ، عن اللهِ تَبارَكَ وتعالى ، أنَّهُ قَال (يَا عِبَادي ، إنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسي وَجَعَلْتُهُ بيْنَكم مُحَرَّماً فَلا تَظَالَمُوا . يَا عِبَادي ، كُلُّكُمْ ضَالّ إلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاستَهدُوني أهْدِكُمْ . يَا عِبَادي ، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلاَّ مَنْ أطْعَمْتُهُ فَاستَطعِمُوني أُطْعِمْكُمْ . يَا عِبَادي ، كُلُّكُمْ عَارٍ إلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فاسْتَكْسُوني أكْسُكُمْ . يَا عِبَادي ، إنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيلِ وَالنَّهارِ وَأَنَا أغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً فَاسْتَغْفِرُوني أغْفِرْ لَكُمْ . يَا عِبَادي، إنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفعِي فَتَنْفَعُوني . يَا عِبَادي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذلِكَ في مُلكي شيئاً . يَا عِبَادي ، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذلِكَ من مُلكي شيئاً. يَا عِبَادي، لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجنَّكُمْ قَامُوا في صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَألُوني فَأعْطَيتُ كُلَّ إنْسَانٍ مَسْألَتَهُ مَا نَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كما يَنْقصُ المِخْيَطُ إذَا أُدْخِلَ البَحْرَ . يَا عِبَادي ، إنَّمَا هِيَ أعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أوَفِّيكُمْ إيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيراً فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَه) .

قَالَ سعيد : كَانَ أَبُو إدريس إذَا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثا عَلَى رُكبتيه . رواه مسلم .

وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، قَالَ : لَيْسَ لأهل الشام حديث أشرف من هَذَا الحديث .

==========

(**الظلم**) وضع الشيء في غير موضعه .

(**فاستهدو**ني) اطلبوا مني الهداية .

(**صعيد واحد**) أرض واحدة .

(**المخيط**) الإبرة .

(**أحصيها لكم**) أضبطها لكم .

فائدة :

منزلة هذا الحديث :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: هذا الحديث شريف القدر، عظيم المنزلة؛ ولهذا كان الإمام أحمد يقول: هو أشرف حديث لأهل الشام، وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدَّث به جثا على ركبتيه .

وقال المناوي -رحمه الله- هذا الحديث شريف القدر، عظيم المنزلة، جليل الموقع، جامع لفوائد شتى، قد تضمن من قواعد الدين العظيمة: من العلوم، والأعمال، والأصول، والفروع، وغير ذلك مما لا يحصره قلم، ولا يحصيه

فائدة :

الحديث دليل على عظيم رحمة الله بعباده ورفقه بهم حيث ناداهم بهذا اللفظ (يا عبادي) المشعر بالرحمة والرفق .

فائدة :

أن لفظ (يا عبادي) فيه تذكير للعباد بالحكمة التي من أجلها خلقوا وهي عبادة الله .

قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقد امتدح ربنا جل وعلا نبيه ﷺ وأثنى عليه ووصفه في أشرف مقاماته بوصف العبودية :

فقال سبحانه في الإسراء (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى) .

وفي مقام الدعوة قال سبحانه (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) .

وفي مقام التحدي قال سبحانه (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا) .

فائدة :

تحريم الظلم على الله ، مع قدرته سبحانه وتعالى عليه .

كما قال تعالى (وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَادِ) .

وقال تعالى (ومَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ) .

وقال تعالى (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) .

وقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً) الهضم : أن يُنقص من جزاء حسناته ، والظلم : أن يعاقب بذنوب غيره .

قال ابن رجب : وهو مما يدل على أن الله قادر على الظلم ولكنه لا يفعله فضلاً منه وجوداً ، وكرماً وإحساناً إلى عباده .

وقال الشيخ ابن عثيمين : وإنما قلنا مع قدرته عليه ، لأنه لو كان ممتنعاً على الله لم يكن ذلك مدحاً ولا ثناءً ، إذ لا يثنى على الفاعل إلا إذا كان يمكنه أن يفعل أو لا يفعل .

فائدة :

أن الله لا يظلم لكمال عدله ، وهكذا كل نفي يأتي في صفات الله تعالى في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت ضده .

كقوله تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) لكمال عدله .

وقوله تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه ، لا يعزب : لا يغيب .

وقوله (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) لكمال قيوميته وحياته .

فائدة :

تحريم الظلم بين الناس وذلك من وجهين :

الأول : أن الله عز وجل حرمه على نفسه ، فإذا كان محرماً على الله مع كمال قدرته وسعة ملكه فحرمته على العبد أولى لظهور عجزه ونقص ملكهِ .

والآخر : أن الله جعله بيننا محرماً ، فنهى عنه نهي تحريم .

والظلم ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : الشرك ، وهو أعظم الظلم .

قال تعالى عن لقمان (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق ، فعبده وتألهه ، فوضع الأشياء في غير موضعها ، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون كما قال تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

القسم الثاني : ظلم العبد نفسه بالمعاصي .

قال تعالى (فمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه) .

القسم الثالث : ظلم العباد بعضهم بعضاً ، وهو المذكور في هذا الحديث .

قال تعالى (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ) .

وهذا القسم هو المقصود بالحديث لقوله (فلا تظالموا) .

فائدة :

جاءت نصوص كثيرة تبين تحريم الظلم بين العباد :

ففي حديث الباب (فلا تظالموا) .

قال النووي –رحمه الله– المراد: لا يظلم بعضكم بعضًا، وهذا توكيد لقوله تعالى (يا عبادي) (وجعلتُه بينكم محرمًا) وزيادة تغليظ في تحريمه . (شرح مسلم)

وقال رسول الله ﷺ (إن الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه .

وقال ﷺ (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا). متفق عليه

وقال ﷺ (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين) متفق عليه .

وقالﷺ (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يأخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه ، فطرحت عليه) رواه البخاري .

والظلم ينقسم إلى قسمين :

أحدهما : منع ما يجب لهم من الحقوق وهو التفريط ، **والثاني** : فعل ما يضر به وهو العدوان .

٦– الحديث دليل على وجوب العدل في جميع الأمور . (وللعدل فضائل ستأتي إن شاء الله)

فائدة :

الحديث دليل على أن الإنسان ضال إلا من هداه الله — فالإضلال بيد الله، فمن أضله الله فلا هادي:

قال تعالى (فيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً).

وقال تعالى (وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

وقال تعالى (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً).

وفي الحديث القدسي (كلكم ضال إلا من هديته).

ويقول الرسول ﷺ (والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) متفق عليه.

قال الشنقيطي: وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ الْعَبْدَ يَنْبَغِي لَهُ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ وَلَا يُضِلَّهُ ; فَإِنَّ مَنْ هَدَاهُ اللَّهُ لَا يَضِلُّ، وَمَنْ أَضَلَّهُ لَا هَادِيَ لَهُ، وَلِذَا ذَكَرَ عَنِ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا.

وقال الشنقيطي أيضاً : قوله تعالى (أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ الله وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً).

أنكر تعالى في هذه الآية الكريمة على من أراد أن يهدي من أضله الله، وصرح فيها بأن من أضله الله لا يوجد سبيل إلى هداه، وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة كقوله (وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً أولئك الذين لَمْ يُرِدِ الله أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدنيا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرة عَذَابٌ عَظِيمٌ) وقوله (مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ) .

فائدة :

الحديث دليل على أن المهتدي من هداه الله.

قال تعالى (مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ) .

وقال تعالى (مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي) .

قال تعالى (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ).

وقال تعالى (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا).

وقال تعالى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ).

وقال تعالى (إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ).

وقال تعالى (قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ).

وقال تعالى عن أهل الإيمان يوم القيامة (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ).

فائدة :

يجب سؤال الله الهداية ، وقد أمرنا الله أن نسأله إياها في أعظم سورة .

قال تعالى (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) .

وكان رسول الله ﷺ يقول (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم .

وكان يقول أيضاً (اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم) .

وعلم الحسن أن يقول في الدعاء (اللهم اهدني فيمن هديت) .

وأمر علياً أن يسأل الله السداد والهدى .

قال ابن القيم : فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير والسلامة من كل شر .

فائدة :

يجب على المسلم أن يعمل بأسباب الهداية وأن يحرص عليها .

قال ابن القيم : ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجل المطالب، ونيله أشرف المواهب، علّم الله عباده سؤاله، وأمرهم أن يقدموا بين يده حمده والثناء عليه ، وتمجيده ، ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم ، فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم .

فائدة :

الحذر من الأسباب التي تعيق الإنسان عن الهداية .

قال ابن القيم : ولينظر إلى الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط، فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه .

فائدة :

قال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– وحكمة طلبه تعالى منا سؤاله الهداية: إظهار الافتقار والإذعان، والإعلام بأنه لو هداه قبل أن يسأله لربما قال (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) فيضلّ بذلك، فإذا سأل ربه فقد اعترف على نفسه بالعبودية، ولمولاه بالربوبية، وهذا مقامٌ شريفٌ، وشهودٌ منيف، لا يتفطَّن له إلا الموفَّقون، ولا يعلم قدر عظمته إلا العارفون .

فائدة :

بطلان قول من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟

لأن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاوناً وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه – مما نريده – كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدي لتفاصيله ، أمر يفوق الحصر .

فائدة :

قوله (... **كلكم جائع إلا من أطعمته**) .

هذا يقتضي غنى الله سبحانه وتعالى، وأن العباد كلهم مفتقرون إلى الله في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله، وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق، فإنه يُحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوْبَقَتْه خطاياه في الآخرة .

قال تعالى (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وقال تعالى (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً) .

وقال تعالى (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا) .

وقال تعالى (فابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ) .

وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل ، فقال لقومه (قال أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ . فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ) فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا ، وبمغفرة ذنوبه في الآخرة ، مستحق أن يتفرد بالإلهية والعبادة والسؤال والتضرع إليه والاستكانة له قال تعالى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون) .

فالناس غالبًا ما يعلِّقون طلب الرزق بالأسباب، وينسَون خالق الأسباب؛ وهو القائل (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

فائدة :

قال ابن تيمية –رحمه الله– أما قوله (كلُّكم جائع إلا من أطعمتُه..) فيقتضي أصلين عظيمين: أحدهما: وجوب التوكل على الله في الرزق المتضمن جلب المنفعة كالطعام ودفع المضرة كاللباس، وأنه لا يقدِر غير الله على الإطعام والكسوة قدرة مطلقة، وإنما القدرة التي تحصل لبعض العباد تكون على بعض أسباب ذلك، ولهذا قال (وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوف) وقال (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ) فذمَّ مَن يترك المأمور به اكتفاء بما يجري به القَدَر، ومن هنا يُعرف أن السبب المأمور به أو المباح لا ينافي وجوب التوكل على الله في وجود السبب، بل الحاجة والفقر إلى الله ثابتة مع فعل السبب؛ إذ ليس في المخلوقات ما هو وحده سبب تام لحصول المطلوب، ولهذا لا يجب أن تَقترن

الحوادث بما قد يجعل سببًا إلا بمشيئة الله تعالى، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فمن ظن الاستغناء بالسبب عن التوكل فقد ترك ما أوجب الله عليه من التوكل، وأخلَّ بواجب التوحيد، ولهذا يُخذل أمثال هؤلاء .

فائدة :

الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالح دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة .

وفي الحديث قال ﷺ (ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى يسأله شِسع نعله إذا انقطع) .

وقال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) رواه ابن ماجه .

واستحق الغضب لأمرين :

الأول : لأنه ترك محبوباً لله ، فإن الله يحب أن يسأل ، ذكر ذلك المناوي .

والثاني : لأنه ترْك الدعاء دليل على الاستغناء عن الله ، ذكر ذلك المباركفوي .

فائدة :

قوله (**فاستطعموني**) .

قال السندي –رحمه الله– (فاستطعموني) فاطلبوا مني الطعام (أُطْعِمْكم) ولا تطلبوه من غيري، فإن الغني الجواد لا يرضى أن يَسأل عبيدُه غيرَه. .

وقال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– (فاستطعموني) أي: سلوني واطلبوا مني الطعام، ولا يغرَّنَّ ذا الكثرة ما في يده، فإنه ليس بحوله وقوَّته، بل الله تعالى هو المتفضِّل به عليه، فينبغي له مع ذلك ألَّا يغفل عن سؤال الله تعالى إدامةَ نعمته عليه؛ لئلَّا تَنفر عنه فلا تعود إليه. .

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– قوله (استطعموني) يَشْمل سؤال الله –عزَّ وجلَّ– الطعام، ويشمل السعي في الرزق وابتغاء فضل الله –عزَّ وجلَّ– كما قال تعالى في سورة الجمعة (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) .

وقال ابن الملقن –رحمه الله– وفيه: تأديب للفقراء، أي: اطلبوا مني، فأنا الذي أطعمهم (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) فالرب –جلَّ جلاله– يسخِّر السحاب، ويسقي البلاد، ويحرك القلوب للإعطاء، ويحوج بعضًا إلى بعض للنفع، وتصرُّفه في عالَمِه عجيب يعجز عنه الفَطِنُ اللبيب. .

فائدة :

قوله (**كلكم عار إلا من كسوته**) .

قال ابن هبيرة : فيه من الفقه: أن الكِسَا من الله تعالى متنوعة، فقد يكسو من عري جسدًا، وقد يكسو بالستر الجميل.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– فمن حِكمته تعالى: أنَ جَعَلنا نخرج باديةً أبشارنا، باديةً جلودنا، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عورتنا حسًّا، كما أننا محتاجون إلى عملٍ صالح يستر عورتنا معنى؛ لأن التقوى لباس، كما قال تعالى (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ) فأنت انظر في نفسك تجد أنك محتاج إلى الكسوة الحسية؛ لأنك عارٍ، كذلك أيضًا محتاج إلى الكسوة المعنوية –وهي العمل الصالح–؛ حتى لا تكون عاريًا، ولهذا ذَكَر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه في المنام عاريًا فإنه يحتاج إلى كثرة الاستغفار؛ لأن هذا دليل على نقصان تقواه؛ فإن التقوى لباس .

وقال ابن رجب -رحمه الله- وهذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله تعالى في جلب مصالحهم، ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم، وأنَّ العباد لا يملكون لأنفسهم شيئًا من ذلك كله، وأنَّ من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا، ومن لم يتفضل الله عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته خطاياه في الآخرة.

فائدة :

إثبات غنى الله سبحانه وتعالى .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ) .

فائدة :

أن ابن آدم كثير الخطأ .

كما قال تعالى (وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) .

وقال ﷺ (كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون) رواه الترمذي .

وفي حديث الباب (.. إنكم تخطئون بالليل والنهار ..) .

فائدة :

كرم الله وإحسانه حيث دعا عباده – مع ظلمهم بالمعاصي والذنوب – إلى عفوه وغفرانه .

فقال تعالى (نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) .

وقال سبحانه(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

وقال سبحانه (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) .

فائدة :

وجوب الاستغفار من الذنوب كلها لقوله (فاستغفروني أغفر لكم) .

قال تعالى (وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ) .

وقال تعالى (وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

وقال سبحانه (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) .

وقال ﷺ (أني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة) رواه البخاري .

والاستغفار يكون على وجهين :

الوجه الأول : طلب المغفرة بلفظ : اللهم اغفر لي ، أو أستغفر الله .

الوجه الثاني : طلب المغفرة بالأعمال الصالحة التي تكون سبباً لذلك، فمن قال: سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفرت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر.

فائدة :

كمال سلطان الله وغناه عن خلقه لقوله عز وجل (إنكم لن تبلغوا ضري ... ولن تبلغوا نفعي) .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : وذلك لكمال سلطانه عز وجل وكمال غناه ، فكأنه تعالى قال : إنما طلبت منكم الاستغفار من الذنوب لا لحاجتي لذلك ولا لتضرري بمعاصيكم ولكن المصلحة لكم .

قال ابن رجب رحمه الله : يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً، فإن الله تعالى في نفسه غني حميد، لا حاجة له بطاعات العباد، ولا يعود نفعها إليه ، وإنما هم ينتفعون بها، ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها .

قال تعالى (وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً) .

وقال تعالى (وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً) .

وقال تعالى (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

والمعنى: أنه تعالى يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه، ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض، وطلبها حتى أعيي وأيس منها، واستسلم للموت، وأيس من الحياة، ثم غلبته عينه فنام، واستيقظ وهي قائمة عنده، وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه، وإنه إنما يعود نفعها إليهم دونه، ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده، ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم.

فائدة :

وقال ابن تيمية -رحمه الله- قوله (إنكم لن تبلغوا ضري ... ولن تبلغوا نفعي) .

بيَّنَ بذلك أنه ليس هو فيما يحسن به إليهم من إجابة الدعوات، وغُفران الزلات، بالمستعيض بذلك منهم جلب منفعة، أو دفع مضرة، كما هي عادة المخلوق الذي يُعطي غيره نفعًا؛ ليكافئه عليه بنفع، أو يدفع عنه ضررًا؛ ليتَّقِي بذلك ضرره، فقال: «إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني» فلست إذاً أَخَصُّكم بهداية المستهدي وكفاية المستكفي المستطعم والمستكسي بالذي أطلب أن تنفعوني، ولا أنا إذا غَفَرت خطاياكم بالليل والنهار أَتَّقِي بذلك أن تضروني، فإنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني، ولن تبلغوا ضري فتضروني؛ إذ هم عاجزون عن ذلك، بل ما يَقْدِرون عليه من الفعل لا يقدرون عليه إلا بتقديره وتدبيره، فكيف بما لا يَقدرون عليه؟ فكيف بالغني الصمد الذي يمتنع عليه أن يستحق من غيره نفعًا أو ضرًّا؟

وقال السندي –رحمه الله- (ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني) لأنكم عاجزون، وأنا لا أحتاج إلى شيء، ولا أنتفع به؛ إذ أمري أعلى من ذلك وأعظم، سبحانه ما أعظم شأنه.

فائدة :

قوله (**يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل** ...) .

في هذا إشارة إلى أن ملك الله لا يزيد بطاعة الخلق ، ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على أتقى رجل منهم ، ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ، ولو كان الجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على أفجر رجل منهم ، فإنه سبحانه الغني بذاته عما سواه ، وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله ، فمُلكُه ملكٌ كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان .

فائدة :

قوله (**يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد ، فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عندي** ...) .

في هذا كمال ملك الله وكمال قدرته ، وأن ملكه وخزائنه لا تنفذ بالعطاء ، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد .

قال ابن رجب –رحمه الله– المراد بهذا: ذكر كمال قُدرته سبحانه، وكمال مُلكه، وأنَّ مُلكه وخزائنه لا تنفد، ولا تَنقص بالعطاء، ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد، وفي ذلك حث للخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به .

ففي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال (يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سَحَّاء الليل والنهار، أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه . (جامع العلوم) .

وقال تعالى (مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ) .

وقال ابن هبيرة –رحمه الله– في هذا التنبيه للخلق على أن يعظِّموا المسألة، ويوسِّعوا الطلب، ولا يقتصر طالب ولا يختصر سائل؛ فإن ما عند الله لا ينقص.

فائدة :

قوله (... **مَا نَقَصَ ذلِكَ مِمَّا عِنْدِي إلاَّ كما يَنْقصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ**) .

قال النووي –رحمه الله–قال العلماء: هذا تقريب إلى الأفهام.

وقال النووي –رحمه الله– أيضاً : ضَرَب المثل بالمخيط في البحر؛ لأنه غاية ما يُضرب به المثل في القِلَّة.

وقال البيضاوي –رحمه الله– المِخْيَط: بكسر الميم وسكون الخاء: الإبرة، وغمسها في البحر وإن لم يخلُ عن نقص ما، لكنه لَمَّا لم يظهر ما ينقصه للحس، ولم يعتد به العقل، وكان أقرب المحسوسات نظيرًا ومثالًا، شبه به صرف ملتمسات السائلين مما عنده، فإنه لا يغيضه مثل ذلك، ولا أقل منه .

وقال القاضي عياض –رحمه الله– (وهذا) غاية في باب التمثيل في هذا، ويقرِّب لك أفهام بما يشاهد، فإن ماء البحر من أعظم المرئيات عيانًا وأكثرها، ودخول المخيط فيه، وهي الإبرة التي يُخَاط بها، وخروجها لا ينقص شيئًا؛ إذ لا يعْلَق بها من ماء البحر شيء لصقالتها.

وقال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– فضرب ذلك مثلًا لخزائن رحمة الله تعالى وفضله؛ فإنها لا تنحصر ولا تتناهى، وأن ما أعطي منها من أول خَلْق المخلوقات، وما يعطي منها إلى يوم القيامة لا يُنقص منها شيئًا، وهذا نحو قوله ﷺ في الحديث الآخر: «يمين الله ملأى سحاء الليل والنهار، لا يغيضها شيء، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، لم يغض ما في يمينه» وسر ذلك: أن قدرته صالحة للإيجاد دائمًا، لا يجوز عليها العجز والقصور، والممكنات لا تنحصر ولا تتناهى، فما وجد منها لا ينقص شيئًا منها .

وقال ابن حجر الهيتمي –رحمه الله– وحكمة ضرب المثل هنا بما ذُكر: أنه غاية ما يُضرب به المثل في القلَّة؛ إذ البحر من أعظم ما يُعَايَن، والإبرة من أصغره، مع أنها صقيلةٌ لا يتعلَّق بها ماءٌ إلا ما لا يمكن إدراكه كمًّا، وفي هذا تنبيهٌ أيُّ تنبيهٍ للخلق على إدامتهم لسؤاله تعالى مع إعظام الرغبة وتوسيع المسألة، فلا يختصر سائلٌ، ولا يقتصر طالبٌ؛ لما تقرر أن خزائن الرحمة سحَّاء الليل والنهار، لا يَغيضها الإعطاء وإن جلَّ وعظم.

فائدة :

قوله ﷺ (**فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلزمن إلا نفسه**) له معنيان صحيحان :

الأول : أن من وجد خيراً في الدنيا فليحمد الله على ما عجّل له من جزاء عمله الصالح ، ومن وجد غير ذلك فهو مأمور بلوم نفسه على الذنوب التي وجد عاقبتَها في الدنيا .

والثاني : أن من وجد خيراً في الآخرة فإنه يحمد الله عليه ، ومن وجد غيره فإنه يلوم نفسه ولات حين مندم .

فائدة :

قوله (**فمن وجد خيراً** ...) .

قال ابن رجب –رحمه الله– إشارة إلى أن الخير كله من الله فضل منه على عبده، من غير استحقاق له، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه، كما قال –عزَّ وجلَّ– (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) .

وقال ابن تيمية –رحمه الله–فقد بيَّن هذا الحديث أنَّ من وجد خيرًا بالعمل الصالح فليحمد الله؛ فإنه هو الذي أنعم بذلك، وإن وجد غير ذلك: إما شرًّا له عقاب وإما عبثًا لا فائدة فيه فلا يلومنَّ إلا نفسه، فإنه هو الذي ظلم نفسه، وكل حادث فبقدرة الله ومشيئته.

وقال ابن تيمية –رحمه الله– أيضًا : بيَّن أنه محسن إلى عباده في الجزاء على أعمالهم الصالحة إحسانًا يستحق به الحمد؛ لأنه هو المنعِم بالأمر بها، والإرشاد إليها والإعانة عليها، ثم إحصائها ثم توفية جزائها، فكل ذلك فضل منه وإحسان؛ إذ كلُّ نعمة منه فضل، وكلُّ نقمةٍ منه عدل .

فائدة :

قوله: (**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم**) فيه أن الله يحصي أعمال العباد ويضبطها ، فلا يظلم عنده أحد .

قال تعالى (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) .

وقال تعالى (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ) .

وقال تعالى (ووَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) .

وقال سبحانه (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ) .

وقال سبحانه (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا) .

قال ابن رجب –رحمه الله– قوله (إنما هي أعمالكم أحصيها لكم) يعني: أنه سبحانه يحصي أعمال عباده، ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها، وهذا كقوله (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

وقال المناوي –رحمه الله– لما بيَّن الله –جلَّ جلاله– كمال قُدرته، وتمام مُلكه، وسِعة نعمائه، وقوة نُفوذه، أراد أن يبين لخلقه: أنه تعالى ذكره مع كونه موصوفًا بهذه الصفات الفائقة الحد والحصر، فلا يَترك لعبد من عباده عملًا من الأعمال قلَّ أو كثر، صغر أو عَظُم، خيرًا أو شرًّا إلا أحصاه، وكتبه عليه، ثم يرد عليه جزاء ذلك، ويوفّيه له على حسبه تامًا لا يُنقص منه شيئًا.

فائدة :

قوله (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) .

دليل على عظمة ما عند الله من عدة أوجه، وهي:

أ– أن السائلين هم الخلق جميعًا أولهم وآخرهم لقوله: "أولكم وآخركم".

ب– أن من ضمن السائلين الجن أيضا لقوله: "وجنكم".

ج- أن هؤلاء السائلين جميعا قاموا في مكان واحد، فكانت حاجاتهم في وقت واحد ومكان واحد، ولا شك أن هذا أعظم في دلالته على ما عند الله مما لو كانوا متفرقين.

فائدة :

أن الله يوفي عباده يوم القيامة على حسب أعمالهم فلا يظلم عنده أحداً .

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ) .

فائدة :

وجوب حمد الله على من وجد خيراً ، لأن الله يسرها عليه ، ثم أثابه عليها .

فائدة :

حفظ الله للأعمال .

فائدة :

محاسبة النفس على التفريط .

فائدة :

الحث على الدعاء والمسألة :حيث تكرر في الحديث : *فاستهدوني ، فاستطعموني ، فاستكسوني ، فاستغفروني* ، وهذا يدل على محبة الله لسؤال عباده له.

فائدة :

سعة خزائن الله وعطائه ولو أعطى جميع الخلق كل ما طلبوا، لم ينقص ذلك من ملكه إلا كنقص الإبرة إذا غُمست في البحر.

فائدة :

إثبات الحساب والجزاء فالله يحصي الأعمال كلها ثم يوفي العباد جزاءها كاملًا يوم القيامة.

فائدة :

التربية على حسن الظن بالله ، فالحديث مليء بالرحمة والكرم والستر والمغفرة والإجابة ، ومن أجمع ما قيل في هذا الحديث: إنه جمع أصول الدين كلها من توحيد، وعدل، ورحمة، وافتقار، ومحاسبة، وترغيب، وترهيب.

فائدة :

أن الله سبحانه أرحم بعباده من أنفسهم إذ دعاهم إلى ما ينفعهم، وحذرهم مما يضرهم، مع غناه التام عنهم.

فائدة :

إثبات كتابة الأعمال وإحصائها بدقة

فائدة :

وفيه تذكير بمراقبة الله في السر والعلن.

فائدة :

دل قوله: (فمن وجد خيرًا فليحمد الله) أن دخول الجنة يكون بفضل الله وحده، وليس بمجرد الأعمال، فإن أعمال العباد لا تؤهل الإنسان لدخول الجنة، وإنما يدخلها المؤمنون بفضل الله، ويؤيده قوله ﷺ: "لن يدخل أحدًا عملُهُ الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته .

فائدة :

قوله (فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي) مرادف لقوله تعالى (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ).

٢٥- **عَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ (أنَّ ناساً مِنْ أصْحَابِ رسولِ اللهِ ﷺ قالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ بالأجورِ، يُصلُّونَ كَما نُصَلِّي، ويَصومُونَ كَمَا نَصُومُ، ويتَصدَّقُونَ بفُضُولِ أموالِهِمْ، قال: (أوليسَ قد جعلَ اللهُ لَكُمْ ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بكُلِّ تَسبيحةٍ صَدقةً، وكُلِّ تَكبيرةٍ صَدقَةً، وكُلِّ تَحْمِيدةٍ صَدقةً، وكُلِّ تَهْليلَةٍ صدقةً، وأمْرٌ بِالمَعْروفِ صَدقَةٌ، ونَهْيٌ عَنْ مُنكَرٍ صَدقَةٌ، وفي بُضْعِ أحَدِكُم صَدقَةٌ))** . **قالوا: يا رسولَ الله، أيأتِي أحدُنا شَهْوَتَهُ ويكونُ لهُ فيها ... أجْرٌ؟ قال: (أرأيتُمْ لَوْ وَضَعَها في حَرَامٍ، أكانَ عليهِ وِزْرٌ. فكذلك إذا وضَعَها في الحلالِ كانَ لهُ أَجْرٌ) رَواهُ مُسلمٌ .**

=========

(**عن أبي ذر**) أحد كبار الصحابة، واسمه: جُندب بن جُنادة الغفاري ﷺ، وينتمي إلى قبيلة غفار، وهي قبيلة كانت تسكن بين مكة والمدينة، ومن السابقين إلى الإسلام، فقد أسلم في أوائل الدعوة بمك، عُرف بالزهد والصدق والشجاعة في قول الحق،كان شديد الحرص على العبادة والآخرة، أحبه النبي ﷺ وأثنى عليه، وكان ﷺ يعيش حياة بسيطة بعيدة عن الترف، ويحث الناس على القناعة والإنفاق، وقد سكن آخر حياته في منطقة الرَّبَذَة قرب المدينة، وتوفي فيها سنة ٣٢ هـ تقريباً.

(**أنَّ ناساً مِنْ أصْحَابِ رسولِ اللهِ ﷺ**) أي: مِن فقراء المهاجرين (كما صرحت به رواية أخرى) .

وقال ابن حجر -رحمه الله- (ذهب أهل الدثور بالأجور) قائل ذلك فقراء المهاجرين، وسُمِّي منهم في رواية النسائي في اليوم والليلة: أبو الدرداء، أخرجه من طريق أبي عمر الضبي، وأبي صالح كلاهما عن أبي الدرداء قال قلت: يا رسول الله، وسُمِّي منهم أيضًا: أبو ذر، أخرجه أبو داود والطبراني في الأوسط من وجه آخر عن أبي هريرة، وأخرجه أحمد، وابن خزيمة، وابن ماجه من حديث أبي ذر نفسه .

(**قالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ يا رَسُولَ اللهِ ذَهَبَ أهْلُ الدُّثُورِ**) أهل الأموال ، **قال المازري** -رحمه الله – الدُّثور: دَثْرٌ وهو المال الكثير .

بالأجورِ) الكثيرة؛ لكثرة أعمالهم؛ فإنهم (يصلُّون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم) أي: بأموالهم الفاضلة عن كفايتهم... .

(**ويتَصدَّقُونَ بفُضُولِ أموالِهِمْ**) يعني : ونحن لا نتصدق .

قال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- (ويتصدَّقون بفضول أموالهم) أي: بأموالهم الفاضلة عن كفايتهم، وقيَّدوا بذلك (أي: بفضول الأموال) بيانًا لفضل الصدقة؛ فإنها بغير الفاضل عن الكفاية إما مكروهةٌ، أو محرمةٌ، على التفصيل المقرر فيها في الفقه.

(**وفي بُضْعِ أحَدِكُم صَدقَةٌ) قال النووي** : هو بضم الباء، يُطلق على الجماع، ويطلق على الفَرْجِ نفسه، وكلاهما تصح إرادته هنا.

(**قالوا: يا رسولَ الله، أيأتِي أحدُنا شَهْوَتَهُ ويكونُ لهُ فيها أجْرٌ؟**) **قال القرطبي** : استفهام مَن استبعد حصول أجر بفعل مستلَذ، يحث الطبع عليه، وكأن هذا الاستبعاد إنما وقع مِن تصفُّح الأكثر من الشريعة، وهو أن الأجور إنما تحصل في العبادات الشاقة على النفوس المخالفة لها.

(**قال: أرأيتُمْ لَوْ وَضَعَها في حَرَامٍ، أكانَ عليهِ وِزْرٌ. فكذلك إذا وضَعَها في الحلالِ كانَ لهُ أَجْرٌ**) **قال أبو العباس القرطبي** – رحمه الله– ثم إنه ﷺ أجابهم على هذا بقياس العكس، فقال: «أرأيتم لو وضعها في حرام؟» ونَظْمُه: كما يأثم في ارتكاب الحرام، يؤجر في فعل الحلال. وحاصله راجع إلى إعطاء كل واحد من المتقابلَين ما يقابِل به الآخر من الذوات والأحكام .

فائدة : ١

الحديث دليل على رغبة الصحابة رضي الله عنهم الشديدة في الخير، وتنافسهم بالأعمال الصالحة.

ففي هذا الحديث أن الفقراء جاءوا إلى النبي ﷺ وبينوا له أن إخوانهم الأغنياء قد سبقوهم ببعض الأعمال الصالحة، وذلك أن عندهم فضل من مال، فيحجون ويعتمرون ويتصدقون ويجاهدون، وهم لا يستطيعون ذلك، فما السبيل للحاق بهم؟

وقولهم ما ذُكر ليس حسدًا، بل غبطةً وطلبًا للمنافسة فيما يتنافس فيه المتنافسون من طلب مزيد الخير ومنتهاه؛ لشدة حرصهم على الأعمال الصالحة، وقوة رغبتهم في الخير؛ قال الله تعالى عنهم (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوكَ لِتَحمِلَهُم قُلتَ لَا أَجِدُ مَا أَحمِلُكُم عَلَيهِ تَوَلَّواْ وَّأَعيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ) ولما فَهِمَ منهم ﷺ ذلك، قال لهم جوابًا وتطمينًا لخاطرهم وتقريرًا؛ لأنهم ربما ساووا الأغنياء: أوليس قد جعل لكم ما تصَّدَّقون به؟ .

قال ابن رجب –رحمه الله– في الحديث: دليل على قوة رغبة الصحابة ﷺ في الأعمال الصالحة الموجبة للدرجات العُلى والنعيم المقيم، فكانوا يحزنون على العجز عن شيءٍ مما يقدر عليه غيرهم من ذلك، وقد وصفهم الله في كتابه بذلك، بقوله: (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ) ولهذا قال النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنين»، فذكر منهما: «رجل آتاه الله مالًا فهو ينفقه في وجهه، فيقول رجل: لو أن لي مالًا لفعلت فيه كما فعل ذلك».

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– أيضًا فانظر إلى الهمم العالية من الصحابة ﷺ يغبطون إخوانهم بما أنعم الله عليهم من الأموال التي يتصدَّقون بها ويعتقون منها، وليسوا يقولون: عندهم فضول أموال؛ يركبون بها المراكب الفخمة، ويسكنون القصور المشيدة، ويلبسون الثياب الجميلة؛ ذلك لأنهم قوم يريدون ما هو خير وأبقى، وهو الآخرة، قال الله تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وقال الله تعالى لنبيه ﷺ (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) انتهى .

وهذا هو التنافس الشريف.

قال تعالى (وفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ).

وقال تعالى (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ).

قال ابن القيم: ... كما كان أصحاب رسول الله ﷺ يتنافسون في الخير ويفرح بعضهم ببعض باشتراكهم فيه، بل يحض بعضهم بعضاً، وهي نوع من المسابقة، وقد قال تعالى (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ).

فائدة : ٢

الحزن على ما فات من الأعمال الصالحة، وهذا كان دأب الصحابة رضوان الله عليهم.

أمثلة تدل على ذلك:

أولاً: ما جاء في حديث الباب: حيث كان الفقراء يحزنون على ما يتعذر عليهم فعله من الخير مما يقدر عليه غيرهم.

ثانياً: الحزن على التخلف عن الخروج في الجهاد لعدم القدرة على آلته.

كما قال تعالى (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ).

ثالثاً: التأسف على فعل الطاعة.

فإن ابن عمر لما بلغه حديث (من شهد الجنازة حتى تدفن فله قيراط، ومن شهدها حتى يصلى عليها فله قيراطان) قال: لقد فرطنا في قراريط كثيرة.

فائدة : ٣

ينبغي على المسلم المسارعة إلى الخيرات والأعمال الصالحات.

كما قال تعالى (وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ).

وقال تعالى (فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ).

وقال تعالى (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ).

وقال ﷺ (إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها) رواه أحمد.

فائدة : ٤

قوله (... **ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ**) .

قال ابن رجب: معنى هذا أن الفقراء ظنوا أن لا صدقة إلا بالمال، وهم عاجزون عن ذلك، فأخبرهم النبي ﷺ أن جميع أنواع فعل المعروف والإحسان صدقة، وفي صحيح مسلم عن حذيفة عن النبي ﷺ قال (كل معروف صدقة)، فالصدقة تطلق على جميع أنواع فعل المعروف والإحسان.

فائدة : ٥

الحديث دليل على الحث على علو الهمة.

قال ﷺ (إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها) رواه الطبراني.

وقال ﷺ (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا). متفق عليه

وقال ﷺ (إذا سأل أحدكم فليكثر، فإنما يسأل ربه) رواه ابن حبان.

وقال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس الأعلى) رواه البخاري.

وقال ﷺ (لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه، قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ) رواه البخاري.

وعن ربيعة بن كعب قال (كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته، فقال لي: سلني، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود) رواه مسلم.

فائدة : ٦

استدل بحديث الباب من قال إن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر، وهذه مسألة اختلف فيها العلماء على قولين:

القول الأول: أن الغني الشاكر أفضل من الفقير الصابر.

قال الحافظ في الفتح: وصرح كثير من الشافعية بأن الغني الشاكر أفضل.

أ-لقوله ﷺ (اليد العليا خير من اليد السفلى).

ب-ولحديث أبي هريرة. (أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور بالأجور، فقال: وما ذاك، قالوا: يصلون كما نصلي، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق؟ فقال رسول الله ﷺ أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل الذي صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله! قال: تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة؟ فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا من أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله؟ فقال رسول الله ﷺ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء). رواه مسلم .

قال النووي: وَفِي هَذَا الْحَدِيث دَلِيل لِمَنْ فَضَّلَ الْغَنِيّ الشَّاكِر عَلَى الْفَقِير الصَّابِر، وَفِي الْمَسْأَلَة خِلَاف مَشْهُور بَيْن السَّلَف وَالْخَلَف مِنْ الطَّوَائِف. وَاَللَّهُ أَعْلَم.

ج-وقال ﷺ (نعم المال الصالح للرجل الصالح) رواه أحمد.

د- ولقوله ﷺ لسعد (إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ...) متفق عليه.

هـ- ولحديث كعب بن مالك حين استشار في الخروج من ماله كله فقال (أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) متفق عليه.

و- ولحديث سعد. قال: قال ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ) رواه مسلم.

قال ابن حجر: وهو دال لما قلته سواء حملنا الغني فيه على المال أو على غنى النفس فإنه على الأول ظاهر وعلى الثاني يتناول القسمين فيحصل المطلوب.

ز- أن الغني الشاكر نفعه متعدي، بخلاف الفقير الصابر فنفعه قاصرٌ على نفسه، فيكون الأول أفضل من الثاني كما في نظائرها من المسائل.

القول الثاني: الفقير الشاكر أفضل.

لقوله ﷺ (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ...) متفق عليه .

ولقوله ﷺ (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ...). رواه الترمذي

والراجح الأول.

واختار شيخ الإسلام ابن تيمية أن من كان تقياً فهو أفضل.

قال ابن تيمية: قد تنازع كثير من متأخري المسلمين في الغنى الشاكر والفقير الصابر ايهما أفضل فرجح هذا طائفة من العلماء والعباد ورجح هذا طائفة من العلماء والعباد وقد حكى في ذلك عن الامام احمد روايتان، وأما الصحابة والتابعون فلم ينقل عنهم تفضيل أحد الصنفين على الآخر .

وقال طائفة ثالثة: ليس لأحدهما على الآخر فضيلة إلا بالتقوى فأيهما كان أعظم إيماناً وتقوى كان أفضل، وان استويا في ذلك استويا في الفضيلة وهذا أصح الأقوال، لأن الكتاب والسنة إنما تفضل بالإيمان والتقوى وقد قال الله تعالى (إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما).

وقال القرطبي: ذهب قوم إلى تفضيل الغني : لأن الغني مقتدر والفقير عاجز والقدرة أفضل من العجز، قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب النباهة، وذهب آخرون إلى تفضيل الفقير ; لأن الفقير تارك والغني ملابس، وترك الدنيا أفضل من ملابستها قال الماوردي: وهذا مذهب من غلب عليه حب السلامة.

وذهب آخرون إلى تفضيل التوسط بين الأمرين بأن يخرج من حد الفقر إلى أدنى مراتب الغنى ليصل إلى فضيلة الأمرين قال الماوردي: وهذا مذهب من يرى تفضيل الاعتدال، وأن خيار الأمور أوساطها.

وقال ابن هبيرة الوزير الحنبلي: ولو لم يكن في الفقر إلا أنه باب رضاء الله ولو لم يكن في الغنى إلا أنه باب سخط الله، لأن الإنسان إذا رأى الفقير رضي عن الله في تقديره، وإذا رأى الغني تسخط بما هو عليه، وذلك يكفي في فضل الفقير على الغني.

فائدة : ٧

سعة فضل الله ورحمته حيث جعل أبواب الخير كثيرة.

فائدة : ٨

فضل الصدقة بالمال.

فائدة : ٩

أن العمل الصالح صدقة، وقد قال ﷺ (كل معروف صدقة) وجاء في روايات للحديث (تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلو أخيك لك صدقة).

وعند ابن حبان (ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة، في كل يوم طلعت فيه الشمس، قيل: يا رسول الله: ومن أين لنا صدقة نتصدق بها؟ قال: إن أبواب الجنة لكثيرة، التسبيح والتحميد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتميط الأذى عن الطريق، وتسمع الأصم، وتهدي الأعمى، وتدل المستدل على حاجته، وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك).

قال ابن رجب رحمه الله: والصدقة بغير المال نوعان:

أحدهما: ما فيه تعدية الإحسان إلى الخلق فتكون صدقة عليهم، وربما كان أفضل من الصدقة بالمال.

وهذا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه دعا إلى طاعة الله، وكف عن معاصيه، وذلك خير من النفع بالمال، وكذلك تعليم العلم النافع، وإقراء القرآن، وإزالة الأذى عن الطريق، والسعي في جلب النفع للناس، ودفع الأذى عنهم.

الثاني: من الصدقة التي ليست مالية ما نفعه قاصر على فاعله، كأنواع الذكر من التكبير والتحميد والتهليل والاستغفار.

فائدة : ١٠

فضل ذكر الله وأنه صدقة على النفس.

فائدة : ١١

فضل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (وستأتي مباحثه إن شاء الله).

فائدة : ١٢

تحريم الزنا.

فائدة : ١٣

أن إتيان الحلال استغناء عن الحرام يجعل الحلال قربة وصدقة.

قال النووي رحمه الله: وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر الله به، أو طلب ولد صالح، أو إعفاف نفسه، أو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعاً من النظر إلى الحرام أو الفكر فيه، أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة.

فالمباحات تصير صدقة يؤجر عليها الإنسان بالنية والإخلاص.

كما قال ﷺ (إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها فهي له صدقة) متفق عليه.

وقال ﷺ لسعد (إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرْتَ عليها، حتى اللقمة ترفعها في امرأتك) متفق عليه.

فائدة : ١٤

إثبات قياس العكس.

فائدة : ١٥

الحث على السؤال عما ينتفع به المسلم ويترقى به في مراتب الكمال.

فائدة : ١٦

أن الصحابة كانوا يسألون عمّا يشكل عليهم دون حرج حتى في أمور العلاقة الزوجية، طلباً للعلم والفهم.

فائدة : ١٧

أن الذكر لا يحتاج إلى قدرة مالية ولا مكان مخصوص فهو عبادة متاحة لكل أحد وفي كل وقت تقريب .

فائدة : ١٨

فضل إعفاف النفس والزوجة ، لأن الجماع الحلال سبب للعفة وغض البصر وحفظ المجتمع من الفواحش.

فائدة : ١٩

أن المسلم ينبغي أن يبحث عن البدائل المشروعة للطاعات التي يعجز عنها، فمن عجز عن الصدقة المالية فتح الله له أبواباً أخرى.

فائدة : ٢٠

أن الفقر ليس مانعاً من كثرة الحسنات، بل قد يسبق الفقير غيره بكثرة الذكر والإخلاص والصبر.

فائدة : ٢١

إثبات أن الكلام الطيب من أفضل القربات، فالكلمات اليسيرة: سبحان الله، الحمد لله، الله أكبر، لا إله إلا الله؛ جعلها النبي ﷺ صدقات.

فائدة : ٢٢

حسن تعليم النبي ﷺ، فقد أجابهم بجواب يفتح الأمل ولا يورث الإحباط، ثم استخدم السؤال والقياس لتقريب المعنى للأذهان.

فائدة : ٢٣

أن الغِبطة جائزة في أمور الآخرة، فالصحابة تمنَّوا أن يكون لهم مثل ما للأغنياء من الصدقة، ولم يتمنوا زوال النعمة عنهم، وهذا هو الفرق بين الغبطة والحسد.

فائدة : ٢٤

يسر الشريعة الإسلامية إذ جعلت للمسلم مجالات كثيرة للتقرب إلى الله دون مشقة عظيمة أو تكاليف مالية .

فائدة : ٢٥

سعة فضل الله تعالى ورحمته جعل لعباده أبواباً متنوعة للأجر تناسب الغني والفقير، والرجل والمرأة، والقوي والضعيف.

فائدة : ٢٦

أن تفاوت الناس في الأرزاق لحكمة ، فالغني يُبتلى بالمال، والفقير يُبتلى بالفقر، وكلٌّ له أبواب يتقرب بها إلى الله.

فائدة : ٢٧

استحباب سؤال أهل العلم عمّا ينفع ، فالصحابة رجعوا إلى النبي ﷺ ليعرفوا الطريق إلى زيادة الأجر.

فائدة : ٢٨

أن الصحابة كانوا يعظمون شأن الصدقة حتى ظنوا أن الأغنياء قد فازوا بسبب كثرة الإنفاق.

٢٦-عَنْ أَبِي هُرَيرةَ ﷺ، قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ (كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عليهِ صَدَقةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطلُعُ فيه الشَّمْسِ: تَعدِلُ بَينَ الاثنينِ صدَقَةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ، فتحمِلُهُ عليها، أو تَرْفَعُ لهُ عليها متاعَهُ صَدَقةٌ، والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقةٌ، وبِكُلِّ خُطوةٍ تَمشيها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، وتُميطُ الأذى عَنِ الطَّريقِ صَدَقَةٌ) رواهُ البُخاريُّ ومُسلمٌ.

==========

فائدة :

قوله ﷺ (**عَلَى كُلِّ سُلامَى**) السلامى: عظام الكف والأصابع والأرجل، والمراد في هذا الحديث جميع أعضاء جسم الإنسان ومفاصله، وهي ثلاثمائة وستون مفصلاً.

فقد روى مسلم في صحيحه عن عَائِشَةَ. أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وَثَلاَثْمَائَةِ مَفْصِلٍ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ وَحَمِدَ اللَّهَ وَهَلَّلَ اللَّهَ وَسَبَّحَ اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ اللَّهَ وَعَزَلَ حَجَراً عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ أَوْ شَوْكَةً أَوْ عَظْماً عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَى عَنْ مُنْكَرٍ عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ وَالثَّلاَثْمِائَةِ السُّلاَمَى فَإِنَّهُ يَمْشِى يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ).

والمعنى : أن على الإنسان كل يوم تطلع فيه الشمس عن كل عضو من أعضائه صدقة، وهذا سهل، فإنه يستطيع أن يأتي بهذا الديْن بالتسبيح والتهليل والتكبير.

قال الملا علي القاري -رحمه الله- (كل سُلامى) هو بضم السين، وهو عَظْم الإصبع «من الناس» أي: مِن كل واحد منهم، «عليه» أي: على كل سُلامى، والمعنى: على كل واحد من الناس بِعَدَد كل مفصِل من أعضائه «صدقة» أوجب الصدقة على السُّلامى مجازًا، وفي الحقيقة على صاحبه. انتهى .

وقال الطيبي -رحمه الله- المعنى على كُلِّ أَحدٍ بعددِ كُلِّ مفصل في أعضائه صدقة، شكرا لله تعالي بأن جعل في عظامه مفاصل تقدر علي القبض والبسط؛ فإن ذلك نعم عظيمة، إذ لو جعل أعضاءه بغير مفصل، كانت كالخشبة.

وقال القاضي عياض -رحمه الله- قيل: هو إيجابُ حَضٍّ وتَرغيب على اكتساب الأجر بهذه الأعضاء وتصريفها في طاعة الله، فهي صدقة .

ومعنى الحديث: أن تركيب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم الله على عبده، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه، ليكون ذلك شكراً لهذه النعمة.

قال الله تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعدلك. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ).

وقال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ).

وقال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ). (قاله ابن رجب) .

فائدة : ٢

قوله (**كُلَّ يَوْمٍ تَطلُعُ فيه الشَّمْسِ: تَعدِلُ بَينَ الاثنينِ صدَقَةٌ**) فيه فضيلة العدل بين الناس. والعدل له فضائل:

أولاً: أن الله أمر به.

فقال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...).

ثانياً: أن الله يحب أهله.

قال سبحانه (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ).

ثالثاً: على منابر من نور.

قال ﷺ (إن المقسطين عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا) . رواه مسلم

رابعاً: في ظل الله يوم القيامة.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل ...) . متفق عليه

فائدة : ٣

قوله (**وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِهِ، فتحمِلُهُ عليها، أو تَرْفَعُ لهُ عليها متاعَهُ صَدَقةٌ**) فيه الحث على معاونة الإنسان لأخيه المسلم، فيعينه في دابته فيحمله عليها أو يرفع له عليها متاعه.

وهذا مثال ذكره النبي ﷺ والأمثلة كثيرة جداً.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: لو وجدت إنساناً على الطريق وطلب منك أن تحمله إلى البلد وحملته، فإنه يدخل من باب أولى.

ولكن هل يجب عليك أن تحمله أو لا يجب؟

الجواب: إن كان في مهلكة وأمنت منه وجب عليك أن تحمله وجوباً لإنقاذه من الهلكة، فإن لم تأمن من هذا الرجل فلا يلزمك أن تحمله، مثل تخاف أن يغتالك.

وللتعاون فضائل:

أولاً: حث الله عليه.

قال تعالى (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى).

ثانياً: أنه سبب للقوة.

قال تعالى (وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ).

ثالثاً: أنه سبب لمعونة الله للعبد.

قال ﷺ (من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) رواه مسلم.

فائدة : ٤

قوله (**والكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقةٌ**) فيه فضل الكلمة الطيبة .

فالكلمة الطيبة: أجر كبير وعمل يسير من رب عزيز.

والكلمة الطيبة: هي التي تسر السامع وتؤلف القلب.

هي التي تحدث أثرا طيباً في نفوس الآخرين، هي التي تثمر عملاً صالحاً في كل وقت بإذن الله، هي التي تفتح أبواب الخير، وتغلق أبواب الشر.

فالكلمة الطيبة سبب لصلاح الأحوال وغفران الذنوب.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا).

وأمر الله بالكلمة الطيبة.

فقال تعالى (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ).

وقال سبحانه (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن).

وقال سبحانه (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

الكلمة الطيبة سبب لرضوان الله.

عن بِلالِ بن الحارِثِ المزَنِيّ ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَال (إنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللهُ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إلَى يَومِ يَلْقَاه) رواه الترمذي.

والكلمة الطيبة سبب دخول الجنة.

عَنْ عَلِيٍّ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا» فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَام) رواه الترمذي.

وعن المقدام بن شريح عن أبيه عن جده ﷺ قال: قلت يا رسول الله حدثني بشيء يوجب لي الجنة. قال: (موجب الجنة: إطعام الطعام، وإفشاء السلام، وحسن الكلام) . رواه الطبراني

الكلمة الطيبة سبب للنجاة من النار.

عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ . قال ﷺ (اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَة) متفق عليه .

والكلمة الطيبة شعبة من شعب الإيمان.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ) متفق عليه.

الكلمة الطيبة صدقة.

كما في حديث الباب (وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبةُ صدقَةٌ) .

قال ابن بطال: وجه كون الكلمة الطيبة صدقة أن إعطاء المال يفرح به قلب الذي يعطاه ويذهب ما في قلبه وكذلك الكلام الطيب فأشبهها من هذه الحيثية.

والكلمة الطيبة انتصار على الشيطان.

قال تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِيناً).

قال ابن كثير: يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين، أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنه إذ لم يفعلوا ذلك، نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإن الشيطان عدو لآدم

وذريته من حين امتنع من السجود لآدم، فعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزغ في يده، أي: فربما أصابه بها.

وقال السعدي: قوله تعالى (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله من قراءة وذكر وعلم وأمر بمعروف ونهي عن منكر وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين فإنه يأمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح فإن من ملك لسانه ملك جميع أمره.

فائدة : ٥

قوله (**وبِكُلِّ خُطوةٍ تَمشيها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ**) فيه فضل كثرة الخطا إلى المساجد .

وقد جاءت بعض الأحاديث في فضل المشي إلى المساجد:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ (من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله ليقض فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداهما تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة) رواه مسلم.

وعنه . قال: قال رسول الله ﷺ (صَلاَةُ الرَّجُلِ في جماعةٍ تزيدُ عَلَى صَلاَتِهِ في سُوقِهِ وَبَيْتِهِ بضْعاً وعِشْرينَ دَرَجَةً، وذلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِد لا يُرِيدُ إلاَّ الصَّلاَةَ، لا يَنْهَزُهُ إلاَّ الصَّلاَةُ، لَمْ يَخطُ خُطوَةً إلاَّ رُفِعَ لَهُ بِها دَرجةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطيئَةٌ حتَّى يَدْخلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دخل الْمَسْجِدَ كانَ في الصَّلاَةِ مَا كَانَتِ الصَّلاَةُ هِيَ التي تحبِسُه) متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ (ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط) رواه مسلم.

وحديث الباب (وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة) .

وخاصة بالظُلَم :

كما قال ﷺ (بشر المشائين بالظلم بالنور التام يوم القيامة) رواه أبو داود.

قال في دليل الفاتحين: الظُّلَم: جمع ظلمة، وهي تعم ظلمة العشاء والفجر. وفي الحديث: فضل المشي إلى الصلاة سواء كان المشي طويلاً أو قصيراً ، وفضل المشي إليها للجماعات في ظلم الليل " انتهى.

ويكتب له أجر ذهابه ورجوعه:

عن عبد الله بن عمرو. قال: قال رسول الله ﷺ (من راح إلى مسجد الجماعة، فخطوة تمحو سيئة، وخطوة تكتب له حسنة ذاهباً وراجعاً) رواه أحمد.

وفي حديث أبي المنذِر أُبيّ بنِ كَعْب ﷺ، قَالَ (كَانَ رَجُلٌ لا أَعْلَمُ رَجلاً أَبْعَدَ مِنَ المسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لاَ تُخْطِئُهُ صَلاةٌ، فَقيلَ لَهُ أَوْ فَقُلْتُ لَهُ: لَوِ اشْتَرَيْتَ حِمَاراً تَرْكَبُهُ في الظَلْمَاء وفي الرَّمْضَاء؟ فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ المسْجِدِ إِنِّي أريدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى المسْجِدِ وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ (قَدْ جَمَعَ اللهُ لَكَ ذلِكَ كُلَّهُ) رواه مسلم.

وهذا يدل على أنه يثاب على المشي في رجوعه من المسجد إلى منزله.

ضابط مقاربة الخطا، أن يمشي على العادة دون تكلف، فالمقاربة المقصودة هي المشي الموافق للعادة دون تكلف.

وليس المعنى أن يتقصد أن يسكن في مكان بعيد عن المسجد، وإنما المعنى إذا صادف وكان المسجد بعيداً عنه.

لا يستحب أن يقارب بين خطاياه في ذهابه، لأن النبي ﷺ لم يأمر بذلك.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (وبكلِّ خُطوَةٍ تَحْطُوهَا إلى الصَّلاةِ صدقة) سواء بَعُدَت المسافة أم قَصُرَت...، وقد استَحَبَّ بعض العلماء -رحمهم الله- أنْ يُقارِب الإنسان خُطواته إذا ذهب إلى المسجد، ولكن هذا استحباب في غير موضعه، ولا دليل عليه؛ لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أخبر أنَّ بكل خُطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة لم يقل: فَلْيُدْنِ أحدُكم خُطواته، ولو كان هذا أمرًا مقصودًا مشروعًا لبيّنه النبي ﷺ، ولكن لا يباعِد الخُطا قصدًا، ولا يُدْنيها قصدًا، بل يمشي على عادته.

قال ابن رجب: والمشيُ إِلَى المسجد أفضل من الركوب كما تقدّم في حديث أوس في الجُمُعة، ولهذا جاء في حديث معاذ ذكرُ المشي عَلَى الأقدام، وكان النبي ﷺ لا يخرجُ إِلَى الصلاة إلا ماشيًا حتى العيد يخرج إِلَى المصلَّى ماشيًا، فإن الآتي للمسجد زائر الله، والزيارة عَلَى الأقدام أقربُ إِلَى الخضوع والتذلل كما قيل:

لو جئتكم زائرًا أسعى عَلَى بصري ... لم أدِّ حقًّا وأي الحق أديت؟!

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (من غدا إِلَى المسجد أو راح أعد الله له نزلا في الجنة كلما غدا أو راح).

والنزل: هو ما يعد للزائر عند قدومه.

وكلما شقَّ المشي إِلَى المسجد كان أفضل، ولهذا فضل المشي إِلَى صلاة العشاء وصلاة الصبح، وعدل بقيام الليل كله كما في "صحيح مسلم عن عثمان عن النبي ﷺ قال (من صلّى العشاء في جماعة فكأنَّما قام نصف الليل، ومن صلَّى الصبح في جماعة فكأنما قام الليل كله).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (أثقل صلاة عَلَى المنافقين: صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً).

وإنما ثقلت هاتان الصلاتان عَلَى المنافقين لأنّ المنافق لا ينشط للصلاة إلا إذا رآه الناس كما قال تعالى (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً).

وصلاة العشاء والصبح يقعان في ظلمة، فلا ينشط للمشي إليهما إلا كل مخلصٍ يكتفي برؤية الله عز وجل وحده لعلمه به.

وثواب المشي إِلَى المساجد في الظلم: النور التام في ظلم القيامة كما في سنن أبي داود والترمذي عن بريدة عن النبي ﷺ قال (بشر المشائين في الظلم إِلَى المساجد بالنور التام يوم القيامة).

فائدة : ٦

قوله (وتُميطُ الأذى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ) .

فيه فضل إماطة الأذى عن الطريق، من فضائله :

أولاً: أنه صدقة.

كما في حديث الباب (وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ صَدَقَة) .

ثانياً: من علامات الإيمان.

قال ﷺ (الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق) .

ثالثاً: أنه من أسباب دخول الجنة.

عن أبي هريرة قال: قال ﷺ (لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة، في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين). رواه مسلم

رابعاً: من أسباب المغفرة.

قال ﷺ (بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره فشكر الله له، فغفر له) متفق عليه.

خامساً: أنه من محاسن أعمال هذه الأمة.

عن أبي هريرة . قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ (عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِئ أعمَالِهَا النُّخَاعَةُ تَكُونُ فِي المسْجِدِ لا تُدْفَنُ) رواه مسلم.

فائدة : ٧

الحديث دليل على أنه ينبغي للمسلم ألا يستحقر شيئاً من الأعمال الصالحة.

فائدة : ٨

الحديث دليل على أهمية الإخلاص في العمل، وأن العمل يعظم ويكبر بالإخلاص والإيمان.

قال ابن المبارك: رب عمل صغير تكبره النية، ورب عمل كبير تصغره النية.

قال ابن تيمية: وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها.

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك. فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له، والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة، بل لحقائقها التي في القلوب، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً. (منهاج السنة)

فائدة : ٩

الحث على فعل الخير مهما صغر ونفع المسلمين بأنواع المنافع.

فائدة : ١٠

شمول معنى الصدقة، فالصدقة ليست محصورة في المال فقط، بل تشمل كل نفع وإحسان يقدمه الإنسان للآخرين.

فائدة : ١١

شكر نعمة الجسد ، أي أن على الإنسان أن يشكر الله على نعمة مفاصله وأعضائه بالأعمال الصالحة كل يوم.

فائدة : ١٢

العناية بالمصلحة العامة، فإزالة الأذى عن الطريق دليل على اهتمام الإسلام بسلامة الناس وحقوقهم.

فائدة : ١٣

سهولة أبواب الخير، فالحديث يدل على أن طرق الأجر كثيرة ومتاحة لكل أحد، غنيًّا كان أو فقيرًا.

فائدة : ١٤

أن العبادة ليست محصورة في الشعائر فقط بل تشمل التعاملات الاجتماعية والإحسان للخلق.

فائدة : ١٥

رحمة الشريعة وتيسيرها، لما كان الإنسان لا يستطيع أن يتصدق بمال كل يوم، فتح الله له أبوابًا كثيرة من أعمال البر.

فائدة : ١٦

جاء في رواية (فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى) .

قال ابن رجب: وإنما كانتا مجزئتين عن ذلك كله، لأن في الصلاة استعمالاً للأعضاء كلها في الطاعة والعبادة، فتكون كافية في شكر نعمة سلامة هذه الأعضاء.

وقال النووي : وَفِيهِ دَلِيل عَلَى عِظَم فَضْل الضُّحَى وَكَبِير مَوْقِعهَا ، وَأَنَّهَا تَصِحُّ رَكْعَتَيْنِ .

وقال الإمام ابن دقيق العيد رحمه الله: أي يكفي من هذه الصدقات عن هذه الأعضاء ركعتان فإن الصلاة عمل لجميع أعضاء الجسد فإذا صلى فقد قام كل عضو بوظيفته والله أعلم.

وقال الإمام الشوكاني رحمه الله: والحديثان يدلان على عظم فضل الضحى وأكبر موقعها وتأكد مشروعيتها، وأن ركعتيها تجزيان عن ثلاثمائة وستين صدقة، وما كان كذلك فهو حقيق بالمواظبة والمداومة .

وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: معنى الحديث على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة لأنه إذا أصبح العضو سليما فينبغي أن يشكر ويكون شكره بالصدقة فالتسبيح والتحميد وما ذكره يجري مجرى الصدقة عن الشاكر وقوله (ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى) لأن الضحى من الصباح وإنما قامت الركعتان مقام ذلك لأن جميع الأعضاء تتحرك فيها بالقيام والقعود فيكون ذلك شكرها.

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره واجتنب فيه نهيه، فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه تقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أرواحه وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال في التقدم أو تأخر ولا وقوف في الطريق البتة قال تعالى: (لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخّر).

٢٧–عَنِ النَّواسِ بنِ سَمعانَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قال(البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، والإثْمُ: ما حَاكَ في نَفْسِكَ، وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عليهِ النَّاسُ) رواهُ مسلمٌ .

وعَنْ وابِصَةَ بن مَعْبَدٍ قال: أتيتُ رَسُولَ الله ﷺ فقالَ (جِئْتَ تَسأَلُ عن البرِّ والإثمِ؟) قُلْتُ: نعَمْ، قال: ((استَفْتِ قَلْبَكَ، البرُّ ما اطمأنَّتْ إليهِ النَّفْسُ، واطمأنَّ إليهِ القلبُ، والإثمُ ما حَاكَ في النَّفسِ، وتَردَّدَ في الصَّدْرِ، وإنْ أفتاكَ النَّاسُ وأَفْتوكَ) حديثٌ حسنٌ رويناه في " مسنَدَي " الإمامين أحمد والدَّارميّ بإسنادٍ حسنٍ.

==========

(**عن النواس بن سمعان**) هو نواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبدالله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي رضي الله عنه، معدود في الشاميين، كان من أصحاب الصُّفَّةِ، وسكن الشام، وأقام مع رسول الله ﷺ بالمدينة سنة؛ لأجل أن يتفقه في الدين، ورُوي له (١٧) حديثًا.

(**البر**) اسم جامع للخير .

(**حسن الخلق**) التحلي بالفضائل وترك الرذائل .

(**ما حاك في نفسك**) أي لم يسكن إليه القلب .

(**وابصة بن معبد**) هو وابصة بن معبد بن مالك بن عبيد الأسدي، من أسد بن خزيمة ﷺ، يُكنى أبا سالم، له صحبة، سكن الكوفة، ثم تحوَّل إلى الرقَّة، فأقام بها إلى أن مات بها، روى عددًا من الأحاديث، وكان كثير البكاء لا يملك دمعته، وكان له بالرَّقَّة عَقِبٌ.

فائدة : ١

منزلة الحديث :

قال ابن علان -رحمه الله- والحديث من جوامع كَلِمِه، بل مِن أوجزها؛ إذ البرّ كلمة جامعة لجميع أفعال الخير، وخصال المعروف، والإثم كلمة جامعة لجميع أفعال الشرّ والقبائح كبيرها وصغيرها؛ ولذا قابَلَ بينهما.

فائدة : ٢

الحديث دليل على الحث على التخلق بمكارم الأخلاق؛ لأن حسن الخلق من أعظم خصال البر.

لقوله (البِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ) .فجعل حسن الخلق أعظم خصال البر .

قال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- فأجابه النبي ﷺ بجواب جمليٍّ أغناه به عن التفصيل، فقال له (البر: حسن الخلق) يعني: أن حسن الخلق أعظم خصال البر، كما قال (الحجُّ عرفة) ويعني بحسن الخلق: الإنصاف في المعاملة، والرفق في المجادلة، والعدل في الأحكام، والبذل والإحسان.

وقال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- (البِرُّ) أي: مُعظمه، فالحصر فيه مجازيٌّ، نظيرُ ما مرَّ في: «الدِّين النصيحة»... «حُسن الخُلق» أي: التَّخَلُّق.

وقال الصنعاني -رحمه الله- قوله (البر ...) فسّره ﷺ بحُسن الخُلق؛ لأنه جامِعٌ لكل إحسان؛ ولهذا كان يدعو به في صلواته: «اللهم اهدني لأَحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت .

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- فقال (البر) أي: أعظم خصاله، أو البر كله مجملًا (حُسن الخلق) أي: مع الخَلْق، بأمر الحق، أو مُداراة الخَلْق، ومراعاة الحق .

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (البر حسن الخلق) الجملة هذه يقولون: إنَّ التركيب يقتضي الحصر: البر حُسن الخلق، وهذا قد يُشكل في ظاهره على بعض الناس، حيث يقول: إنَّ البر حُسن الخلق، وهناك أشياء كثيرة من البر، وليست حُسن الخلق، كالصلاة والصدقة والصيام والحج، وغير ذلك.

فيقال: إنك لم تفهم مراد الرسول ﷺ به، حسن الخلق مع الله، ومع عباد الله؛ لأن الرسول لم يقيَّد، لم يَقُل: حسن الخلق مع الناس، ولكن أطلق.

حُسن الخلق مع الله: أن تتقبل أوامره بالسرور والانشراح، سواء كانت من المنهيات أو من المأمورات، لا يضيق صدرك به، هذا لا شك أنه بِرٌّ؛ لأن مَن تلقى أوامر الله بانشراح وقبول فسوف يفعله؛ لأنه مسرور بها، وفي المحارم سوف يتجنبها، فهذا صار في معاملة الله.

وفي معاملة الخلق: حُسن الخلق، بعضهم قال: هُو بذل الندى، وكف الأذى، وطلاقة الوجه، وبعضهم قال: حُسن الخلق: أن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، وهذا أجمع وأبين وأوضح

فائدة : ٣

في الحديث بعض علامات الإثم :

أولاً : قلق القلب واضطرابه ، لقوله (والإثم ما حاك في صدرك) .

ثانياً : كراهة اطلاع الناس عليه ، لقوله (وكرهت أن يطلع عليه الناس) .

قال ابن رجب : في قوله (الإثم ما حاك في ...) :

إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً فلم ينشرح له الصدر ، ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه ، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه ، وهو ما استنكر الناس فاعله وغير فاعله .

وقال أبو العباس القرطبي –رحمه الله– قوله (والإثم: ما حاك في نفسك...) أي: الشيء الذي يؤثر نُفرة وحزازة في القلب، يقال: حاك الشيء في قلبي: إذا رسخ فيه وثبت، ولا يحيك هذا في قلبي، أي: لا يثبت فيه، ولا يستقر...، وإنما أحاله النبي ﷺ على هذا الإدراك القلبي؛ لِمَا عَلِمَ من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدرك ذلك من نفسه..

وقال النووي –رحمه الله– ومعنى (حاكَ في صدرك) أي: تحرَّك فيه وتردَّد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشكُّ؛ خوف كونه ذنبًا. .

وقال البيضاوي –رحمه الله– (الإثم: ما حاك في صدرك) أي: أثَّر فيه، بأن أَقْلَقَهُ، ولم يطمئن له، وهذا باعتبار المؤمن المعتقد الملهِم بالحق، فلعله عليه السلام عَلِم ذلك منه (أي: من النواس –رضي الله عنه)

وقال عبد الحق الدهلوي –رحمه الله– قوله (والإثم: ما حاكَ في صدرك) أي: أثَّر فيه، وأوقعك في التردد، ولم يطمئن قلبك، فإن ذلك أمارة أن في ذلك شيئًا من الإثم والكراهة .

وقال الصنعاني –رحمه الله– فيه: دليل أنَّ الله جعل في القلوب إدراكًا للذنوب، وأن الشيء الذي يَكره اطلاع الناس عليه دليل على أنه من الإثم، وهذا هو الذي يعبَّر عنه بالزَّاجر، وإليه أشار الشاعر بقوله:

لا تنته الأنفس عن غيّها ** ما لم يكن منها لها زاجرُ

وهو معنى الحديث الآخر: «استَفْتِ قلبك وإنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُون» وفي معناه أحاديث .

فائدة : ٤

أن صاحب القلب السليم ، يضطرب قلبه ويخاف عند فعل الحرام أو الشك به .

قال ابن رجب : فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه مما سكن إليه القلب ، وانشرح إليه الصدر ، فهو البر والحلال ، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام .

فائدة : ٥

قوله (**واستفت قلبك**) .

قال عبد الحق الدهلوي –رحمه الله– قوله ﷺ (اسْتَفْتِ قلبَك) وهذا في حق من شرح الله صدره، ونوَّر قلبه، وفيما لم يكن فيه نصٌّ من الشارع، وإجماع من العلماء، فكانت النصوص متعارضة والأقوال مختلفة، فيختار أحدها بفتوى القلب.

وقال ابن عثيمين –رحمه الله– : وهذا فيمن نفسه مطمئنة راضية بشرع الله، وأما أهل الفسوق والفجور فإنهم لا يترددون في الآثام، تجد الإنسان منهم يفعل المعصية منشرحًا بها صدره، والعياذ بالله، لا يبالي بذلك، لكن صاحبَ الخير الذي وُفق للبر هو الذي يتردد الشيء في نفسه، ولا تطمئن إليه، ويحيك في صدره، فهذا هو الإثم .

فائدة : ٦

أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه .

فائدة : ٧

أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم .

قال ابن رجب رحمه الله : وهذه مرتبة ثانية ، وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره وقد جعله أيضاً إثماً ، وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان ، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظن أو ميل إلى هوى من غير دليل شرعي ، أما إذا كان فتوى المفتي تستند إلى دليل شرعي فيجب على المرء أن يتقيد بها وإن لم يطمئن قلبه ، قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) .

فائدة : ٨

معجزة الرسول ﷺ ، حيث أخبر وابصة بما في نفسه قبل أن يتكلم به .

فائدة : ٩

أن الدين وازع ومراقب داخلي .

فائدة : ١٠

أن الدين يمنع من اقتراف الإثم .

فائدة : ١١

طمأنينة القلب السليم للخير .

فائدة : ١٢

نفور القلب السليم من الشر .

فائدة : ١٣

الحياء علامة خير ، فكون الإنسان يكره اطلاع الناس على فعلٍ ما يدل غالبًا على أنه يعلم أنه خطأ.

فائدة : ١٤

خطر المعاصي والآثام وأنها سبب للقلق .

فائدة : ١٥

بلاغة النبي ﷺ .

٢٨–عَن العِرْبَاض بنِ ساريةَ ﷺ قالَ (وَعَظَنا رسولُ الله ﷺ مَوعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ، فَقُلْنا: يَا رَسول الله، كأنَّها مَوعِظَةُ مُودِّعٍ، فأوْصِنا، قال (أوصيكُمْ بتَقوى الله، والسَّمْعِ والطَّاعةِ، وإنْ تَأَمَّرَ عَليكُم عَبْدٌ، وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسَيرى اختلافاً كَثيراً، فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ) رواه أبو داود والتِّرمذيُّ ، وقال: حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ.

==========

(**عَن العِرْبَاض بنِ ساريةَ**) رياض بن سارية السلمي، هو أحد صحابة النبي ﷺ ويكنى بأبي نجيح، كان من السابقين إلى الإسلام، ومن أهل الصفة الذين كانوا يلازمون مسجد النبي ﷺ للعبادة وطلب العلم، سكن بلاد الشام وبالتحديد حمص؛ وعاش فيها حتى وفاته نحو سنة ٧٥ هـ .

عُرف ﷺ بالزهد والورع، وكان من "البكائين" الذين ذكرهم الله في القرآن؛ وهم الذين حزنوا لعدم قدرتهم على الخروج للجهاد لعدم وجود ما يحملهم .

(**وَعَظَنَا**) الموعظة التذكير المقرون بالتخويف.

(**وجِلَتْ**) أي: خافت.

(و**ذَرَفَتْ**) أي: سالت.

فائدة : ١

الحديث دليل مشروعية الموعظة. والموعظة فيها مباحث:

أولاً: مشروعيتها.

لقوله تعالى (وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً).

وقوله تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة).

ولحديث الباب (وعظنا رسول الله ﷺ) .

وعن جابر قال (شهدت مع رسول الله ﷺ العيد، فبدأ بالصلاة قبل الخطبة، ثم قام متوكئاً على بلال، فأمر بتقوى الله، وأمر بطاعته، ووعظ الناس وذكرهم) متفق عليه.

ثانياً: أن لا يديم الموعظة بل يتخولهم.

عن ابن مسعود قال (كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام مخافة السآمة علينا) رواه البخاري.

يتخولنا: يتعاهدنا.

والمعنى: كان يراعي الأوقات في تذكيرنا، ولا يفعل ذلك كل يوم لئلا نمل.

ثالثاً: أن لا يطيل في الموعظة.

قال ﷺ (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه) رواه مسلم.

وعند أبي داود (كان رسول الله ﷺ لا يطيل الموعظة يوم الجمعة، إنما هي كلمات يسيرات).

مئنة: دليل وعلامة.

رابعاً: أن تكون بليغة.

لقوله في الحديث (وعظنا موعظة بليغة ...).

قال ابن رجب: والبلاغة هي التوصل إلى إفهام المعاني المقصودة، واتصالها إلى قلوب السامعين بأحسن صورة من الألفاظ الدالة عليها وأفصحها وأحلاها للأسماع وأوقعها في القلوب.

فائدة : ٢

أن من صفات المؤمنين عند سماع المواعظ، البكاء والخوف.

قال ابن رجب رحمه الله: هذان الوصفان بهما مدح الله المؤمنين عند سماع الذكر.

كما قال تعالى (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً).

وقال سبحانه (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق).

وقال تعالى (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

وقال تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق).

فائدة : ٣

فضل البكاء من خشية الله. وللبكاء من خشية الله فضائل:

أولاً: سبب للنجاة من النار.

قال ﷺ (لن يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع) رواه الترمذي.

وقال ﷺ (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله) رواه الترمذي.

ثانياً: البكاء مع الذكر سبب لإظلال الله للعبد.

قال ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) متفق عليه.

ثالثاً: أن البكاء من خشية الله سمة من سمات الصحابة.

كما في حديث الباب.

ولحديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين) متفق عليه.

أمثلة على بكاء الصحابة:

ثبت في ترجمة عمر بن الخطاب أنه كان في وجهه خطان أسودان.

وكان عثمان إذا وقف على قبر يبكي حتى تبتل لحيته من البكاء.

ثبت عن ابن عمر أنه ما قرأ قول الله (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله) إلا بكى حتى يغلبه البكاء.

قال أبو سليمان الداراني: لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله .

فائدة : ٤

تأثر الصحابة بالموعظة وشدة خوفهم من الله.

فائدة : ٥

أن وصية المودع غالباً تكون أبلغ.

قال ابن رجب رحمه الله: فإن المودِّع يستقصي ما لم يستقص غيره في القول والفعل، ولذلك أمر النبي ﷺ أن يصلي صلاة مودع، لأنه من استشعر أنه مودِع بصلاته أتقنها على أكمل وجوهها.

فائدة : ٦

أن أهم وصية يوصي بها الإنسان هي تقوى الله، لأنه هي سبب سعادة الدنيا والآخرة.

والتقوى هي وصية الله للأولين والآخرين .

كما قال تعالى (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله).

وقال ﷺ لمعاذ (اتق الله حيثما كنت). (وقد سبقت فضائل التقوى).

فائدة : ٧

قوله (**والسَّمْعِ والطَّاعةِ، وإنْ تَأَمَّرَ عَليكُم عَبْدٌ**) فيه وجوب السمع والطاعة لولي الأمر ما لم يأمروا بمعصية، وهذا واجب بالكتاب والسنة والإجماع.

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم).

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني) متفق عليه.

وعن ابن عمر. قال: قال رسول الله ﷺ (السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) متفق عليه.

وعن أبي ذر. قال: قال رسول الله ﷺ (إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدع الأطراف) رواه مسلم، وعند البخاري (ولو لحبشي كأن رأسه زبيبة).

وعن ابن عباس. قال: قال رسول الله ﷺ (من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات فميتته جاهلية) متفق عليه.

وعن عوف بن مالك. قال: قال رسول الله ﷺ (خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، فقلنا يا رسول الله! أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا الصلاة فيكم، ألا من وليَ عليه والٍ، فرآه يأتي شيئاً من معصيته فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يداً من طاعة). رواه مسلم

وعن عبادة بن الصامِت ﷺ قَالَ (بَايَعْنَا رَسُول الله ﷺ عَلَى السَّمْعِ والطَّاعَةِ فِي العُسْرِ واليُسْرِ، والمَنْشَطِ وَالمَكْرَهِ، وَعَلَى أثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَعَلَى أنْ لاَ نُنازِعَ الأمْرَ أهْلَهُ إلاَّ أنْ تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِيهِ بُرْهَانٌ، وَعَلَى أنْ نَقُولَ بالحَقِّ أيْنَمَا كُنَّا لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لائِمٍ) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن عمر كان يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذا أنس بن مالك، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً. وصلى ابن مسعود خلف الوليد بن عقبة بن أبي معيْط وكان يشرب الخمر.

قال العلماء كما حكى الإمام النووي ـ رحمه الله : معناه: تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصيةٍ، فإن كانت معصية فلا سمع ولا طاعة .

وقال أيضاً مفسراً الأثرة، هي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم. أي: اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا، ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم.

قال شارح الطحاوية: أما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل .

وقال ابن رجب: وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم.

وقال السعدي: وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة لله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصيةٍ، فإن أمروا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فَشَرْطُ الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

تنبيه :

وقد بيّن النبي ﷺ منهج المسلم في هذا الأمر:

فعن ابن مسعود. قال: قال رسول الله ﷺ (إنكم سترون بعدي أثرة وأموراً تنكرونها، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم) متفق عليه.

تنبيه :

قوله (وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا) المراد أن طواعيتهم لمن يتولى عليهم لا تتوقف على إيصالهم حقوقهم، بل عليهم الطاعة ولو منعهم حقهم.

فائدة : ٨

الحكمة من وجوب السمع والطاعة لهم المنع من الخروج عليهم.

أ- لما يترتب على الخروج عليهم من المفاسد الكثيرة.

قال ابن تيمية: فَالْخُرُوج عَلَيْهِمْ يُوجِبُ مِنْ الظُّلْمِ وَالْفَسَادِ أَكْثَرَ مِنْ ظُلْمِهِمْ فَيُصْبَرُ عَلَيْهِ كَمَا يُصْبَرُ عِنْدَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ عَلَى ظُلْمِ الْمَأْمُورِ وَالْمَنْهِيِّ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ كَقَوْلِهِ (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ) وَقَوْلِهِ (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وَقَوْلِهِ (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) وَهَذَا عَامٌّ فِي وُلَاةِ الْأُمُورِ وَفِي الرَّعِيَّةِ.

وقال رحمه الله أيضاً: ولهذا كان المشهور من مذهب أهل السنة، أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي ﷺ لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادَيْن بالتزام أدناهما، ولعله لا يكاد يعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته.

وقال رحمه الله: ... فإن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ... وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير ، كالذين خرجوا على يزيد بالمدينة ، وكابن الأشعث الذي خرج على عبد الملك بالعراق ، وكابن المهلب الذي خرج على ابنه بخراسان ، وكأبي مسلم صاحب الدعوة الذي خرج عليهم بخراسان أيضاً ، وكالذين خرجوا على المنصور بالمدينة والبصرة ، وأمثال هؤلاء.

وقال ابن أبي العز الحنفي: وَأَمَّا لُزُومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا، فلأنه يَتَرَتَّبُ على الْخُرُوجِ مِنْ طَاعَتِهِمْ مِنَ الْمَفَاسِدِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ، بَلْ فِي الصَّبْرِ على جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ وَمُضَاعَفَة الْأُجُورِ، فَإِنَّ الله تعالى مَا سَلَّطَهُمْ عَلَيْنَا إِلَّا لِفَسَادِ أَعْمَالِنَا، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَعَلَيْنَا الِاجْتِهَادُ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَة وَإِصْلَاحِ الْعَمَلِ. قَالَ تعالى (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ) وَقَالَ تعالى (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ) وَقَالَ تعالى (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) وقال (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). فَإِذَا أَرَادَ الرَّعِيَّة أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظَّالِمِ. فَلْيَتْرُكُوا الظُّلْمَ.

وَعَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: أنه جَاءَ فِي بَعْضِ كُتُبِ الله: "أَنَا الله مَالِكُ الْمُلْكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عليه رحمة، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهُمْ عليه نِقْمَة، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَبِّ الْمُلُوكِ، لَكِنْ تُوبُوا أعطفهُمْ عَلَيْكُم" . (شرح الطحاوية)

ب-أن الغالب أن الوالي الظالم يقاتل من أجل الدنيا لا من أجل الله.

قال ابن تيمية: ... فهذا أمره بقتال الخوارج ، وهذا نهيه عن قتال الولاة الظلمة، وهذا مما يُستدل به على أنه ليس كل ظالم باغ يجوز قتاله ... ومن أسباب ذلك أن الظالم الذي يستأثر بالمال والولايات لا يُقاتل في العادة إلا لأجل الدنيا، يقاتله الناس حتى يعطيهم المال والولايات ، وحتى لا يظلمهم، فلم يكن أصل قتالهم ليكون الدين كله لله، ولتكون كلمة الله هي العليا ، ولا كان قتالهم من جنس قتال المحاربين قطاع الطريق ... وبالجملة العادة المعروفة أن الخروج على ولاة الأمور يكون لطلب ما في أيديهم من المال والإمارة ، وهذا قتال على الدنيا. ... (منهاج السنة)

فائدة : ٩

قوله (**وإنْ تَأَمَّرَ عَليكُم عَبْدٌ**) .

مِنْ المعلوم: أن شُرُوطِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ كَوْنُهُ حُرًّا. فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا، وَلَا خِلَافَ فِي هَذَا بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

فما الجواب عن حديث الباب الذي يدل عَلَى جَوَازِ إِمَامَةِ الْعَبْدِ .

كذلك حديث (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ).

وَلِمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أُمِّ الْحُصَيْنِ (اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ).

وَلِمُسْلِمٍ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ ﷺ (أَوْصَانِي خَلِيلِي أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ).

فَالْجَوَابُ مِنْ أَوْجُهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّهُ قَدْ يُضْرَبُ الْمَثَلُ بِمَا لَا يَقَعُ فِي الْوُجُودِ، فَإِطْلَاقُ الْعَبْدِ الْحَبَشِيِّ لِأَجْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْأَمْرِ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ لَا يُتَصَوَّرُ شَرْعًا أَنْ يَلِيَ ذَلِكَ.

ذَكَرَ ابْنُ حَجَرٍ هَذَا الْجَوَابَ عَنِ الْخَطَّابِيِّ، وَيُشْبِهُ هَذَا الْوَجْهُ قَوْلَهُ تَعَالَى (قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ) عَلَى أَحَدِ التَّفْسِيرَاتِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْمُرَادَ بِاسْتِعْمَالِ الْعَبْدِ الْحَبَشِيِّ أَنْ يَكُونَ مُؤَمَّرًا مِنْ جِهَةِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ عَلَى بَعْضِ الْبِلَادِ وَهُوَ أَظْهَرُهَا، فَلَيْسَ هُوَ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنْ يَكُونَ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ الْعَبْدِ: نَظَرًا لِاتِّصَافِهِ بِذَلِكَ سَابِقًا مَعَ أَنَّهُ وَقْتَ التَّوْلِيَةِ حُرٌّ، وَنَظِيرُهُ إِطْلَاقُ الْيُتْمِ عَلَى الْبَالِغِ بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِ بِهِ سَابِقًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ) وَهَذَا كُلُّهُ فِيمَا يَكُونُ بِطَرِيقِ الِاخْتِيَارِ.

أَمَّا لَوْ تَغَلَّبَ عَبْدٌ حَقِيقَةً بِالْقُوَّةِ فَإِنَّ طَاعَتَهُ تَجِبُ: إِخْمَادًا لِلْفِتْنَةِ، وَصَوْنًا لِلدِّمَاءِ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ كَمَا تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهِ.

وَالْمُرَادُ بِالزَّبِيبَةِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَاحِدَةُ الزَّبِيبِ الْمَأْكُولِ الْمَعْرُوفِ الْكَائِنِ مِنَ الْعِنَبِ إِذَا جَفَّ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ التَّشْبِيهِ: التَّحْقِيرُ وَتَقْبِيحُ الصُّورَةِ: لِأَنَّ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ إِذَا وَجَبَا لِمَنْ كَانَ كَذَلِكَ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى الْوُجُوبِ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِلَّا فِي الْمَعْصِيَةِ. (أضواء البيان)

والراجح من هذه الإجابات في نظري هو الجواب الثاني، وهو الذي رجحه الشنقيطي رحمه الله، وسبب الترجيح هو ورود بعض الأحاديث الدالة على ذلك، منها ما أخرجه الحاكم من حديث علي ﷺ عن النبي ﷺ قال (الأئمة من قريش، أبرارها أمراء

أبرارها وفجارها أمراء فجارها، ولكل حق، فآتوا كل ذي حق حقه، وإن أمرت قريش فيكم عبدًا حبشيًا مجدعًا فاسمعوا له وأطيعوا).

ويعضد هذا الرأي أيضًا ألفاظ الحديث (وإن استعمل) (وإن أُمِّر) ونحوها ... والله أعلم.

فائدة : ١٠

معجزة للنبي ﷺ حيث وقع ما أخبر به من الاختلاف والفرقة.

وهذا مصداق لقوله ﷺ (ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة) رواه أبو داود.

فائدة : ١١

العلاج عند الاختلاف، وهو التمسك بالسنة لقوله (فعليكم بسنتي).

فائدة : ١٢

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أنه يجب على الإنسان أن يتعلم سنة النبي ﷺ، وجه ذلك: أنه لا يمكن لزومها إلا بعد علمها وإلا فلا يمكن.

فائدة : ١٣

أن للخلفاء الراشدين سنة متبعة.

لقوله (وسنة الخلفاء الراشدين).

ولقوله ﷺ أيضاً (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر) رواه الترمذي.

والخلفاء الراشدون الذين أمرنا بالاقتداء بهم هم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

قال ابن رجب: وإنما وصف الخلفاء بالراشدين لأنهم عرفوا الحق وقضوا به.

فائدة : ١٤

التحذير من البدع.

فائدة : ١٥

أن جميع البدع ضلالة.

فائدة : ١٦

حسن تعليم النبي ﷺ، فقد كان يعظ أصحابه بأسلوب مؤثر يجمع بين الترغيب والترهيب.

فائدة : ١٧

استحباب طلب الوصية من أهل العلم والصلاح، لأن الصحابة قالوا: فأوصنا .

فائدة : ١٨

علامات الموعظة النافعة، أنها تؤثر في القلب وتدفع إلى العمل، لا أن تكون مجرد كلمات .

فائدة : ١٩

أن الدنيا دار تغير واختلاف، فالحديث يهيئ المسلم للصبر والثبات عند الفتن.

فائدة : ٢٠

التمسك بالسنة يحتاج قوة وصبرًا، ولذلك قال: عضوا عليها بالنواجذ، إشارة إلى الثبات الشديد.

٢٩- عَنْ مُعاذٍ ﷺ قال: (قُلتُ: يا رَسولَ الله أَخبِرني بِعَمَلٍ يُدخِلُني الجَنَّةَ ويُباعِدُني مِنَ النَّارِ، قال: (لقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظيمٍ وإنَّهُ لَيَسيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ الله عليه: تَعْبُدُ الله لا تُشْرِكُ بهِ شيئاً، وتُقيمُ الصَّلاةَ، وتُؤتِي الزَّكاةَ، وتَصُومُ رَمضَانَ، وتَحُجُّ البَيتَ). ثمَّ قالَ: (ألا أَدُلُّكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ، والصَّدقَةُ تُطْفِئُ الخَطيئَةَ كَما يُطفئُ الماءُ النارَ، وصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوفِ اللَّيلِ) ثمَّ تلا: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ} حتَّى بَلَغَ: {يَعْمَلُوْنَ} ثُمَّ قالَ: (أَلا أُخْبِرُكَ برَأْسِ الأمْرِ وعَمودِه وذِرْوَة سنامِهِ؟) قُلتُ: بَلَى يا رَسولَ الله، قال: (رَأسُ الأمْرِ الإسلامُ، وعَمُودُه الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنامِهِ الجهادُ) ثم قال: (ألا أُخبِرُكَ بمَلاكِ ذلك كُلِّهِ؟) قلتُ: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه، قال: (كُفَّ عَلَيكَ هذا) قلتُ: يا نَبيَّ الله، وإنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِما نَتَكَلَّمُ بهِ؟ فقالَ: (ثَكِلتْكَ أُمُّكَ، وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجوهِهِمْ، أو على مَنَاخِرِهم إلاَّ حَصائِدُ أَلسِنَتِهِم) . رواهُ الترمذيُّ، وقال: حَديثٌ حَسنٌ صَحيحٌ.

==========

فائدة : ١

شدة اهتمام معاذ بالأعمال الصالحة .

فائدة : ٢

أن الأعمال سبب لدخول الجنة ، كما قال تعالى (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون) .

لكن ما الجواب عن قوله ﷺ (لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله) ؟

قيل: أن مجرد دخول الجنة لا يكون إلا برحمة الله، كما في الحديث، وأما اقتسام منازل الجنة ودرجاتها فإن ذلك يتفاوت بتفاوت الأعمال.

وهذا مذهب ابن بطال، والقرطبي في تفسيره.

وقيل: إن دخول الجنة برحمة الله، ومن رحمة الله وفق العبد للعمل ويسره له حتى به الجنة، فهذا العمل من رحمة الله .

قال النووي: ... وَأَمَّا قَوْله تَعَالَى (اُدْخُلُوا الْجَنَّة بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (وَتِلْك الْجَنَّة الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وَنَحْوهمَا مِنْ الْآيَات الدَّالَّة عَلَى أَنَّ الْأَعْمَال يُدْخَل بِهَا الْجَنَّة، فَلَا يُعَارِض هَذِهِ الْأَحَادِيث، بَلْ مَعْنَى الْآيَات: أَنَّ دُخُول الْجَنَّة بِسَبَبِ الْأَعْمَال، ثُمَّ التَّوْفِيق لِلْأَعْمَالِ وَالْهِدَايَة لِلْإِخْلَاصِ فِيهَا، وَقَبُولهَا بِرَحْمَةِ اللَّه تَعَالَى وَفَضْله، فَيَصِحّ أَنَّهُ لَمْ يَدْخُل بِمُجَرَّدِ الْعَمَل. وَهُوَ مُرَاد الْأَحَادِيث، وَيَصِحّ أَنَّهُ دَخَلَ بِالْأَعْمَالِ أَيْ بِسَبَبِهَا، وَهِيَ مِنْ الرَّحْمَة. وَاَللَّه أَعْلَم.

وقال ابن رجب: ... وفيه دليلٌ على أنَّ الأعمالَ سببٌ لدخول الجنَّة، كما قال تعالى (وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) وأما قولُه ﷺ (لَنْ يدخُلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّة بِعمَلِه) فالمراد -والله أعلم- أنَّ العملَ بنفسه لا يستحقُّ به أحدٌ الجنَّة لولا أنَّ الله جعله -بفضله ورحمته- سبباً لذلك، والعملُ نفسُه من رحمة الله وفضله على عبده، فالجنَّةُ وأسبابُها كلٌّ من فضل الله ورحمته.

فائدة : ٣

حرص الصحابة على السؤال عما يفيدهم وينفعهم . وهذا من علو همتهم ورفعتهم .

وهناك أمثلة كثيرة تدل على حرص الصحابة على السؤال الذي ينتفعون به :

فقد سأله صحابي : أي الإسلام خير ؟

وسأله آخر : أي العمل أفضل ؟

وسأله آخر : أي العمل أحب إلى الله ؟

وسأله آخر : أي الصلاة أفضل ؟

وقال له آخر : علمني دعاء أدعو به في صلاتي ؟

وكانوا يسألون ليستفيدوا ويطبقوا ويعملوا ، بخلاف كثير من الناس في هذه الأزمان .

فائدة : ٤

أن أعظم ما يسأل عنه هو أسباب دخول الجنة، وأسباب الابتعاد عن النار، لأن من دخل الجنة ونجا من النار فقد فاز الفوز العظيم.

قال تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) .

وقد قال تعالى في صفات عباد الرحمن (والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً) .

وكان أكثر دعاء النبي ﷺ (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

وكان ﷺ يدعو (اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم) .

فائدة : ٥

أن هذا السؤال يعتبر سؤال عظيم .

قال ابن رجب رحمه الله: وذلك لأن دخول الجنة والنجاة من النار أمر عظيم جداً، ولأجله أنزل الله الكتب وأرسل الرسل، وقال النبي ﷺ لرجل: كيف تقول إذا صليت؟ قال: أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار، ولا أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي ﷺ: حولها ندندن .

فائدة : ٦

أن التوفيق كله بيد الله ، فمن يسر الله عليه الهداية اهتدى ، ومن لم ييسر عليه لم ييسر له .

قال تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى. وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى).

فائدة : ٧

أنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله أن ييسر له العمل الصالح .

وقد أخبر الله عن نبيه موسى أنه قال (رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري) .

وأن يجتهد في تحصيل أسباب الهداية، ومن اجتهد فقد وعد الله له بالهداية كما قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا).

قال ابن القيم : علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا .

فائدة : ٨

أن أول الواجبات وأعظمها هو عبادة الله تعالى .

كما قال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم) .

وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) .

وقال ﷺ (وحق الله على العباد : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) .

فائدة : ٩

أن أعظم الذنوب ، وأكبر الكبائر الشرك .

هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله . (وهذا هو الشرك الأكبر) .

وهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ، كدعاء غير الله والتقرب بالذبائح والنذور لغير الله من القبور والجن والشياطين ، والخوف من الموتى أو الجن أو الشياطين أن يضروه أو يمرضوه . (وستأتي مباحث الشرك إن شاء الله)

فائدة : ١٠

أن القيام بأركان الدين سبب لدخول الجنة (وقد سبق الكلام على أركان الإسلام في حديث رقم : ٣) .

فائدة : ١١

ينبغي للمسلم أن يحرص على معرفة أبواب الخير لكي يكثر منها .

قال ابن رجب رحمه الله : لما رتب دخول الجنة على واجبات الإسلام دله بعد ذلك على أبواب الخير من النوافل ، فإن أفضل أولياء المقربين الذين يتقربون إليه بالنوافل بعد أداء الفرائض .

فائدة : ١٢

قوله (**الصوم جنة**) فيه فضل الصوم .

واختلف في معنى (الصوم جنة) .

فقيل: جنة ووقاية من النار، ورجحه ابن عبد البر.

فقد قال ﷺ (الصيام جُنة يستجن بها العبد من النار) رواه أحمد .

وفي رواية (جنة وحصن حصين من النار).

وفي رواية (الصوم جنّة من النار، كجنة أحدكم من القتال).

وقال ﷺ (ما من عبد يصوم يوماً في سبيل الله إلا باعد الله بذلك وجهه عن النار سبعين خريفاً) متفق عليه .

وقيل: من الآثام.

وقيل: من الشهوات.

وقيل: من جميع ذلك، وبذلك جزم النووي.

قال ابن عبد البر : قوله (جُنَّة) فهي الوقاية والستر عن النار، وحسْبك بهذا فضلًا للصائم.

وقال ابن هبيرة -رحمه الله-: الجُنَّة: ما استَتَرتَ به من سلاح أو غيره، وفي قوله (الصوم جُنَّة) وجوهٌ:

أحدهما: جُنَّة من النار.

والثاني: جُنَّة من المعاصي.

والثالث: جُنَّة من أكل ما لا يريد أكله، فإنَّه قد يمتنع بالصوم من أكل طعام لا يريده.

واعلم أنَّ الصائم لما أَجَنَّ الإيمان -أي: ستره- في قلبه، كان صومه جُنَّة له، أي: سترًا من كل سوءٍ في ظاهره .

وقال العراقي -رحمه الله- قال والدي -رحمه الله- في شرح الترمذي: وإنما كان الصوم جُنَّة من النار؛ لأنَّه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات، كما في الحديث الصحيح: «حُفَّت الجنة بالمكاره، وحُفَّت النار بالشهوات» انتهى، وسبقه إلى ذلك ابن العربي، وفي هذا الكلام تلازم الأمرين، وأنَّه إذا كَفَّ نفسه عن الشهوات والآثام في الدنيا، كان ذلك ساترًا له من النار غدًا .

وقال الصنعاني –رحمه الله– قوله (الصوم جُنَّة) وقاية في الدنيا من المعاصي بكسر الشهوة وحفظ الجوارح، وفي الآخرة من النار؛ لأنه يقمع الهوى، ويمنع الشهوات التي هي من أسلحة الشيطان، فإنَّ الشِّبَع مجلَبة للآثام، منقصة للإيمان.

فائدة : ١٣

فضائل الصيام :

الفضل الأول : الصوم جُنة .

لقوله (الصِّيَامُ جُنَّةٌ) .

الفضل الثاني : الصوم فضله عظيم اختص الله به.

لقوله ﷺ (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلاَّ الصِّيَامَ هُوَ لِي وَأَنَا أَجْزِى بِهِ) .

وقد اختلف في معنى قوله ﷺ (قال تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به) مع أن الأعمال كلها لله وهو الذي يجزي عليها على أقوال:

أحدها: أن الصوم لا يقع فيه الرياء كما يقع في غيره.

ثانيها: أن المراد بقوله [وأنا أجزي به] أي أنفرد بعلم مقدار ثوابه وتضعيف حسناته، وأما غيره من العبادات فقد اطلع عليها بعض الناس.

ثالثها: معنى قوله [الصوم لي] أي أنه أحب العبادات إلي والمقدم عندي.

رابعها: الإضافة إضافة تشريف وتعظيم كما يقال بيت الله وإن كانت البيوت كلها لله.

وأقرب الأجوبة التي ذكرتها إلى الصواب الأول والثاني. (فتح الباري)

وقال المازري –رحمه الله– تخصيصه الصوم ها هنا بقوله: «لي» وإنْ كانت أعمال البر المخلَصة كلها له تعالى: لأجْلِ أنَّ الصَّوْمَ لا يمكن فيه الرِّياء كما يمكن في غيره من الأعمال؛ لأنه كفٌّ وإمْسَاكٌ، وحال الممْسِكِ شِبعًا أوْ لِقَاقة كحال الممسك تقربًا، وإنما القصد وما يُبطنه القلب هو المؤَثِّر في ذلك، والصلوات والحج والزكاة أعمال بدنية ظاهرة يمكن فيها الرياء والسُّمْعة، فلذلك خُصَّ الصوم بما ذكره دونها . انتهى .

الخلاصة :

أ–أن الصيام عمل خفي لا يدخله التسميع، ولا الرياء، فهو سر بين العبد وربه، بخلاف بقية الأعمال .

ب–لما في الصيام من ترك حظوظ النفس وشهواتها، وما تميل إليه من الأكل والشرب والجماع، ففي الصيام فطام للنفس عن مألوفاتها.

الفضل الثالث : لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ .

لقوله ﷺ (وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ) .

قال النووي : (لَخُلُوف) هُوَ بِضَمِّ الْخَاءِ فِيهِمَا وَهُوَ تَغَيُّرُ رَائِحَةِ الْفَمِ .

وقال المناوي –رحمه الله– «لخُلُوف» بضم الخاء، وحَطَّؤُوا مَن فتحها: تَغَيُّر رائحة فمِّ الصائم .

وقال ابن عبد البر: يريد أزكى عند الله تعالى وأقرب لديه وأرفع عنده من رائحة المسك.

وعلل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله كون خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك بقوله: لأنها من آثار الصيام فكانت طيبة عند الله سبحانه ومحبوبة له، وهذا دليل على عظيم شأن الصيام عند الله.

وقال ابن علان –رحمه الله– قوله (أطيب عند الله من ريح المسك) هذه الجملة مَسُوقَة لبيان شرف الصوم عند الله تعالى، وزيادة مكانته.

وقال الصنعاني –رحمه الله– أيضًا : وإذا كان هذا في تغير فمه، فما ظنك بصلاته وعبادته .

تنبيه :

وهل هذا الطِيب كائن في الآخرة فقط ، أم كائن في الدنيا والآخرة جميعاً ؟

قولان لأهل العلم رحمهم الله :

فقيل : إن هذه الرائحة كائنة يوم القيامة .

وقيل : إن هذه الرائحة كائنة في الدنيا والآخرة .

وهو اختيار ابن الصلاح ، ومال إليه ابن القيم ، وابن رجب .

قال العراقي –رحمه الله– قد وقع خلاف بين الإمامين ابن الصلاح وابن عبد السلام في ذلك –أي: في أنَّ طيب رائحة الخلوف– هل هو في الدنيا والآخرة أو في الآخرة فقط؟ فذهب ابن الصلاح إلى الأول، وابن عبد السلام إلى الثاني.

الفضل الرابع : للصائم فرحتان.

لقوله ﷺ (لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه) .

(إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ) **قال القرطبيّ**: معناه يفرح بزوال جوعه وعطشه حيث أُبيح له الفطر، وهذا الفرح طبيعيّ، وهو السابق للفهم. وقيل: إن فَرَحَه بفطره إنما هو من حيث إنه تمام صومه، وخاتمة عبادته، وتخفيف من ربّه، ومعونة على مستقبل صومه.

(وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِه) بنيل الجزاء، أو الفوز باللقاء. وقيل: هو السرور بقبول صومه، وترتّب الجزاء الوافر عليه، ولا تنافي بين المعاني.

وقال النووي –رحمه الله– قال العلماء: أما فرحته عند لقاء ربّه فبما يراه مِن جزائه، وتذكُّر نعمة الله تعالى عليه بتوفيقه لذلك، وأما عند فطره فسببها تمام عبادته.

وقال السندي –رحمه الله– (للصائم فرحتان) أي: يفرح حينئذٍ طبعًا، وإن لم يأكل؛ لما في طبع النّفس من محبة الإرسال، وكراهة التَّقيُّد، قيل: يُحتمل: أنَّ هذه هي فرحة النفس بالأكل والشرب، ويُحتمل: أنها فرحها بالتوفيق؛ لإتمام الصوم، والخروج عن العهدة. وقوله: «عند لقاء ربه» أي: ثوابه على الصوم .

وقال الصنعاني –رحمه الله– قوله (للصائم فرحتان) بيَّنهما بقوله (فرحةٌ عند فطره) قيل: لزوال الجوع، والعطش، وقيل: لإتمام الصوم، والمثوبة. قلتُ: أولهما، ويرشد له الدعاء عند الإفطار: «اللهم لك صمنا، وعلى رزقك أفطرنا» قوله (وفرحةٌ عند لقاء ربه) لما يناله من الجزاء الذي أخبر عنه بقوله: «وأنا أجزي به» وغير ذلك مما ذُكِر في جزاء الصيام. .

وقال ابن الجوزي –رحمه الله– إذا أفطر فَرِحَ، وهذا فَرَحُ الطبع، فأمّا العقل فإنه يفرح بتمام صومه، وسلامته من الآفات.

وقال القاضي عياض –رحمه الله– أما فرحته عند لقاء ربه، فبيِّنة؛ لما يراه من الثواب، وحُسن الجزاء، كما قال في الرواية الأخرى: (إذا لقي الله، فجزاه فَرِحَ) وأما عند إفطاره فلتمام عبادته، وسلامتها من الفساد، وما يرجوه من ثوابها، وقد يكون معناه: لما طُبِعَت النفس عليه من الفرح بإباحة لذة الأكل، وما مُنِعَ منه الصائم، وحاجته إلى ذهاب ألم الجوع عنه، وهو ظاهر في بعض الروايات أنه: إذا أفطر فَرِحَ بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه .

الفضل الخامس : الصيام طريق إلى الجنة.

عن أبي أمامة قال (قلت: يا رسول الله، دلني على عمل أدخل به الجنة؟ قال: عليك بالصوم فإنه لا مِثل له). رواه النسائي

(**عليك بالصوم**) أي: الزم الصوم، وأكْثِرْ منه، والمراد به الصوم الشرعيّ؛ إذ هو المتبادَر عند إطلاق الشارع .

(**فإنه لا مِثل له**) لأنه يقوّي القلب والفطنة، ويزيد في الذكاء ومكارم الأخلاق، ومنافعه جمة، وفضائله كثيرة.

قال المناوي -رحمه الله- وإذا صام المرء اعتاد قلَّة الأكل والشرب، وانقمعت شهواته، وانقلعت مواد الذنوب من أصلها، ودخل في الخير من كل وجه، وأحاطت به الحسنات من كل جهة .

قال ابن الجوزي -رحمه الله- وكان أبو أُمامة وامرأته وخادمه (يعني: بعد هذه الوصية) لا يُلْفَوْنَ إلا صيامًا، فإنْ رأوا عندهم نارًا أو دخانًا بالنهار في منزلهم، عرفوا أنْ قد اعتراهم ضيف .

الفضل السادس : الصوم يشفع لصاحبه.

عن عبد الله بن عمرو. قال: قال رسول الله ﷺ (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه. قال: فيشفعان). رواه أحمد

الفضل السابع : الصيام كفارة للخطايا والذنوب.

عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال (فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ). متفق عليه

الفضل الثامن : الصيام سبب لدخول الجنة.

عنْ سَهْلٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ يُقَالُ أَيْنَ الصَّائِمُونَ فَيَقُومُون لاَ يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ فَإِذَا دَخَلُوا أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ) . متفق عليه

الفضل التاسع : الصيام من الأعمال التي وعد الله صاحبها بالمغفرة والأجر الكبير.

قال تعالى (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا).

فائدة : ١٤

قوله (**والصدقة تطفئ الخطيئة** ...) .

في هذا فضل الصدقة وأنها تمحو الخطايا (وقد سبقت فضائل الصدقة في حديث رقم : ٢٣) .

قال الصنعاني -رحمه الله- (تطفئ الخطيئة) أي: تطفئ النار التي تسببت من فعل الخطيئة في الآخرة، أو أنَّ الخطيئة نار في القلب فتطفئها الصدقة...، فينبغي لمن قارف خطيئةً التصدق على إثرها

وقال ابن الملك -رحمه الله- (والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) شبَّه الصدقة؛ لكثرة نفعها، أو لكونها ماحية السيئات، مُطهرة عن الآثام، بالماء الكثير النفع، المطهِّر عن الأنجاس، وشبَّه الخطيئة بالنار؛ لأنها تأكل الحسنات على قول بعض: كما تأكل النار الحطب.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (كما يطفئ الماء النار) يعني: كما لو أنك صببتَ ماءً على النار انطفأت، فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة.

وقال ابن عبد البر –رحمه الله– ولن يُتقرَّب إلى الله بعد الفرائض بمثل الصدقات؛ فإنها تُطفِئُ غضب الله، وتصرف من مصارع السُّوء –إن شاء الله– .

فائدة : ١٥

وخاصة صدقة السر .

كما قال تعالى (إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) .

(إِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) أي: وإن تسروها وتدفعوها للفقراء فهو أفضل لكم لأنه أبعد عن الرياء.

قال ابن الجوزي: وإنما فضلت صدقة السر لمعنيين:

أحدهما: يرجع إلى المعطي وهو بُعْدُه عن الرياء، وقربه من الإخلاص، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية.

والثاني: يرجع إلى المعطَى، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال، لأن في العلانية ينكر.

ثم قال: واتفق العلماء على إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها.

وقال النووي : قَالَ الْعُلَمَاء: وَهَذَا فِي صَدَقَة التَّطَوُّع فَالسِّرّ فِيهَا أَفْضَل؛ لِأَنَّهُ أَقْرَب إِلَى الْإِخْلَاص وَأَبْعَد مِنْ الرِّيَاء .

وقال السعدي: ... وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله (من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

وقال ابن كثير: فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية.

فالأصل أن الإسرار أفضل، لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ... ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ ... وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ). متفق عليه

قال النووي رحمه الله: قوله (ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ...) وَفِي هَذَا الْحَدِيث فَضْل صَدَقَة السِّرّ، قَالَ الْعُلَمَاء: وَهَذَا فِي صَدَقَة التَّطَوُّع فَالسِّرّ فِيهَا أَفْضَل؛ لِأَنَّهُ أَقْرَب إِلَى الْإِخْلَاص وَأَبْعَد مِنْ الرِّيَاء. وَأَمَّا الزَّكَاة الْوَاجِبَة فَإِعْلَانهَا أَفْضَل، وَهَكَذَا حُكْم الصَّلَاة فَإِعْلَان فَرَائِضهَا أَفْضَل، وَإِسْرَار نَوَافِلهَا أَفْضَل. ... (شرح مسلم)

وقال ابن رجب : وضرب المثال لذلك عَلَى طريق المبالغة (حَتَّى لا تعلم شماله مَا تنفق يمينه) ... وهذا دليل عَلَى قوة الإيمان والاكتفاء باطلاع الله عَلَى العبد وعلمه بِهِ، وفيه مخالفة للهوى ومجاهدة للنفس؛ فإنها تحب إظهار الصدقة، والتمدح بِهَا عِنْدَ الخلق، فيحتاج فِي إخفاء الصدقة إلى قوة شديدةٍ تخالف هوى النفس. (فتح الباري)

قال الغزالي –رحمه الله– ... الإسرار؛ فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة ... وقال بعض العلماء: ثلاث من كنوز البِرّ منها إخفاء الصدقة... وفي الخبر (صدقة السِّر تطفئ غضب الرَّب) وفائدة الإخفاء: الخلاص من آفات الرياء والسمعة.

فائدة : ١٦

قوله (**وصلاة الرجل في جوف الليل**) يعني: أنَّها تُطفئ الخطيئة أيضاً كالصَّدقة .

ففيه فضل صلاة الليل .

فائدة : ١٧

وقد جاءت الفضائل الكثيرة في فضل قيام الليل:

أولاً: أن الله تبارك وتعالى مدح أهله.

قال تعالى (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قال ابن كثير: تتجافي جنوبهم عن المضاجع: يعني بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

يدعون ربهم خوفاً وطمعاً: أي خوفاً من وبال عقابهِ وطمعاً في جزيل ثوابهِ.

ومما رزقناهم ينفقون: فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية.

ثانيا: قيام الليل من علامات المتقين.

قال تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ. كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ. وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ).

قال الحسن البصري في الآية: لا ينامون من الليل إلا أقله، كابدوا قيام الليل.

ثالثاً: قيام الليل من صفات عباد الرحمن. أولياء الله ومن أسباب دخول الجنة.

يقول تعالى في وصف عباد الرحمن (وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ... أولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا).

رابعاً: وفرق تعالى بين من قام الليل ومن لم يقمه، ممتدحاً صاحب القيام.

فقال تعالى (أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ).

خامساً: قيام الليل أفضل الصلاة بعد الفريضة.

عن أبي هريرة. قال: قال ﷺ (أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار، لأنها أبلغ في الإسرار وأقرب إلى الإخلاص، ولأن صلاة الليل أشق على النفوس، فإن الليلَ محل النومِ والراحة من التعب بالنهار، فترْك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدةٌ عظيمةٌ، ولأن القراءة في صلاة الليل أقرب إلى التدبر، فإنه تنقطع الشواغل بالليل، ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم كما قال تعالى (إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قيلاً).

سادساً: من أسباب دخول الجنة.

عن عبد الله بن سلام قال: قال ﷺ (أيها الناس! أطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام). رواه الترمذي

سابعاً: قيام الليل سبب للنجاة من الفتن.

فالصلاة عموماً، وصلاة الليل خصوصاً سبب من أسباب النجاة من الفتن.

عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتِ (اسْتَيْقَظَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتَنِ وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ) رواه البخاري.

ففي هذا الحديث دليل وتنبيه على أثر الصلاة بالليل في الوقاية من الفتن.

ثامناً: أنه شرف للمؤمن.

فقد جاء في الحديث عن سهل قال: قال ﷺ (جاءني جبريل! فقال يا محمد! اعمل ما شئت فإنك مجزي به، ... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس) رواه الطبراني وحسنه الألباني.

فقيام الليل شرف للمؤمن، لأنه دليل على إخلاصه، ودليل على ثقته بربه، ودليل على قوة إيمانه، فيرفعه الله ويعزه ويرفع مكانته ويعلي درجته لأنه خلى بالله تعالى.

تاسعاً: لهم غرف في الجنة.

قال ﷺ (إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأفشى السلام، وصلى بالليل والناس نيام) رواه أبو داود.

عاشراً: بقيام الليل يدرك المصلي وقت النزول الإلهي.

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (ينزل ربنا كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له) متفق عليه .

الحادي عشر: وصف النبي ﷺ من يقوم الليل بنِعم الرجل.

عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ (كَانَ الرَّجُلُ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا رَأَى رُؤْيَا قَصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَى رُؤْيَا فَأَقُصَّهَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنْتُ غُلاَماً شَابًّا، وَكُنْتُ أَنَامُ فِي الْمَسْجِدِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنَّ مَلَكَيْنِ أَخَذَانِي فَذَهَبَا بِي إِلَى النَّارِ فَإِذَا هِيَ مَطْوِيَّةٌ كَطَيِّ الْبِئْرِ، وَإِذَا لَهَا قَرْنَانِ، وَإِذَا فِيهَا أُنَاسٌ قَدْ عَرَفْتُهُمْ فَجَعَلْتُ أَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ – قَالَ– فَلَقِيَنَا مَلَكٌ آخَرُ فَقَالَ لِي لَمْ تُرَعْ، فَقَصَصْتُهَا عَلَى حَفْصَةَ فَقَصَّتْهَا حَفْصَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّى مِنَ اللَّيْلِ، فَكَانَ بَعْدُ لاَ يَنَامُ مِنَ اللَّيْلِ إِلاَّ قَلِيلاً) رواه البخاري.

قال الحافظ ابن حجر: فمقتضاه أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نِعم الرجل.

الثاني عشر: قيام الليل من أسباب المغفرة والرحمة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ فَصَلَّتْ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ) رواه أبو داود.

الثالث عشر: من فضل قيام الليل أنه من مظان الإجابة.

عن جابر. قال: قال رسول الله ﷺ (إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة الا أعطاه وذلك كل ليلة) متفق عليه.

الرابع عشر : قيام الليل يطفئ الخطيئة .

كما في حديث الباب (والصَّدقَةُ تُطْفِئُ الخَطيئَةَ كَما يُطفئُ الماءُ النارَ، وصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوفِ اللَّيلِ ...) .

فائدة : ١٨

من أقوال السلف في قيام الليل .

قالت عائشة (يا عبد الله! لا تدع قيام الليل، فإن النبي ﷺ ما كان يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى وهو قاعد) متفق عليه

وجاء في موطأ الإمام عن ابن عمر قال (كان عمر يصلي في الليل حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله وقرأ: وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى).

وقال أبو عثمان النهْدي: تضيفت أبا هريرة سبعة أيام [أي نزلت عليه ضيفاً] فكان هو وزوجه وخادمه يقتسمون الليل أثلاثاً، الزوجة ثلثاً وخادمه ثلثاً وأبو هريرة ثلثاً.

وكان سليمان التيمي عنده زوجتان وكانوا يقتسمون الليل أثلاثاً.

والحسن بن صالح كان يقتسم الليل هو وأخوه وأمه أثلاثاً، فماتت أمه، فاقتسم الليل هو وأخوه علي، فمات أخوه فقام الليل بنفسه.

وكان محمد بن واسع إذا جنّ عليه الليل يقوم ويتهجد، يقول أهله: كان حاله كحال من قتل أهل الدنيا جميعاً.

وكان الإمام أبو سليمان الداراني يقول: والله لولا قيام الليل ما أحببت الدنيا، ووالله إن أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، وإنه لتمر بالقلب ساعات يرقص فيه طرباً بذكر الله فأقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه من النعيم إنهم لفي نعيم عظيم.

وكانت امرأة حبيب بن محمد الزاهد توقظه بالليل وتقول: ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قُدّامنا ونحن قد بقينا، وكانت تقول:

يا راقدَ الليلِ كم ترقدُ ... قم يا حبيبي قد دنا الموعدُ

وخذ من الليلِ وأوقاتهِ ... ورْداً إذا ما هجعَ الرُّقدُ

من نامَ حتى ينقضي ليلهُ ... لم يبلغ المنزلَ أو يجهدُ

قل لأولي الألبابِ أهلِ التقى ... قَنطرةُ العَرْضِ لكم موعدُ

وقال أبو الدرداء: صلوا ركعتين في ظلم الليل لظلمة القبور.

وقال أحمد بن حرب: عجبت لمن يعلم أن الجنة تزين فوقَه، والنار تضرم تحته، كيف ينام بينهما.

وكان شداد بن أوس إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم، فيقول: اللهم إن النار أذهبت النوم، فيقوم فيصلي حتى يصبح.

وحين سألت ابنة الربيع بن خثيم أباها: يا أبتاه الناس ينامون ولا أراك تنام؟ قال: يا بنية إن أباكِ يخاف السيئات.

ويروى أن طاووساً جاء في السحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائم، قال: ما كنت أرى أن أحداً ينام في السحر.

وكان عبد الله بن داود يقول: كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه، كان لا ينام الليل.

وذكر أن عامراً لما احتضر جعل يبكي، فقيل: ما يبكيك يا عامر؟ قال: ما أبكي جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا، ولكني أبكي على ظمأ الهواجر وقيام الشتاء.

وقال محمد بن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل، ولقاء الإخوان، والصلاة في جماعة.

وقال الحسن البصري: ما نعلم عملاً أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال، وإن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل

فائدة :

(أَلا أُخْبِرُكُ برَأْسِ الأمْرِ ....رَأسُ الأمْرِ الإسلامُ) .

قال ابن رجب رحمه الله : فأما رأس الأمر، فيعني بـ[الأمر] الدين الذي بعث به، وهو الإسلام، وقد جاء تفسيره في رواية أخرى بالشهادتين، فمن لم يُقِرُّ بهما باطناً وظاهراً فليس من الإسلام في شيء .

فائدة : ١٩

قوله (... **وعَمُودُه الصَّلاةُ**) .

قال الصنعاني : (الصلاة عماد الدين) العماد ما يعتمد الشيء عليه، كالبيت على أعمدته؛ فقد شبَّه الدين بالخيمة، وجعلت الصلاة عمادها الذي لا تقوم ولا تنفع إلا به، فكل دين لا صلاة فيه، غير قائم، ولا نافع لصاحبه.

وقال أيضاً : العمود كالعماد، وقد حث عليها المصطفى ﷺ قولاً وفعلاً، بما لا مزيد عليه. اهـ.

وقال المناوي في فيض القدير: (الصلاة عماد الدين) قال الغزالي : فيها أسرار لأجلها كانت عماداً ، منها ما فيها من التواضع بالمثول قائما بالركوع والسجود وهي خدمة الله في الأرض، والملوك لا تخدم بالكسل والتهاون بل بالجد والتذلل، فلذلك كانت عماد الدين وعلم الإيمان يكثر بقوته ويقل بضعفه، ولذا كان سعيد بن المسيب دائم الإقبال على الصلاة حتى قيل فيه لو قيل له إن جهنم لتسعر لك وحدك ما قدر على أن يزيد عمله شيئاً. انتهى

فالصلاة عماد الدين وآكد أركانه بعد الشهادتين ، وهي الصلة بين العبد وربه ، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، فإذا صلحت صلح سائر عمله ، وإذا فسدت فسد سائر عمله ، وهي الفارقة بين المسلم والكافر ، فإقامتها إيمان ، وإضاعتها كفر ، فلا دين لمن لا صلاة له ، ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة ، ومن حافظ عليها كانت له نوراً في قلبه ووجهه وقبره وحشره ، وكانت له نجاة يوم القيامة ، وحُشر مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسُن أولئك رفيقا ، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة يوم القيامة ، وحُشر مع فرعون وهامان وقارون وأبيّ ابن خلف .

فائدة : ٢٠

قوله (**وذِرْوَة سنامِهِ الجهاد**) السَّنامُ: ما ارتَفَع مِن ظَهرِ الجمَلِ، والمرادُ: أعْلى ما فيه وأرفَعُه؟

فالجهاد ذروة سنام الإسلام، وهو أعلى ما فيه وأرفعه، لأن فيه إعلاء لكلمة الله ، ونصرة الدين والدفاع عنه وحمايته ، وبه يظهر الإسلامُ ويعلو شأنه على سائرِ الملل، ولذلك كانت للجهاد منزلة ومكانة ليست لغيرة من العبادات، فهو أعلاها بهذا الاعتبار، وكما قيل: لا شيء من معالم الإسلام أشهر ولا أظهر من الجهاد فهو كذروة السنام التي لا شيء في البعير أعلى منه، وعليه يقع بصر الناظرين من بُعدٍ، والحكمة في تشبيهه ﷺ مكانة الجهاد بِذروةِ سنام البعير: لأنها خيار أموالهم، ومن ثَمّ كانوا يُشَبِهون بها رؤساءهم .

فائدة : ٢١

فضائل الجهاد :

أولاً : أن الروحة في سبيل الله خير من الدنيا بما فيها.

لحديث أنس . قال : قال ﷺ (لغدوة في سبيل الله أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها) متفق عليه.

ثانياً: أنه من أفضل الأعمال.

عن أبي ذر قال: (قلت يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله) متفق عليه .

ثالثاً: أن المجاهد أفضل الناس.

عن أبي سعيد الخدري قال: (أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله). متفق عليه

رابعاً: الجهاد لا يعدله شيء.

عن أبي هريرة ﷺ قال: (قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: لا تستطيعونه، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول: لا تستطيعونه، ثم قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم، القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله) متفق عليه .

خامساً: للمجاهدين مائة درجة في الجنة.

قال ﷺ (إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض). رواه البخاري

سادساً: الجهاد سبب للنجاة من النار.

قال ﷺ (ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار). رواه البخاري

قال الحافظ ابن حجر: وفي ذلك إشارة إلى عظم قدر التصرف في سبيل الله، فإذا كان مجرد مسّ الغبار للقدم يحرم عليها النار، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه؟.

سابعاً: من أسباب دخول الجنة.

قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ).

ثامناً: المجاهد يكون الله في عونه.

قال ﷺ (ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف). رواه أحمد

تاسعاً: الجهاد ذروة سنام الإسلام.

قال ﷺ (وذروة سنام الإسلام الجهاد في سبيل الله).

ذروة الشيء: أعلاه.

عاشراً: نفى سبحانه التسوية بين المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين.

قال تعالى: (لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً).

الحادي عشر: أن الجهاد سبب لمغفرة الذنوب.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ).

فائدة : ٢٢

ثم قال (**ألا أُخبِرُكَ بمَلاكِ ذلك كُلِّهِ؟**) أي : بِجماع ذلك كله .

ثم أوصاه بكف لسانه ... وقال وهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجوهِهِمْ، أو على مَنَاخِرِهم إلاَّ حَصائِدُ أَلسِنَتِهِم) .

ففي هذا : أن حفظ اللسان وضبطه أصل لكل خير ، وأن من ملك لسانه فقد ملك أمره وأحكمه وأضبطه .

قال ابن رجب رحمه الله: والمراد بحصائد الألسنة جزاء الكلام المحرم وعقوباته، فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيراً من قول أو عمل حصد الكرامة، ومن زرع شراً من قول أو عمل حصد غداً الندامة.

فاللسان إن تكلم به الكلام المحرم من الغيبة أو النميمة أو السب أو الشتم فإن ذلك من أسباب دخول النار ، ويدل لذلك : حديث الباب (وهل يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم) .

وقوله ﷺ (من وقاه الله شر ما بين لحييه ، وشر ما بين رجليه دخل الجنة) رواه الترمذي .

وقوله ﷺ (إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في نار جهنم) رواه البخار ي .

وفي رواية (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب) متفق عليه .

وكان أبو بكر ﷺ يُمسك بلسانه ويقول: "هذا الذي أوردني الموارد .

وقال عمر ﷺ: من كثُر كلامه كثُر سَقْطُه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه .

وقال ابن مسعود ﷺ: "ما من شيء أحوج إلى طول سجن من اللسان .

وكان ابن عباس ﷺ يمسك بلسانه ويقول: "ويحك قل خيرًا تَغْنَمْ، واسكت عن سوء تسلَمْ، وإلا فاعلم أنك ستندم"، وقال الحسن ﷺ: "ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه".

وقال يونس بن عبيد : خصلتان إذا صلحتا من العبد صلح ما سواهما : صلاته ولسانه .

وقال الحسن بن صالح : فتشت الورع ، فلم أجده في شيء أقل من اللسان .

وقال الحسن : اللسان أمير البدن ، فإذا جنى على الأعضاء شيئاً جنت ، وإذا عفا عفت .

وقال عمرو بن العاص : الكلام كالدواء ، إن أقللت منه نفع ، وإن أكثرت منه قتل .

وقيل : الكلمة أسيرة في وثاق الرجل ، فإذا تكلم بها صار في وثاقها .

قال الشاعر :

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان

كم في المقابر من قتيلِ لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

ورحمة الله على الشافعي إذ يقول:

إذا رمت أن تحيا سليمًا من الردى ودينك موفور وعرضك صين

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكُلُّك عورات وللناس ألْسُنُ

وعيناك إن أبدت إليك معايبًا فَدَعْها وقل يا عين للناس أعين

وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ودافع ولكن بالتي هي أحسن

وإنَّ أكثر ما كان يخافه النبي ﷺ على هذه الأُمَّة هو اللسان .

فقد جاء في حديث سفيان الثقفي الذي رواه الترمذي، وفيه قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوف ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال هذا) .

ووصف النبي ﷺ حقيقة الإسلام: (المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ).

وفى الصحيحين عَنْ أَبي مُوسَى قَال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ المسْلِمِينَ أفْضَلُ؟ قَالَ (مَنْ سَلِمَ المسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ وَيَدِهِ).

وأكثر ذنوب ابن آدم من لسانه .

عَنْ شَقِيقٍ قَالَ: لَبَّى عَبْدُاللَّهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا، ثُمَّ قَالَ: يَا لِسَانُ، قُلْ خَيْرًا تَغْنَمْ، اسْكُتْ تَسْلَمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْدَمَ، قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ، هَذَا شَيْءٌ أَنْتَ تَقُولُهُ أَمْ سَمِعْتَهُ؟ قَالَ: لَا؛ بَلْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّ أَكْثَرَ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فِي لِسَانِهِ).

وما من يوم ينشق صبحه إلا والأعضاءُ كُلُّها تُكَفِّرُ اللسان .

فقد روى الترمذي عن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ عن النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ (إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ، فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسانَ، تَقُولُ: اتّقِ اللَّه فينَا، فَإِنَّما نحنُ بِكَ، فَإِنِ اسْتَقَمْتَ اسَتقَمْنا، وإِنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا).

وأكثر أسباب دخول النار بسبب اللسان .

فقد روى الترمذي- وقال: حديث حسن صحيح- عن أبي هُريرة قَالَ: سُئِلَ رسولُ اللَّه ﷺ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟ قَالَ: (تَقْوى اللَّهِ وَحُسْنُ الخُلُق) وَسُئِلَ عَنْ أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ؟ فَقَالَ: (الفَمُ وَالفَرْجُ) .

وفي رواية (أتدرونَ ما أكثرُ ما يُدخِلُ الناسَ النارَ؟) قالوا: اللهُ ورسولهُ أعلم، قال: (فإنَّ أكثر ما يُدخِلُ الناسَ النارَ الأجوفانِ: الفرجُ والفمُ) .

ولذلك من ضمن لسانه؛ فقد ضمن له النبي ﷺ الجنة .

ففي الصحيحين عَنْ سَهْلِ بنِ سعْدٍ أن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال (مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بيْنَ رِجْلَيْهِ أضْمَنْ لهُ الجَنَّة) .

فإن عظم الجزاء مع عظم البلاء، فأعظم الجزاء هو الجنة، وأعظم البلاء هو اللسان، وقد مات رجل، فأثنوا عليه خيرًا، وشهدوا له بالجنة، فقال النبي ﷺ وما يدريك؟ لعلَّه تكلَّم فيما لا يعنيه) .

وكان من دعاء النبي ﷺ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي، وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي).

فائدة : ٢٣

الانسان يوم القيامة يحصد ما زرع في الدنيا، يؤخذ هذا من قوله ﷺ (حصائد ألسنتهم) فليقم الإنسان على زرعه اليوم وليتعاهده وليصلح منه حتى يكون الحصاد يوم القيامة ثمراً ناضجاً.

فائدة : ٢٤

أن أعظم ما يُطلب هو دخول الجنة والنجاة من النار ، ففيه حثٌّ على سؤال أهل العلم عن الأعمال الموصلة إلى رضوان الله .

فائدة : ٢٥

أن التوحيد أصل النجاة لقوله ﷺ: تعبد الله لا تشرك به شيئًا .

فائدة : ٢٦

أن أركان الإسلام أعظم الأعمال بعد التوحيد

وقد ذكر: الصلاة والزكاة وصيام رمضان والحج ، وهذا يدل على عِظم شأن أركان الإسلام.

فائدة : ٢٧

أن الطاعات ميسَّرة لمن يسَّرها الله عليه ، فينبغي سؤال الله الإعانة والثبات على الطاعة .

فائدة : ٢٨

يربي الحديث المسلم على محاسبة لسانه قبل النطق بأي عبارة هل تقوده إلى النار على وجهه أم لا؟ .

فائدة : ٢٩

دل على أن أكثر أسباب دخول النار هو اللسان فيجب الحذر منه.

فائدة : ٣٠

فضل أعمال السر .

فائدة : ٣١

حسن تعليم النبي ﷺ حيث استخدم: السؤال والجواب، التشويق، التدرج في التعليم، مما يدل على كمال أسلوبه ﷺ في التربية.

فائدة : ٣٢

أن النوافل تكمل الفرائض وترفع الدرجات، فقد ذكر بعد الفرائض أبواب الخير من الصيام والصدقة وقيام الليل.

فائدة : ٣٣

إثبات أثر الذنوب على العبد، فالصدقة تطفئ الخطيئة، وهذا يدل على أن الذنوب تؤثر في القلب وتحتاج إلى ما يمحوها.

فائدة : ٣٤

أن المؤمن يجمع بين الفرائض والنوافل، فلا يقتصر على الحد الأدنى من الطاعات.

٣٠-عَنْ أَبِي ثَعلَبَةَ الخُشَنِيّ ﷺ، عَن النَّبِيّ ﷺ قالَ (إنَّ الله فَرَضَ فرائِضَ، فَلا تُضَيِّعُوها، وحَدَّ حُدُوداً فلا تَعْتَدوها، وحَرَّمَ أَشْياءَ، فلا تَنتهكوها، وسَكَتَ عنْ أشياءَ رَحْمَةً لكُم غَيْرَ نِسيانٍ، فلا تَبحَثوا عَنْها) حديثٌ حسنٌ، رواه الدَّارقطنِيُّ وغيرُهُ.

==========

(**عَنْ أَبِي ثَعلَبَةَ الخُشَنِيّ**) هو الصحابي الجليل أبو ثعلبة الخشني ﷺ، واسمه: جرثوم بن ناشر الخشني، وقيل: جرهم بن ناشر، من قبيلة خُشين، وهي بطن من قبيلة قضاع، وكان من أهل الصدق والإيمان، ولازم النبي ﷺ وروى عنه عددًا من الأحاديث، كان أبو ثعلبة ﷺ من العُبّاد الزهّاد، معروفًا بالورع والخوف من الله، وكان يحب العزلة والابتعاد عن الفتن. وقد أثنى عليه أهل العلم والحديث، سكن بلاد الشام، وقيل إنه توفي سنة ٧٥ هـ تقريبًا، وقيل غير ذلك، وكانت وفاته في نواحي الشام.

(**فرض فرائض**) أي أوجبها على عباده .

(**فلا تضيعوها**) أي فلا تتركوها أو تتهاونوا بها .

(**وحد حدوداً**) الحد لغة المنع ، واصطلاحاً : عقوبة مقدرة شرعاً تزجر وتمنع من المعصية .

(**فلا تنتهكوها**) فلا تفعلوها .

فائدة : ١

الحديث قسم الأحكام إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الفرائض .

(كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، وجميع الواجبات التي أمر الله بها) .

وهذه يجب المحافظة عليها .

والفرض تعريفه : ما ذم تاركه شرعاً .

وحكمه : يثاب فاعله امتثالاً ويعاقب تاركه .

والفرض والواجب بمعنى واحد عند كثير من العلماء .

والفرض ينقسم إلى قسمين : فرض عين – وفرض كفاية .

الفرض العيني : وهو ما يتحتم أداؤه على كل مكلف بعينه .

والفرض الكفائي : وهو ما يتحتم أداؤه على جماعة من المكلفين ، لا من كل فرد منهم ، بحيث إذا قام به بعض المكلفين فقد أدِيَ الواجب ، وسقط الإثم والحرج عن الباقين .

فرض العين أفضل من فرض الكفاية .

لأن فرض العين مفروض حقاً للنفس ، فهو أهم عندها من فرض الكفاية وأكثر مشقة ، بخلاف فرض الكفاية فإنه مفروض حقاً للكفاية ، والأمر إذا عمّ خف ، وإذا خص ثقل .

الفرض أفضل من النفل .

لقوله ﷺ (قال تعالى : وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه) . رواه البخاري

القسم الثاني : الحدود التي حَدَّها الشرع .

كحد الزنا وحد السرقة وحد شرب الخمر ، فهذه يجب الوقوف عندها بلا زيادة ولا نقصان .

الحكمة من هذه الحدود : المنع والزجر عن الوقوع في المعاصي ، وتمنع المعاودة في مثل ذلك الذنب وتمنع غيره أن يسلك مسلكه وإقامة حدود الله في الأرض فيه خير عظيم .

قال ﷺ (حد يقام في أرض الله خير من أن تمطروا أربعين عاماً) . رواه ابن ماجه

القسم الثالث : المحرمات التي حرمها الشارع .

فهذه يحرم فعلها .

(كالشرك ، والقتل بغير الحق ، وشرب الخمر ، والزنا ، وغيرها مما حرمها الشرع) .

تعريف المحرم : لغة : الممنوع ، واصطلاحاً : ما ذم فاعله شرعاً .

وحكمه : يثاب تاركه امتثالاً ، ويعاقب فاعله .

يجب ترك المحرمات والمنهيات كلها .

قال ﷺ (ما نهيتكم عنه فانتهوا) متفق عليه .

القسم الرابع : المسكوت عنه .

وهذا حكمه : حلال .

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : لكن هذا في غير العبادات ، أما في العبادات فقد حرم الله أن يشرع أحد من الناس عبادة لم يأذن بها الله .

وجه الدلالة من الحديث على أن ما سكت عنه فهو عفو :

أنه ﷺ بين أن ما سكت الله عنه بعد الشرع إنما هو مباح رحمة بنا وتخفيفاً عنا ، فلا نبحث عن السؤال عنه ، وهذا دليل على إباحته .

ومعنى كون السكوت رحمة، لأنها لم تحرم فيعاقب على فعلها ، ولم تجب فيعاقب على تركها، بل هي عفو لا حرج في فعلها ولا في تركها.

فائدة : ٢

لا ينبغي البحث والسؤال عما سكت عنه .

لأنه على الأصل ، ولذلك كان النبي ﷺ يكره السؤال وينهى عنه خوفاً أن يفرض على الأمة ، وإنما نهى عن كثرة السؤال خشية أن يرد تكاليف بسبب السؤال قد يشق على بعض الناس امتثالها والإتيان بها .

فائدة : ٣

انتفاء النسيان عن الله تعالى .

قال تعالى (لا يضل ربي ولا ينسى) .

وقال تعالى (وما كان ربك نسياً) .

وأما قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) فالمراد : هنا الترك ، أي تركوا الله فتركهم .

فائدة : ٤

كمال الشريعة الإسلامية ، فالحديث يدل على أن الدين كامل، بيَّن الله فيه ما يحتاجه العباد.

فائدة : ٥

وجوب المحافظة على الفرائض .

فائدة : ٦

أن الأصل في المسلم التسليم لله ، فلا يعترض على أوامر الله أو أحكامه.

فائدة : ٧

أن سكوت الشرع عن بعض الأشياء من التوسعة على الناس، فما لم يأت فيه تحريم أو إيجاب يبقى في دائرة العفو والإباحة غالبًا.

فائدة : ٨

أن المحرمات لها حُرمة عظيمة، لقوله: «فلا تنتهكوها»، والانتهاك يدل على الجرأة والتعدي.

٣١-عَنْ سهلِ بنِ سعْدٍ السَّاعِدِيّ قال: جاءَ رجُلٌ إلى النَّبِيّ ﷺ فقالَ: يا رَسولَ الله دُلَّني عَلى عَمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي الله، وأحَبَّنِي النَّاسُ، فقال :(ازهَدْ فِي الدُّنيا يُحِبَّكَ الله، وازهَدْ فيمَا في أيدي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ) حديثٌ حسنٌ رَواهُ ابنُ ماجه وغيرُهُ بأسانِيدَ حَسَنةٍ.

==========

فائدة : ١

الحديث دليل على أن الزهد سبب لمحبة الله تعالى.

لأن الإنسان لا يزهد في الدنيا حقيقة إلا من أيقن بالجنة.

قال الغزالي رحمه الله: فجعل الزهد سبباً للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أن من محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى.

فائدة : ٢

فضائل الزهد في الدنيا:

أولاً: راحة للقلب والبدن.

قال الحسن: الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن.

ثانياً: سبب لمحبة الله.

كما في حديث الباب (ازهد في الدنيا يحبك الله).

وفي هذا الحديث يقول الإمام الغزالي-رحمه الله- فجعل الزهد سبباً للمحبة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أن محب الدنيا متعرض لبغض الله تعالى.

ثالثاً: أن الله زهدنا فيها.

فقال تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع).

وقال سبحانه (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً).

قال القرطبي: متاع الدنيا منفعتها والاستمتاع بلذاتها، وسماه قليلاً لأنه لا بقاء له.

رابعاً: سبب لهوان المصائب.

قال علي: من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات.

فائدة : ٣

وقد جاءت الكثيرة التي تزهد في الدنيا :

قَالَ الله تَعَالَى (إِنَّمَا مَثَلُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقال تَعَالَى (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا المالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الْدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) .

وقال تَعَالَى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَديدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله ورِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ) .

وقال تَعَالَى (زُيِّنَ لِلْنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالْخَيْلِ المسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الْدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المآبِ) .

وقال تَعَالَى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الْدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ) .

وقال تَعَالَى (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِرَ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) .

وقال تَعَالَى (وَمَا هذِهِ الحَياةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

وَعَنِ اِبْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ (أَخَذَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: "كُنْ فِي اَلدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ" وَكَانَ اِبْنُ عُمَرَ يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ اَلصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ اَلْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِسَقَمِك، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) أَخْرَجَهُ اَلْبُخَارِي.

فهذا الحديث دليل على الحث على الزهد في الدنيا وقصر الأمل.

قال النووي في شرح الحديث: معناه لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بماء يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله.(نووي)

وقال ابن رجب: وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة، ولا وطناً، فينبغي للمؤمن أنْ يكون حالُه فيها على أحد حالين:

أ-إما أنْ يكونَ كأنَّه غريب مقيمٌ في بلد غُربةٍ، همُّه التزوُّد للرجوع إلى وطنه.

ب- أو يكون كأنَّه مسافرٌ غير مقيم البتَّة، بل هو ليله ونهارَه، يسيرُ إلى بلدِ الإقامة.

فلهذا وصّى النَّبيُّ ﷺ ابنَ عمر أنْ يكونَ في الدُّنيا على أحد هذين الحالين.

فأحدهما: أنْ ينْزِل المؤمن نفسه كأنَّه غريبٌ في الدنيا يتخيَّلُ الإقامةَ، لكن في بلد غُربةٍ، فهوَ غيرُ متعلِّقِ القلب ببلد الغربة، بل قلبُه متعلِّقٌ بوطنه الذي يَرجِعُ إليه، وإنّما هو مقيمٌ في الدنيا ليقضي مَرَمَّةَ جهازه إلى الرجوع إلى وطنه.

قال الفضيلُ بن عياض: المؤمن في الدنيا مهمومٌ حزين، همُّه مَرَمَّةُ جهازه.

ومن كان في الدنيا كذلك، فلا همَّ له إلا في التزوُّد بما ينفعُه عندَ عودِه إلى وطنه، فلا يُنافِسُ أهلَ البلدِ الذي هو غريبٌ بينهم في عزِّهم، ولا يَجْزَعُ من الذلِّ عندهم.

الحال الثاني: أن يُنْزِلَ المؤمنُ نفسَه في الدنيا كأنَّه مسافرٌ غيرُ مقيم البتة، وإنَّما هو سائرٌ في قطعِ منازل السَّفر حتّى ينتهي به السفرُ إلى آخره، وهو الموت.

ومن كانت هذه حالَه في الدنيا، فهمَّتُه تحصيلُ الزاد للسفر، وليس له هِمَّةٌ في الاستكثار من متاع الدنيا.

ولهذا أوصى النَّبيُّ - صلى الله عليه وسلم - جماعةً من أصحابه أن يكونَ بلاغُهم من الدُّنيا كزادِ الرَّاكب.

قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحتَ؟ قال: ما ظنُّك برجل يرتَحِلُ كلَّ يومٍ مرحلةً إلى الآخرة؟

فائدة : ٤

من علامات الزهد أن يستوي عند العبد حامده وذامه في الحق.

قال ابن رجب: وهذا من علامات الزُّهد في الدُّنيا، واحتقارها، وقلَّةِ الرَّغبة فيها، فإنَّ من عظُمتِ الدُّنيا عنده أحبَّ المدحَ وكرِهَ الذَّمَّ، فربما حمله ذلك على تركِ كثيرٍ مِنَ الحق خشيةَ الذَّمِّ، وعلى فعلِ كثيرٍ مِنَ الباطلِ رجاءَ المدح، فمن استوى عنده حامدُه وذامُّه في الحقِّ، دلَّ على سُقوط منزلة المخلوقين من قلبه، وامتلائه مِنْ محبَّة الحقِّ، وما فيه رضا مولاه، كما قال ابن مسعود: اليقين أنْ لا تُرضي النَّاسَ بسخط الله، وقد مدح الله الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم.

فائدة : ٥

قال ابن القيم: يحسن إعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين:

أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب.

والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن إجابة الداعي، فيستحضر في نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها، فإنه إن تم عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد.

وقال رحمه الله: ليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهي في قلبك، وإنما الزهد أن تتركها من قلبك وهي في يدك، وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذي يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده، بل كحال سيد ولد آدم صلى الله عليه وسلم حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح، ولا يزيده ذلك إلا زهداً.

فائدة : ٦

قال ابن القيم: والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل، وخيال زائر، وأنها كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ...).

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً، وأجل خطراً، وهي دار البقاء.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ..

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها وتثبت قدمه في مقامه والله الموفق لمن يشاء. ... (طريق الهجرتين)

فائدة : ٧

جاء في الحديث عن أنس ﷺ: أن النبي ﷺ قَالَ (اللَّهُمَّ لاَ عَيْشَ إِلاَّ عَيْشَ الآخِرَةِ) متفقٌ عَلَيْهِ.

فالحديث دليل على تحقير عيش الدنيا لما يعرض له من التكدير وسرعة الفناء.

في الدنيا موت:

قال تعالى (كل من عليها فان).

وفي الآخرة لا موت قال تعالى (وهم فيها خالدون).

في الدنيا هموم وأحزان:

وفي الآخرة لا أحزان ولا هموم: قال تعالى (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ).

في الدنيا ينفد، وفي الآخرة لا ينتهي: قال تعالى (مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ).

وقد قال الشاعر الزاهد:

لا تركننّ إلى القصور الفاخرة .... واذكر عظامك حين تمسي ناخِرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل .... يا رب إنّ العيشَ عيشُ الآخرة

وقال آخر:

وأنظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفنِ

فائدة : ٨

قال ابن القيم : ويكفي في بالزهد في الدنيا:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ).

وقوله (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلاَغٌ).

وقال رحمه الله أيضاً : لا تتمّ الرَّغْبَة فِي الْآخِرَة إِلَّا بالزهد فِي الدُّنْيَا وَلَا يَسْتَقِيم الزّهْد فِي الدُّنْيَا إِلَّا بعد نظرين صَحِيحَيْنِ:

نظر فِي الدُّنْيَا وَسُرْعَة زَوَالهَا وفنائها واضمحلالها ونقصها وخستها وألم الْمُزَاحمَة عَلَيْهَا والحرص عَلَيْهَا وَمَا فِي ذَلِك من الْغصَص والنغص والأنكاد وَآخر ذَلِك الزَّوَال والانقطاع مَعَ مَا يعقب من الْحَسْرَة والأسف فطالبها لَا يَنْفَكّ من هم قبل حُصُولهَا وهم حَال الظفر بهَا وغم وحزن بعد فَوَاتهَا فَهَذَا أحد النظرين.

النّظر الثَّانِي النّظر فِي الْآخِرَة وإقبالها ومجيئها وَلَا بُد ودوامها وبقائها وَشرف مَا فِيهَا من الْخيرَات والمسرات والتفاوت الَّذِي بَينه وَبَين مَا هُنَا فهي كَمَال الله سُبْحَانَهُ (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأبقى) فَهِيَ خيرات كَامِلَة دائمة وَهَذِه خيالات نَاقِصَة مُنْقَطِعَة مضمحلة فَإِذا تمّ لَهُ هَذَانِ النظران آثر مَا يَقْتَضِي الْعقل إيثاره وزهد فِيمَا يَقْتَضِي الزّهْد فِيهِ.

فائدة : ٩

قوله (**وازهَدْ فيمَا في أيدي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ**) فيه فضل الاستغناء عما في أيدي الناس، لأن النبي ﷺ جعله سبباً لمحبة الناس لك.

لأنهم منهمكون على محبتها بالطبع، فمن زاحمهم عليها أبغضوه ، ومن زهد فيها وتركها لهم أحبوه .

وقد جاء في حديث سهل بن سعد مرفوعاً (شرف المؤمن قيامه بالليل ، وعزه استغناؤه عن الناس) رواه الطبراني وحسنه الألباني

وقال الحسن : لا تزال كريماً على الناس، أو لا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك .

وقال أيوب السختياني : لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان : العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم .

وكان عمر يقول في خطبته : إن الطمع فقر ، وإن اليأس غنى ، وإن الإنسان إذا أيس من الشيء استغنى عنه .

وقال أعرابي لأهل البصرة : من سيد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن، قال: بما سادهم ؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم .

قال ابن رجب رحمه الله : وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن مسألة الناس والاستغناء عنهم، فمن سأل الناس ما بأيديهم، كرهوه وأبغضوه، لأن المال محبوب لنفوس بني آدم، فمن طلب منهم ما يحبونه، كرهوه لذلك . انتهى

وجاء في الحديث قوله ﷺ (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ).

قال السعدي: وهاتان الجملتان متلازمتان، فإن كمال العبد في إخلاصه لله رغبة ورهبة وتعلقاً به دون المخلوقين، فعليه أن يسعى لتحقيق هذا الكمال، ويعمل كل سبب يوصله إلى ذلك، حتى يكون عبداً لله حقاً حراً من رق المخلوقين، وذلك بأن يجاهد نفسه على أمرين: انصرافها عن التعلق بالمخلوقين بالاستعفاف عما في أيديهم، فلا يطلبه بمقاله ولا بلسان حاله، ولهذا قال ﷺ لعمر (ما أتاك من هذا المال وأنت غير مشْرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك) فقطع الإشراف في القلب والسؤال باللسان، تعففاً وترفعاً عن من الخلق، وعن تعلق القلب بهم، سبب قوي لحصول العفة.

وتمام ذلك: أن يجاهد نفسه على الأمر الثاني: وهو الاستغناء بالله والثقة بكفايته، فإنه من يتوكل على الله فهو حسبه، وهذا هو المقصود، والأول وسيلة إلى هذا.

وقال ﷺ (اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى) رواه مسلم.

فائدة : ١٠

حب الدنيا مفتاح كل شر وسبب لبُغض الله تعالى وبُغض الناس للعبد.

فائدة : ١١

طلب الكفاية من الدنيا واجب، والزهد: ترك الزائد منها.

فائدة : ١٢

قال الشاطبي رحمه الله: فيه الحرص على محبة الله تعالى للعبد والبحث عن ذلك لا ما يحبب الإنسان في الله، قال علماء السلف: ليست الشأن أن تُحِبَّ ولكن الشأن أن تُحَبَّ.

فائدة : ١٣

قال السندي: إن الدنيا محبوبة عند الناس فمن يزاحمهم فيها يصير مبغوضًا عندهم بقدر ذلك، ومن تركهم ومحبوبهم يكون محبوبًا في قلوبهم بقدر ذلك.

فائدة : ١٤

قد جمع الحديث أصلين عظيمين:

صلاح العلاقة مع الله: ازهد في الدنيا يحبك الله .

وصلاح العلاقة مع الناس: وازهد فيما عند الناس يحبك الناس .

٣٢-عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدريّ ﷺ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ (لا ضَرَرَ ولا ضِرارَ) حديثٌ حَسَنٌ، رَواهُ ابنُ ماجه والدَّارقطنيُّ وغيرهما مُسنداً، ورواهُ مالكٌ في " الموطإ " عَن عَمْرو بن يحيى، عَنْ أَبيهِ، عَنِ النَّبيّ ﷺ مُرسلاً، فأَسقط أبا سعِيدٍ، وله طُرُقٌ يَقْوى بَعضُها بِبَعْضٍ. !!!

==========

(**لا ضرر**) الضرر ضد النفع ، أي لا يضر الرجل أخاه ابتداء .

(**ولا ضرار**) الضرار هو أن يضر بالغير .

فائدة : ١

تحريم إلحاق الضرر بالغير ، وهو ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : أن يكون الغرض من ذلك الضرر .

فهذا لا ريب في قبحه وتحريمه ، وقد ورد في القرآن النهي عن المضارة في مواضع :

منها : في الوصية .

قال تعالى (من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار) .

والإضرار في الوصية تارة يكون بأن يخص بعض الورثة بزيادة على فرضه الذي فرضه الله ، فيتضرر بقية الورثة بتخصيصه .

وتارة بأن يوصي لأجنبي بزيادة على الثلث فينقص حقوق الورثة .

ومتى وصى لوارث أو لأجنبي بزيادة على الثلث لم ينفذ ما وصى به إلا بإجازة الورثة .

ومنها : الرجعة في النكاح .

قال تعالى (فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف) (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) (وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً) .

فدل ذلك على أن من كان قصده بالرجعة المضارة فإنه آثم بذلك، وهذا كما كانوا في أول الإسلام قبل حصر الطلاق في ثلاث: يطلق الرجل امرأته ثم يتركها حتى يقارب انقضاء عدتها ثم يراجعها ثم يطلقها، ويفعل ذلك أبداً بغير نهاية، فيدع امرأته لا مطلقة ولا ممسكة، فأبطل الله ذلك وحصر الطلاق في ثلاث مرات .

القسم الثاني : أن يكون الضرر من غير قصد . كأن يتصرف في ملكه بما يتعدى ضرره إلى غيره ، وهذا على نوعين :

النوع الأول : أن يتصرف على وجه غير معتاد ولا مألـوف ، فلا يسمح له به .

كأن يؤجج ناراً في أرضه في يوم عاصف ، فيحترق ما يليه .

النوع الثاني : أن يتصرف على الوجه المعتاد ، وهذه تختلف وجهات نظر العلماء .

فائدة : ٢

يدخل في عموم قوله ﷺ (لا ضرر) أن الله لم يكلف عباده فعل ما يضرهم البتة ، فإن ما يأمرهم به هو عين صلاح دينهم ودنياهم ، وما نهاهم عنه هو عين فساد دينهم ودنياهم ، لكنه لم يأمر عباده بشيء هو ضار لهم في أبدانهم أيضاً .

ولهذا أسقط الطهارة بالماء عن المريض، وقال (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) .

وأسقط الصيام عن المريض والمسافر، وقال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) .

وأسقط اجتناب محظورات الإحرام كالحلق ونحوه عمن كان مريضاً أو به أذى من رأسه وأمر بالفدية .

فائدة : ٣

الحذر من ظلم الغير .

فائدة : ٤

يُستثنى من هذا إيقاعُ الضررِ بحقٍ، كجهادِ العدوِّ، وقتالِ البغاةِ، وإقامةِ الحدودِ، وكاستيفاءِ الدَّينِ منَ المماطِلِ جبرًا، فذلك كلُّه من إيقاعِ الضررِ لإزالةِ ضررٍ أكبرَ، فكانَ كأكلِ الميتةِ استنقاذًا للحياةِ.

فائدة : ٥

المراد بالحديث : أن الشريعة تنفي الضرر والإفساد، وذلك يكون بمنع وجوده أصلًا، أو برفعه وإزالته بعد وجوده.

فائدة : ٦

الدين حماية للنفس والمال .

٣٣–عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ رَسولَ الله ﷺ قَالَ (لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْواهُم، لادَّعى رِجالٌ أموالَ قَومٍ ودِماءهُم ولكن البَيِّنَةُ على المُدَّعي واليَمينُ على مَنْ أَنْكر) حديثٌ حسنٌ، رواهُ البَيهقيُّ وغيرُهُ هكذا، وبَعضُهُ في " الصحيحين ".

==========

(**لو يعطى الناس**) ما ادعوا أنه حقهم وطالبوا به .

(**بدعواهم**) أي بمجرد قولهم وطلبهم دون ما يثبت ذلك .

(**لادعى رجال**) أي لاستباح وتجرأ بعض الناس دماء غيرهم وأموالهم .

(**البينة**) كل ما يبين الحق من الشهود وغيرهم .

فائدة : ١

حرص الإسلام على حفظ الحقوق .

قال النووي –رحمه الله – وهذا الحديث قاعدة كبيرة من قواعد أحكام الشرع، ففيه: أنه لا يُقبل قول الإنسان فيما يدعيه بمجرد دعواه، بل يحتاج إلى بينة، أو تصديق المدعى عليه، فإن طلب يمين المدعى عليه فله ذلك.

وقال أبو العباس القرطبي -رحمه الله- وهذا الحديث أصل من أصول الأحكام، وأعظم مرجع عند التنازع والخصام، يقتضي ألا يُحكم لأحد بدعواه -وإن كان فاضلًا شريفًا- بحق من الحقوق -وإن كان محتقرًا يسيرًا- حتى يستند المدعي إلى ما يقوي دعواه، وإلا فالدعاوي متكافئة، والأصل: براءة الذمم من الحقوق، فلا بد مما يدل على تعلق الحق بالذمة، وتترجح به الدعوى .

فائدة : ٢

قال الشيخ السعدي رحمه الله: هذا الحديث عظيم القدر، وهو أصل من أصول القضايا والأحكام ، فإن القضاء بين الناس إنما يكون عند التنازع، هذا يدعي على هذا حقاً من الحقوق ، فينكره، وهذا يدعي براءته من الحق الذي كان ثابتاً عليه ، فبين ﷺ أصلاً بفض نزاعهم ، ويتضح به المحق من المبطل، فمن ادعى عيناً من الأعيان، أو ديناً، أو حقاً من الحقوق وتوابعها على غيره، وأنكره ذلك الغير ، فالأصل مع المنكر .

فهذا المدعي إن أتى ببينة تثبت ذلك الحق ، ثبت له ، وحُكمَ له به ، وإن لم يأت ببينة ، فليس له على الآخر إلا اليمين .

فائدة : ٣

الحكمة لا يعطى بمجرد الدعوى .

قال النووي -رحمه الله- وقد بين ﷺ الحكمة في كونه لا يعطى بمجرد دعواه؛ لأنه لو كان أعطي بمجردها لادعى قوم دماء قوم وأموالهم، واستبيح، ولا يمكن المدعى عليه أن يصون ماله ودمه، وأما المدعي فيمكنه صيانتهما بالبينة .

وقال القسطلاني -رحمه الله- (لو يعطى الناس بدعواهم) أي: بمجرد إخبارهم عن لزوم حق لهم على آخرين عند حاكم (لذهب دماء قوم وأموالهم) .

فائدة : ٤

أن البينة على المدعي، أي يقيم المطالب الدليل على صدقه ويُظهر الحجة، ومن البينة الشهود، الذين يشهدون على صدقه .

ويشترط في الشهود :

البلوغ – والعقل – والكلام – والإسلام – والعدالة .

ويكون في الزنا : أربعة رجال ولا يقبل فيها النساء .

وفي النكاح والطلاق والرجعة وبقية الحدود : اثنان .

وفي الأموال وما يقصد به المال كالبيع والأجل : رجلان أو رجل وامرأتان .

الرضاع والولادة والبكارة ، ومثل هذه الأمور التي لا يطلع عليها الرجال ، تقبل شهادة امرأة واحدة .

والحكمة في كون البينة على المدعي :

لأنه يدعي أمراً خفياً بحاجة إلى إظهار ، والبينة دليل قوي لإظهار ذلك .

فائدة : ٥

أنه إذا لم يجد المدعي بينة ولا شهوداً ، فإن القاضي يطلب من المدعَى عليه أن يحلف أن ما ادعاه عليه المدعي غير صحيح ويكون الحكم له بيمينه .

قال ابن رجب -رحمه الله- قوله (واليمين على المدَّعى عليه) يدل على أنَّ كل من ادُّعِيَ عليه دعوى فأنكر، فإن عليه اليمين، وهذا قول أكثر الفقهاء .

ويجب الحذر من الأيمان الكاذبة ، فقد جاء الوعيد في ذلك :

قال ﷺ (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة ، قيل : يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً ، قال : وإن كان قضيباً من أراك) متفق عليه .

فائدة : ٦

بين ﷺ في هذا الحديث الحكم ، وبين الحكمة في هذه الشريعة الكلية ، وأنها عين صلاح العباد في دينهم ودنياهم ، وأنه لو يعطى الناس بدعواهم لكثر الشر والفساد ، ولا ادعى رجال دماء قوم وأموالهم .

فائدة : ٧

البدء بالمدعي في الحكم .

فائدة : ٨

أن الشريعة جاءت لحماية أموال الناس ودماءهم .

فائدة : ٩

حب النفوس للمال .

فائدة : ١٠

الأصل براءة الذمة .

فائدة : ١١

سد باب الدعاوى الكاذبة .

فائدة : ١٢

أن القضاء يقوم على الظاهر .

فائدة : ١٣

عظم شأن الدماء والأموال ، جمع الحديث بينهما للدلالة على خطورة الاعتداء عليهما.

فائدة : ١٤

التحذير من الطمع في حقوق الآخرين ، فالحديث يكشف طبيعة بعض النفوس إذا فُتح باب الادعاء بلا ضابط.

فائدة : ١٥

أن الشريعة راعت مصلحة المجتمع كله

فائدة : ١٦

إذ لو سُمعت الدعاوى بلا إثبات لتعطلت المعاملات وانتشر الخوف بين الناس.

٣٤- عَنْ أبي سَعيدٍ الخُدريّ قال: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَقولُ (مَنْ رَأَى مِنكُم مُنْكَراً فَلْيُغيِّرْهُ بيدِهِ، فإنْ لَمْ يَستَطِعْ فبِلسَانِهِ، فإنْ لَمْ يَستَطِعْ فَبِقلْبِهِ، وذلك أَضْعَفُ الإيمانِ) رواهُ مُسلمٌ.

==========

(**من رأى**) يحتمل أن يكون المراد رؤية البصر، أو أن المراد رؤية القلب، وهي العلم، والثاني أشمل وأعم .

فائدة : ١

قوله (فليغيره ...) فيه الأمر بتغيير المنكر .

وقد اختلف العلماء في حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قولين :

القول الأول : أنه واجب .

لحديث الباب (فليغيره ..) وهذا أمر ، والأمر يدل على الوجوب .

القول الثاني : أنه فرض كفاية .

وهذا مذهب أكثر العلماء .

لقوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) .

قالوا : إن [من] في قوله (منكم) للتبعيض .

قال ابن قدامة : في هذه الآية بيان أنه فرض على الكفاية لا فرض عين ، لأنه قال [ولتكن منكم] ولم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف وهذا القول هو الصحيح .

فائدة : ٢

لكن هناك أحوال يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض عين :

أولاً : التعيين من قبل السلطان .

ثانياً : التفرد بالعلم بأن معروفاً قد ترك ، أو منكراً قد ارتكب .

قال النووي : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية ، ثم إنه قد يتعين إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو .

ثالثاً : انحصار القدرة في أشخاص محددين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره .

فائدة : ٣

الحكمة من شرعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

أ-إقامة الحجة .

ب-لرجاء انتفاع المأمور بما يوعظ به .

ج-القيام بتلك الفريضة يكون المسلم في حل من التقصير الذي يسبب العقوبة .

كما قال تعالى في قصة القرية التي انتهكت الحرمات (وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) .

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة ارتكبت المحظور واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ولكنها قالت للمنكرة :

(لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ) إهلاك: استئصال .

(أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً) لجرأتهم عليه وانتهاكهم حرماته.

(قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ) قال الناهون: أي وعظناهم لأجل المعذرة عند الله وإقامة الحجة.

(وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) ولرجائنا أيضاً أن تؤثر فيهم الموعظة فيتقوا الله ويكفوا عن ما هم مصرون عليه من ارتكاب هذا الذنب العظيم.

قال الشنقيطي: وهذه الآية جاء فيها بيان حكمتين من حكَم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن استقراء القرآن دل على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له ثلاث حكم، تضمنت هذه الآية من سورة الأعراف من تلك الحكم الثلاث اثنتين، فالحكم الثلاث:

الأولى: أن يقيم الإنسان عذره أمام ربه، ويخرج بذلك من عهدة التقصير في الأمر بالمعروف لئلا يدخل في قوله (كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) وهذه الحكمة أشار لها بقوله (مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ).

الحكمة الثانية: هي رجاء انتفاع المذَكَّر.

كما قال هنا عنهم (وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وذكر الله هذه الحكمة في قوله (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

الحكمة الثالثة: هي إقامة الحجة لله على خلقه في أرضه نيابة عن رسله.

لأن الله يقول (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) فأهل العلم يقيمون حجة الله على خلقه بإقامة الحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فائدة : ٤

في هذا الحديث بيان كيفية تغيير المنكر ودرجاته :

أولاً : التغيير باليد .

ويشترط للتغيير باليد أن يكون مستطيعاً، فإن لم يستطع كأن يخاف أن يترتب على ذلك منكراً أعظم أو مفسدة كبرى، فإنه لا يغير بيده .

بدأ بتغيير المنكر باليد ، لأنه أقوى درجات الإنكار ، لأنه إزالة للمنكر بالكلية وزجر عنه .

ثانياً : التغيير باللسان .

كالتذكير والترغيب والترهيب والوعظ .

إذا لم يستطع التغيير باللسان لوجود مانع ، فإنه لا يغير بلسانه .

وهذه المرتبة والتي قبلها يشترط لهما الاستطاعة .

ثالثاً : التغيير بالقلب .

وهذه واجبة على الجميع ، لا تسقط عن أحد ، لثبوت القدرة عليها في حق كل أحد .

قال شيخ الإسلام : فأما القلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن، كما قال النبي ﷺ (وذلك أدنى أو أضعف الإيمان) وقال (ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) .

وقيل لا بن مسعود : من ميت الأحياء ؟ فقال : الذي لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً .

وتغيير المنكر بالقلب يكون بكراهته وبغضه .

فائدة : ٥

أن من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الاستطاعة .

وهذا الشرط مأخوذ من قواعد الشريعة العامة ، من عدم تكليف المسلم ما لا يطيق .

قال تعالى (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) .

قال ابن كثير : أي لا يكلف أحداً فوق طاقته وهذا من لطفه بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم .

وقال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وفي حديث الباب (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع ...) .

فائدة : ٦

من شروط الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر :

أولاً : أن يكون بعلم .

فلا بد من العلم بالمنكر والمعروف ، ولا بد من العلم بحال المأمور وحال المنهي .

قال عمر بن عبد العزيز : من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح .

ثانياً : أن يكون رفيقاً .

كما قال ﷺ (ما كان الرفق في شيء إلا زانه) رواه مسلم .

ثالثاً : أن يكون حليماً صبوراً على الأذى .

فإنه لا بد أن يحصل له أذى .

كما قال لقمان لابنه (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور) .

وقال تعالى (واصبر على ما يقولون) .

وقال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) .

فائدة : ٧

وهل يشترط أن يكون عدلاً ؟ اختلف العلماء في ذلك على قولين :

القول الأول : يشترط ذلك . واستدلوا :

أ- بقوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) .

وهذه الآية ذم لهم .

ب-وبقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون) .

ج-وبحديث أنس . قال : قال ﷺ (رأيت ليلة أسري بي رجالاً تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، قال : فقلت من هؤلاء : قال : هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم) رواه أحمد .

القول الثاني : لا يشترط ذلك . واستدلوا :

أ-بقوله ﷺ (إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر) متفق عليه .

ب-وبعموم الآيات والأحاديث الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ج-ولأن اشتراط العدالة سد لباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

قال سعيد بن جبير : إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شيء لم يأمر أحد بشيء .

وهذا القول هو الصحيح .

قال أبو بكر بن العربي : وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِهِ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَقَالَتْ الْمُبْتَدِعَةُ : لَا يُغَيِّرُ الْمُنْكَرَ إلَّا عَدْلٌ . وَهَذَا سَاقِطٌ ؛ فَإِنَّ الْعَدَالَةَ مَحْصُورَةٌ فِي قَلِيلٍ مِنْ الْخَلْقِ ، وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ .

وقال النووي رحمه الله : قَالَ الْعُلَمَاءُ : وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْآمِرِ وَالنَّاهِي أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْحَالِ ، مُمْتَثِلًا مَا يَأْمُرُ بِهِ ، مُجْتَنِبًا مَا يَنْهَى عَنْهُ ، بَلْ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَإِنْ كَانَ مُخِلًّا بِمَا يَأْمُرُ بِهِ ، وَالنَّهْيُ وَإِنْ كَانَ مُتَلَبِّسًا بِمَا يَنْهَى عَنْهُ ... فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْئَانِ : أَنْ يَأْمُرَ نَفْسَهُ وَيَنْهَاهَا ، وَيَأْمُرَ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ ، فَإِذَا أَخَلَّ بِأَحَدِهِمَا ، كَيْفَ يُبَاحُ لَهُ الْإِخْلَالُ بِالْآخَرِ؟! .

وقال الحافظ ابن حجر : وَأَمَّا مَنْ قَالَ لَا يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ إِلَّا مَنْ لَيْسَتْ فِيهِ وَصْمَةٌ ، فَإِنْ أَرَادَ أَنَّهُ الْأَوْلَى فَجَيِّدٌ ، وَإِلَّا فَيَسْتَلْزِمُ سَدَّ بَابِ الْأَمْرِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غَيْرُهُ .

وقال السفاريني : لَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ : أَنْ يَكُونَ فَاعِلُهُ عَدْلًا فِي الْمُعْتَمَدِ، بَلْ الْإِمَامُ ، وَالْحَاكِمُ، وَالْعَالِمُ، وَالْجَاهِلُ، وَالْعَدْلُ، وَالْفَاسِقُ : فِي ذَلِكَ سَوَاءٌ.

نَعَمْ ، يَنْبَغِي أَنْ لَا يُخَالِفَ قَوْلَهُ فِعْلُهُ ، بَلْ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَأْتَمِرُ بِهِ ، وَيَنْهَى عَنْ الْمُنْكَرِ وَيَنْزَجِرُ عَنْهُ .

فَإِنْ قُلْت: هَذِهِ الْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ أَوْ الْآثَارُ الصَّرِيحَةُ تُعَيِّنُ اعْتِبَارَ عَدَالَةِ الْآمِرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهِي عَنْ الْمُنْكَرِ.

فَالْجَوَابُ : أَنَّ هَذَا هُوَ الْأَكْمَلُ وَالْأَفْضَلُ ، وَنَحْنُ نَقُولُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَكُونَ تَقِيًّا عَدْلًا، وَلَكِنْ فَلَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ ، وَلَوْ لَمْ يَعِظْ النَّاسَ إلَّا مَعْصُومٌ أَوْ مَحْفُوظٌ لَتَعَطَّلَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ مَعَ كَوْنِهِ دِعَامَةَ الدِّينِ.

وَقَدْ قِيلَ:

إذَا لَمْ يَعِظْ النَّاسَ مَنْ هُوَ مُذْنِبٌ *** فَمَنْ يَعِظُ الْعَاصِينَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ

وَقِيلَ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: إنَّ فُلَانًا لَا يَعِظُ وَيَقُولُ : أَخَافُ أَنْ أَقُولَ مَا لَا أَفْعَلُ.

فَقَالَ الْحَسَنُ: وَأَيُّنَا يَفْعَلُ مَا يَقُولُ؟ وَدَّ الشَّيْطَانُ أَنَّهُ قَدْ ظَفِرَ بِهَذَا فَلَمْ يَأْمُرْ أَحَدٌ بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ يَنْهَ عَنْ مُنْكَرٍ.

وَالْحَاصِلُ : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ مَعَ الشُّرُوطِ الْمُتَقَدِّمَةِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَوْ فَاسِقًا أَوْ بِغَيْرِ إذْنِ وَلِيِّ أَمْرٍ حَتَّى عَلَى جُلَسَائِهِ وَشُرَكَائِهِ فِي الْمَعْصِيَةِ وَعَلَى نَفْسِهِ فَيُنْكِرُ عَلَيْهَا ، لِأَنَّ النَّاسَ مُكَلَّفُونَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ . (غذاء الألباب)

فائدة : ٨

أما الجواب عن قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) .

قال القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) اعْلَمْ وَفَّقَكَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ التَّوْبِيخَ فِي الْآيَةِ بِسَبَبِ تَرْكِ فِعْلِ الْبِرِّ ، لَا بِسَبَبِ الْأَمْرِ بِالْبِرِّ .

وقال الحافظ ابن كثير : "وَالْغَرَضُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّهُمْ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ وَنَبَّهَهُمْ عَلَى خَطَئِهِمْ فِي حَقِّ أَنْفُسِهِمْ ، حَيْثُ كَانُوا يَأْمُرُونَ بِالْخَيْرِ وَلَا يَفْعَلُونَهُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ : ذَمُّهُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ بِالْبِرِّ مَعَ تَرْكِهِمْ لَهُ ، بَلْ عَلَى تَرْكِهِمْ لَهُ ... فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفٌ ، وَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَالِمِ ، وَلَكِنَّ الْوَاجِبَ وَالْأَوْلَى بِالْعَالِمِ أَنْ يَفْعَلَهُ مَعَ أَمْرِهِمْ بِهِ ، وَلَا يَتَخَلَّفَ عَنْهُمْ ، كَمَا قَالَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ).

فَكُلٌّ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَفِعْلِهِ : وَاجِبٌ ، لَا يَسْقُطُ أَحَدُهُمَا بِتَرْكِ الْآخَرِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ .

وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ مُرْتَكِبَ الْمَعَاصِي لَا يَنْهَى غَيْرَهُ عَنْهَا ، وَهَذَا ضَعِيفٌ ، وَأَضْعَفُ مِنْهُ تَمَسُّكُهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ؛ فَإِنَّهُ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيهَا .

وقال أبو بكر ابن العربي : إنَّمَا وَقَعَ الذَّمُّ هَاهُنَا عَلَى ارْتِكَابِ مَا نُهِيَ عَنْهُ ، لَا عَنْ نَهْيِهِ عَنْ الْمُنْكَرِ .

فائدة : ٩

قال ابن القيم رحمه الله : إنكار المنكر له أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزل من جملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة ‘‘

قال ابن تيمية : الأمر والنهي – وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة – فينظر في المعارض له : فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به ؛ بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته " انتهى .

مثال : أن النبي ﷺ (نهى أن تقطع الأيدي في الغزو) رواه أبو داود. فهذا حد من حدود الله تعالى، وقد نهى عن إقامته في الغزو خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره من لحوق صاحبه بالمشركين حمية وغضبا، كما قاله عمر وأبو الدرداء وحذيفة وغيرهم.

فائدة : ١٠

قال ابن رجب : وقوله ﷺ في الذي يُنكر بقلبه (وذلك أضعفُ الإيمان) يدلُّ على أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكرِ من خصال الإيمان، ويدلُّ على أنَّ من قدرَ على خَصلةٍ من خصال الإيمان وفعلها، كان أفضلَ مِمَّن تركها عجزاً عنها، ويدلُّ على ذلك أيضاً قوله ﷺ في حقِّ النساء (أمَّا نُقصانُ دينها، فإنَّها تمكثُ الأيَّام واللَّيالي لا تصلّي) يُشير إلى أيَّامِ الحيض، مع أنَّها ممنوعةٌ من الصَّلاةِ حينئذ، وقد جعل ذلك نقصاً في دينها، فدلَّ على أنَّ من قدَرَ على واجبٍ وفعله، فهو أفضلُ ممَّن عجز عنه وتركه، وإنْ كان معذوراً في تركه، والله أعلم.

فائدة : ١١

اعتبار القدرة والاستطاعة ، فالشريعة لا تكلف الإنسان ما لا يطيق.

فائدة : ١٢

أن التغيير باليد ليس لكل أحد ، بل لمن له سلطة أو ولاية أو قدرة معتبرة، حتى لا تترتب فوضى أو مفسدة أكبر.

فائدة : ١٣

مشروعية النصيحة والموعظة الحسنة ، وذلك داخل في التغيير باللسان.

فائدة : ١٤

أن إنكار القلب واجب لا يسقط ، فلا يجوز الرضا بالمنكر أو محبته.

فائدة : ١٥

فيه حماية للمجتمع من انتشار الفساد ، لأن ترك المنكر بلا إنكار يجرئ الناس عليه.

٣٥–عَنْ أَبِي هُريرةَ ﷺ، قالَ: قالَ رسول الله ﷺ (لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعضُكُمْ على بَيعِ بَعضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللهِ إِخْواناً، المُسلِمُ أَخُو المُسلم، لا يَظلِمُهُ ولا يَخذُلُهُ، ولا يَكذِبُهُ، ولا يَحقِرُهُ، التَّقوى هاهُنا) ، – ويُشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ – (بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخَاهُ المُسلِمَ، كُلُّ المُسلمِ على المُسلِمِ حرامٌ: دَمُهُ ومَالُهُ وعِرضُهُ) . رواه مسلم.

==========

فائدة : ١

قوله (**المُسلِمُ أَخُو المُسلم**) فيه أن المسلم أخو المسلم.

كما قال تعالى (إنما المؤمنون إخوة) ومن مقتضيات ذلك ألا يظلمه ولا يكذبه، ولا يغشه، ولا يخونه، ولا يخذله، ولا يحقره.

ولذلك قال (وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً) قال الحافظ: هذه الجملة تشبه التعليل لما تقدم، كأنه قال: إذا تركتم هذه المنهيات كنتم إخواناً، ومفهومه: إذا لم تتركوها تصيروا أعداء.

فقوله (وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَاناً) يحتمل معنيين:

أحدهما: إنه إنشاء يراد به الخبر، أي: إذا تركتم الحسد والتدابر ... فستكونون يا عباد الله إخواناً.

الثاني: أن المراد به حقيقة الأمر، أي: كونوا عباد الله إخواناً فيه.

فائدة : ٢

قوله (**لا تَحَاسَدُوا**) فيه تحريم الحسد .

قال ابن رجب: قوله ﷺ (لا تحاسدوا) يعني: لا يحسُدْ بعضُكم بعضاً، والحسدُ مركوزٌ في طباع البشر، وهو أنَّ الإنسان يكرهُ أن يفوقَهُ أحدٌ منْ جنسهِ في شيءٍ من الفضائل.

وهو كان ذنبَ إبليس حيث حسدَ آدم – عليه السلام – لما رآه قد فاق على الملائكة بأنْ خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكتَه، وعلَّمه أسماء كلِّ شيءٍ، وأسكنه في جواره، فما زال يسعى في إخراجه من الجنَّة حتَّى أخرج منها، ويروى عن ابن عمرَ أنَّ إبليسَ قال لنوح: اثنتان بهما أُهلك بني آدم: الحسد، وبالحسد لُعِنتُ وجُعلتُ شيطاناً رجيماً، والحرص وبالحرص أُبيح آدمُ الجنةَ كلَّها، فأصبتُ حاجتي منه بالحرص. خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا.

وقد وصف الله اليهودَ بالحسد في مواضع من كتابه القرآن، كقوله تعالى (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ).

وقوله (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ). (جامع العلوم).

والحسد: تمني زوال نعمة الله عن الغير، سواء تمنى كونها له أو لغيره، أو مجرد زوالها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: الحسد كراهة نعمة الله على الغير.

فائدة : ٣

خطر الحسد:

أولاً: أنه من صفات اليهود.

كما في قوله تعالى (... حسداً من عند أنفسهم).

وكما في قوله تعالى (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ).

ثانياً: أنه من الإيذاء وتعد على المسلم.

قال تعالى (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً).

ثالثاً: أن النبي ﷺ نهى عنه.

كما في حديث الباب (لا تحاسدوا ...) .

رابعاً: أنه اعتراض على قضاء الله وقدره.

قال ابن القيم: الحسد ثلاث مراتب:

أحدها: أن يحسد ويقوم بمقتضاه من الأذى بالقلب واللسان والجوارح، فهذا الحسد المذموم.

والثاني: تمني استصحاب عدم النعمة، فهو يكره أن يحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله أو فقره أو ضعفه أو شتات قلبه عن الله أو قلة دينه، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مقدر، والأول حسد على شيء محقق، وكلاهما حاسد عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله وعند الناس، ولا يسود أبداً، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً.

والثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه، فهذا لا بأس به ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون).

وفي الصحيح قال ﷺ (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً وسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة، فهو يقضي بها، ويعلمها الناس) فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه، وحب خصال الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

وقال ابن رجب: ثم ينقسم الناس [أي في الحسد] بعدَ هذا إلى أقسام، فمنهم من يسعى في زوال نعمةِ المحسودِ بالبغي عليه بالقول والفعل، ثمَّ منهم من يسعى في نقلِ ذلك إلى نفسه، ومنهم من يَسعى في إزالته عن المحسودِ فقط من غيرِ نقل إلى نفسه، وهو شرُّهما وأخبثهما، وهذا هو الحسدُ المذمومُ المنهيُّ عنه.

وقسم آخر من الناسِ إذا حسدَ غيره، لم يعمل بمقتضى حسده، ولم يبغِ على المحسود بقولٍ ولا فعلٍ. وقد رُوي عن الحسن أنَّه لا يأثمُ بذلك، وروي مرفوعاً من وجوه ضعيفة، وهذا على نوعين:

أحدهما: أنْ لا يمكنه إزالةُ الحسدِ من نفسِه، فيكون مغلوباً على ذَلِكَ، فلا يأثمُ به.

والثاني: من يُحدِّثُ نفسَه بذلك اختياراً، ويُعيده ويُبديه في نفسه مُستروِحاً إلى تمنِّي زوالِ نعمة أخيه، فهذا شبيهٌ بالعزم المصمِّم على المعصية، وفي العقاب على ذلك اختلافٌ بين العلماء، وربما يُذكر في موضعٍ آخر إنْ شاء الله تعالى، لكن هذا يَبعُدُ أن يَسلَمَ من البغي على المحسود، ولو بالقول، فيأثم بذلك.

وقسم آخر إذا حسد لم يتمنَّ زوال نعمة المحسود، بل يسعى في اكتساب مثل فضائله، ويتمنَّى أنْ يكونَ مثله، فإن كانتِ الفضائلُ دنيويَّةً، فلا خيرَ في ذلك، كما قال الَّذينَ يُريدُونَ الحياةَ الدُّنيا (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) وإنْ كانت فضائلَ دينيَّةً، فهو حسن، وقد تمنَّى النَّبيُّ ﷺ الشَّهادة في سبيل الله -عز وجل- وفي الصحيحين عنه ﷺ قال (لا حسدَ إلاَّ في اثنتين: رجلٌ آتاه اللهُ مالاً، فهو يُنفقه آناء الليل وآناء النَّهار، ورجلٌ آتاهُ اللهُ القرآن، فهو يقومُ به آناء اللَّيل وآناءَ النَّهار) وهذا هو الغبطة، وسماه حسداً من باب الاستعارة.

وقسم آخر إذا وجدَ من نفسه الحسدَ سعى في إزالته، وفي الإحسان إلى المحسود بإسداءِ الإحسان إليه، والدُّعاء له، ونشر فضائله، وفي إزالة ما وَجَدَ له في نفسه مِنَ الحسدِ حتّى يبدلَه بمحبَّة أنْ يكونَ أخوه المسلمُ خيراً منه وأفضلَ، وهذا مِنْ أعلى درجات الإيمان، وصاحبه هو المؤمنُ الكاملُ الذي يُحبُّ لأخيه ما يحبُّ

لنفسه، وقد سبق الكلام على هذا في تفسير حديث (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه). (ابن رجب).

من أقوال السلف في الحسد:

قال الأصمعي: رأيت أعرابياً أتى عليه مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك. فقال: تركتُ الحسد فبقيت.

وقال معاوية: كل إنسان أقدر على أن أرضيه، إلا الحاسد، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: غم دائم ونفس متتابع. وقيل رأى موسى عليه السلام، رجلاً عند العرش فغبطه، فقال: ما صفته؟ فقيل: كان لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْحَسَدُ أَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي السَّمَاءِ، يَعْنِي حَسَدَ إبْلِيسَ لِآدَمَ عليه السلام وَأَوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللَّهُ بِهِ فِي الْأَرْضِ، يَعْنِي حَسَدَ ابْنِ آدَمَ لِأَخِيهِ حَتَّى قَتَلَهُ.

وَقَدْ قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَيْسَ فِي خِصَالِ الشَّرِّ أَعْدَلُ مِنْ الْحَسَدِ، يَقْتُلُ الْحَاسِدَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَى الْمَحْسُودِ.

وقال لابنه: يا بني! إياك والحسد، فإنه يتبين فيك قبل أن يتبين في عدوك.

وعن سفيان بن دينار قال: قلت لأبي بشر: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا؟ قال: كانوا يعملون يسيراً ويؤجرون كثيراً، قال: قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم.

وقيل للحسن: أيحسد المؤمن؟ قال: لا أم لك، أنسيت إخوة يوسف، لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه.

وقال ابن سيرين: ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على الدنيا وهي حقيرة في الجنة؟ وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا وهو يصير إلى النار.

قال الشاعر:

كل العداوات قد تُرجَى إماتتها ... إلا عداوةَ من عاداك من حسدِ

وقال الخليل بن أحمد: لا شيء أشبه بالمظلوم من الحاسد.

وقال بعض الحكماء: كل أحد يمكن أن ترضيه إلا الحاسد، فانه لا يرضيه إلا زوال نعمتك.

وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً، يقول: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، حزن لازم، ونفس دائم، وعقل هائم، وحسرة لا تنقضي.

وقال عون بن عبد الله: إياك والكبْر، فإن أول ذنب عصيَ الله به ثم قرأ (وإذ قلنا للملائكة ...) وإياك والحرص، فإنه أخرج آدم من الجنة ثم قرأ (اهبطوا منها)، وإياك والحسد، فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده ثم قرأ (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق).

قال بعض العلماء: بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه:

أولها: قد أبغض كل نعمة قد ظهرت على غيره، والثاني: سخط لقسمته كأنه يقول لربه: لم قسمت هكذا؟، والثالث: أنه ضن بفضله، يعني أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وهو يبخل بفضل الله، والرابع: خذل ولي الله، لأنه يريد خذلانه وزوال النعمة عنه، والخامس: أعان عدوه يعني إبليس لعنه الله .

قال العلماء : الحسد أضر شيء على الحاسد ، لأنه يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل إلى المحسود مكروه :

أولاً : غم لا ينقطع . ثانياً : مصيبة لا يؤجر عليها . ثالثاً : مذمة لا يحمد بها . رابعاً : يسخط عليه الرب . خامساً : تغلق عليه أبواب التوفيق .

فائدة : ٤

قوله (**ولا تَنَاجَشوا**) فيه تحريم النجش .

هو أن يزيد في السلعة وهو لا يريد شراءها.

عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (لا تَلَقَّوْا الرُّكْبَانَ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ. وَلا تَنَاجَشُوا. وَلا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ ...). متفق عليه

وعن ابن عمر. قال (نهى رسول الله ﷺ عن النجش). متفق عليه

وهدف الناجش؟

١ – أن ينفع البائع.

٢ – أن يضر المشتري.

٣ – أو الأمرين جميعاً.

٤ – أو مجرد العبث.

ثالثاً: لو وقع البيع فإن البيع صحيح عند أكثر العلماء.

لأن المنهي عنه هو الفعل لا العقد.

رابعاً: من وقع عليه النجش فإن له الخيار إذا زاد الثمن عن العادة.

الخيار بين: أن يرد السلعة ويأخذ الثمن (الفسخ) أو يبقيها بثمنها الذي استقر عليه العقد.

مسألة: قال العلماء: يستثنى من ذلك مسألتان:

المسألة الأولى: مسألة المزايدة: وهي أن يعرض البائع سلعته في السوق، ويتزايد المشترون فيها، فتباع لمن يدفع الأكثر، وهو المعروف بـ (بيع المزاد العلني) (الحراج).

لأن السلعة معروضة للزيادة، ولأن البائع لم يركن لمشترٍ معين.

بيع المناقصة: كأن تقول مؤسسة نريد عشر سيارات، ولا يذكرون السعر، تأتي شركة تقول عندي سيارات ب (١٠٠) وتقول شركة ثانية نفس السيارات ٩٠.

لأن أصل الشركة لما نزلت المناقصة تريد أقل ما يكون من الأسعار .

فائدة : ٥

قوله (**ولا تَبَاغَضُوا**) فيه تحريم التباغض بين المسلمين .

قال ابن رجب: نهى المسلمين عَنِ التَّباغض بينهم في غير الله، بل على أهواءِ النُّفوسِ، فإنَّ المسلمينَ جعلهمُ الله إخوةً، والإخوةُ يتحابُّونَ بينهم، ولا يتباغضون، وقال النَّبيُّ ﷺ (والذي نفسي بيده، لا تدخُلُوا الجنَّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، ألا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلمتموه تحاببتم؟ أفشوا السَّلام بينكم) خرَّجه مسلم.

وقد حرَّم الله على المؤمنين ما يُوقع بينهم العداوة والبغضاء .

كما قال (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون).

وامتنَّ على عباده بالتَّأليف بين قلوبهم .

كما قال تعالى (وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً).

وقال (هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ).

ولهذا المعنى حرم المشي بالنَّميمة، لما فيها من إيقاع العداوة والبغضاء، ورُخِّصَ في الكذب في الإصلاح بين النَّاس، ورغَّب الله في الإصلاح بينهم، كما قال تعالى (لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً).

وخرَّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذيُّ من حديث أبي الدرداء، عن النَّبيِّ ﷺ قال (ألا أخبركم بأفضلَ مِنْ درجة الصلاة والصيام والصَّدقة؟) قالوا: بلى يا رسول الله، قال (صلاحُ ذاتِ البينِ؛ فإنَّ فسادَ ذات البين هي الحالِقةُ).

وأمَّا البغض في الله، فهو من أوثق عرى الإيمان، وليس داخلاً في النَّهي.

فائدة : ٦

قوله (**ولا تَدَابَرُوا**) فيه تحريم التدابر .

وَالتَّدَابُرُ : أنْ يُعْرِضَ عَنِ الإنْسَان ويَهْجُرَهُ وَيَجْعَلهُ كَالشَيءِ الَّذِي وَرَاء الظَّهْر وَالدُّبُر.

فقوله (ولا تدابروا) أي: لا يهجر أحدكم أخاه، وإن رآه أعطاه دبره أو ظهره؛ قال ﷺ (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) .

ويمكن للمسلم أن يتجنب الهجران بمعرفة خطورته :

أولاً : أنه حرام .

لحديث الباب (ولا تدابروا) .

وللحديث (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) .

ثانياً : خطر من هجر أخاه سنة .

قال ﷺ (من هجر أخاه سنة فهو كسفك دمه) رواه أبو داود .

ثالثاً : أن التهاجر والتقاطع يفرح الشيطان .

قال ﷺ (إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه ، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : فعلت كذا وكذا ، فيقول : ما صنعت شيئاً ، ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، قال : فيدنيه منه ويقول : نعم أنت) .

وقال ﷺ (إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن في التحريش بينهم) رواه مسلم .

رابعاً : لا ترفع أعمال المتهاجرين .

قال ﷺ (تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس ، فيغفر الله لكل امرئ لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقول : أنظروا هذين حتى يصطلحا) رواه مسلم .

خامساً : معرفة فضل من بدأ منهما بالسلام .

قال ﷺ (وخيرهما الذي يبدأ بالسلام) .

تنبيه :

والهجر لا يجوز مطلقاً في الأمور الدنيوية، أما لأجل الدين فيجوز إذا كان لمصلحة وفيه منفعة، وقد هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا، وأمر بهجرهم .

فائدة : ٧

قوله (**ولا يَبِعْ بَعضُكُمْ على بَيعِ بَعضٍ**) فيه تحريم بيع المسلم على بيع أخيه .

عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ (لا يبيع الرجل على بيع أخيه ...) متفق عليه.

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ (لا يبع بعضكم على بيع بعض) رواه مسلم.

وعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال (المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع على بيع أخيه) رواه مسلم.

مثاله:

أن يشتري شخص من إنسان سلعة بـ (١٠) ثم يأتيه آخر ويقول: أعطيك مثلها بـ (٩) أو يقول أعطيك أحسن منها بـ (١٠).

ومثل البيع الشراء:

مثال: علمتُ أن زيداً باع على عمرو بيته بـ (١٠٠) فذهبت إلى زيد وقلت له: أنت بعت بيتك على عمرو بـ (١٠٠) أنا سأعطيك (١٢٠).

الحكمة من النهي: حصول التحاسد والتباغض.

هل يجوز البيع على بيع الكافر؟ فيه قولان للعلماء، أرجحها أنه لا يجوز، وأما قول الرسول ﷺ (لا يبع المسلم على بيع المسلم) إنما هو بناء على الأغلب.

مثال: اشترى مسلم من كافر سلعة، فلا يجوز أن يذهب البائع المسلم ويقول له: أنا أعطيك السلعة بأقل.

فائدة : ٨

قوله (المسلِمُ أَخُو المسلم، لا يَظلِمُهُ) .

الحديث دليل على تحريم الظلم، وأنه ينافي الأخوة الإيمانية.

وقد تقدمت الأدلة في تحريم الظلم .

فائدة : ٩

قوله (ولا يَخذُلُهُ)

الخذلان: ترك النصرة والإعانة، قال القرطبي: أي لا يتركه لمن يظلمه ولا ينصره.

ولذلك جاء في الحديث : عن أنس قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ (انْصُرْ أَخَاكَ ظَالماً أَوْ مَظْلُوماً) فَقَالَ رجل: يَا رَسُول اللهِ، أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُوماً، أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ ظَالِماً كَيْفَ أَنْصُرُهُ؟ قَالَ (تَحْجُزُهُ – أَوْ تَمْنَعُهُ – مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِكَ نَصرُه) رواه البخاري.

وجاء في رواية للبخاري (فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه) وللإسماعيليّ من رواية معاذ، عن حميد (فقال: يَكُفّه عن الظلم، فذاك نصره إياه) ولمسلم من حديث جابر ﷺ نحوه، وفيه (إن كان ظالما، فليَنْهَه، فإنه له نصرةٌ).

فالحديث دليل على وجوب نصرة المسلم لأخيه المسلم، فإن كان مظلوماً أعانه ووقف معه، وإن كان ظالماً منعه وحجزه عن الظلم.

وفي حديث البراءِ قَالَ (أمرنا رَسُول الله ﷺ بسبع، ونهانا عن سبع: أَمَرَنَا بعيَادَة المرِيض، وَاتِّبَاعِ الجَنَازَة، وتَشْمِيتِ العَاطسِ، وَإبْرار المُقْسِم، ونَصْرِ المظْلُوم ...) .

فائدة : ١٠

قوله (**ولا يَكذِبُهُ**) فيه تحريم الكذب .

عن ابن مسعود ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ (إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا) متفقٌ عَلَيْهِ.

وعن أبي هُرَيرةَ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال (آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِن خان) متفق عليه .

المقصودُ من الحديثِ: أنَّ هذه الخِصالَ خِصالُ نِفاقٍ، وصاحِبُها شبيهٌ بالمنافِقين في هذه الخِصالِ، ومتخَلِّقٌ بأخلاقِهم، لا أنَّه مُنافِقٌ نِفاقًا أكبرَ يُظهِرُ الإسلامَ وهو يُبطِنُ الكُفرَ، بل هو نفاقٌ أصغَرُ عَمَليٌّ، وذَكَر من هذه الخِصالِ: أن يحَدِّثَ بحديثٍ لمن يصَدِّقُه به وهو كاذِبٌ له، وفي هذا تنفيرٌ وتحذيرٌ من الوقوعِ في الكَذِبِ.

وعن الحَسَنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال (حَفِظتُ من رسولِ اللهِ ﷺ : دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك؛ فإنَّ الصِّدقَ طُمَأنينةٌ، وإنَّ الكَذِبَ رِيبةٌ) .

قال ابنُ رجبٍ: يشيرُ إلى أنَّه لا ينبغي الاعتمادُ على قولِ كُلِّ قائلٍ، كما قال في حديثِ وابصةَ: "وإنْ أفتاك النَّاس وأفتَوك"، وإنما يعتَمَدُ على قولِ من يقولُ الصِّدقَ، وعلامةُ الصِّدقِ أنَّه تطمَئِنُّ به القلوبُ، وعلامةُ الكَذِبِ أنَّه تحصُلُ به الرِّيبةُ، فلا تسكُنُ القلوبُ إليه، بل تنفِرُ منه.

ومن هنا كان العُقلاءُ في عهدِ النَّبيِّ ﷺ إذا سمِعوا كلامَه وما يدعو إليه عرَفوا أنَّه صادِقٌ، وأنَّه جاء بالحَقِّ، وإذا سَمِعوا كلامَ مُسيلِمةَ عرَفوا أنَّه كاذِبٌ، وأنَّه جاء بالباطِلِ .

وعن أبي ذرٍّ عن النَّبيِّ ﷺ قال (ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ولا ينظُرُ إليهم ولا يُزَكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ. قال: فقرأها رسولُ اللهِ ﷺ ثلاثَ مرارٍ، قال أبو ذرٍّ: خابوا وخَسِروا! من هم يا رسولَ اللهِ؟ قال: المسبِلُ، والمنَّانُ، والمنَفِّقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذِبِ) .

قولُه (والمنَفِّقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذِبِ) أي: الذي يرَوِّجُ متاعَه بالحَلِفِ الكاذِبِ، مثلُ أن يقولَ البائِعُ للمُشتري: اشتريتُ هذا بمئةِ دينارٍ واللهِ، ولم يشتَرِها بمئةٍ، بل بأقَلَّ من مئةٍ .

قال عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ما كَذَبتُ منذُ عَلِمتُ أنَّ الكَذِبَ يَشينُ صاحِبَه .

وقال الأحنَفُ: ما خان شريفٌ، ولا كَذَب عاقِلٌ، ولا اغتاب مُؤمِنٌ. وكانوا يحلِفون فيَحنَثون، ويقولون فلا يَكذِبون .

وقال الماوَرديُّ : الكَذِبُ جِماعُ كُلِّ شَرٍّ، وأصلُ كُلِّ ذمٍّ لسُوءِ عواقبِه، وخُبثِ نتائجِه؛ لأنَّه يُنتِجُ النَّميمةَ، والنَّميمةُ تُنتِجُ البغضاءَ، والبغضاءُ تَؤولُ إلى العداوةِ، وليس مع العداوةِ أمنٌ ولا راحةٌ؛ ولذلك قيل: من قَلَّ صِدقُه قَلَّ صديقُه .

وقال ابنُ القَيِّمِ: إيَّاك والكَذِبَ؛ فإنَّه يُفسِدُ عليك تصوُّرَ المعلوماتِ على ما هي عليه، ويفسِدُ عليك تصويرَها وتعليمَها للنَّاسِ .

فائدة : ١١

قوله (**ولا يَحقِرُهُ ... بِحَسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخَاهُ المُسلِمَ**) فيه تحريم احتقار المسلم .

قال تعالى (يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ...).

ينهى تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، ثم بين الحكمة: فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه والمحتقر له (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) فنص على نهي الرجال، وعطف بنهي النساء، ففي الآية تحريم السخرية والاستهزاء بالناس واحتقارهم.

قال ابن رجب: قوله (بحسب امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يحقِرَ أخاه المسلم) يعني: يكفيه مِنَ الشرِّ احتقارُ أخيه المسلم، فإنَّه إنَّما يحتقرُ أخاه المسلم لتكبُّره عليه، والكِبْرُ من أعظمِ خِصالِ الشَّرِّ، وفي صحيح مسلم عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال (لا يدخلُ الجنَّة من في قلبه مثقالُ ذرَّةٍ من كِبْرٍ).

وفيه أيضاً عنه أنَّه قال (العزُّ إزاره والكبر ردائه، فمن نازعني عذَّبتُه) فمنازعته الله تعالى صفاته التي لا تليقُ بالمخلوق، كفى بها شراً.

وفي صحيح ابن حبان عن فَضالة بنِ عُبيدٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال (ثلاثة لا يُسأل عنهم: رجلٌ يُنازعُ الله إزاره، ورجلٌ يُنازع الله رداءه، فإنَّ رداءه الكبرياء، وإزاره العزُّ، ورجلٌ في شكٍّ من أمر الله تعالى والقُنوطِ من رحمة الله).

والسخرية تستلزم أمور:

أولاً: أنها من أعظم الشرور.

قال ﷺ (... بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم).

ثانياً: ربما يكون المسخور منه أفضل وأعظم عند الله من الساخر.

كما جاء في هذه الآية: (عسى أن يكونوا خيراً منهم).

وقال ﷺ (ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره).

ثالثاً: أن السخرية من صفات الكفار بالمؤمنين.

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ).

وقال تعالى: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ).

رابعاً: دليل على الكبر والتعاظم.

وقد قال ﷺ (الكبر بطر الحق وغمط الناس) أي احتقارهم.

خامساً: دليل على سوء الخلق.

ولهذا قال ﷺ (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المؤمن ...).

سادساً: أنه مناف لقضاء الله.

لأن هذا إذا كان فقيراً أو ضعيفاً فهذا من قدر الله وقضائه.

سابعاً: دليل على ضعف الإيمان.

لأن المؤمن الكامل دائماً يتهم نفسه ويخاف أن لا يتقبل منه.

ثامناً: أن الساخر، كما قال ﷺ (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم).

وقال ﷺ (يأتي الرجل السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة). متفق عليه

تاسعاً: أن السخرية من تقديم أمر الدنيا على الآخرة.

لأن الساخر نظر إلى وضعه الدنيوي ولم ينظر أنه ربما يكون عند الله أعظم وأفضل.

قال ابن مسعود: لو سخرت من كلب لخشيت أن أكون كلباً.

فائدة : ١٢

قوله (**التَّقوى هاهُنا) ويُشيرُ إلى صدرِهِ ثلاثَ مرَّاتٍ**) .

قال ابن رجب: قوله (لتَّقوى هاهنا) يشير إلى صدره ثلاثَ مرَّاتٍ) فيه إشارةٌ إلى أنَّ كرم الخَلْق عند الله بالتَّقوى، فربَّ من يحقِرُه الناس لضعفه، وقلَّةِ حظِّه من الدُّنيا، وهو أعظمُ قدراً عند الله تعالى ممَّن له قدرٌ في الدُّنيا، فإنَّ الناسَ إنّما يتفاوتُون بحسب التَّقوى.

كما قال الله تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُم).

وسئل النَّبيُّ ﷺ مَنْ أكرمُ الناسِ؟ قال (أتقاهُم لله).

وفي حديث آخر (الكرمُ التَّقوى).

وإذا كان أصلُ التَّقوى في القُلوب، فلا يطَّلعُ أحدٌ على حقيقتها إلا الله –عز وجل–، كما قال ﷺ (إنَّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكُم وأموالِكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم) وحينئذ، فقد يكونُ كثيرٌ ممَّن له صورةٌ حسنةٌ، أو مالٌ، أو جاهٌ، أو رياسةٌ في الدنيا، قلبه خراباً من التقوى، ويكون من ليس له شيء من ذلك قلبُه مملوءاً مِنَ التَّقوى، فيكون أكرمَ عند الله تعالى، بل ذلك هو الأكثر وقوعاً، كما في الصحيحين عن حارثةَ بن وهبٍ، عن النَّبيّ – صلى الله عليه وسلم – قال (ألا أُخبِرُكم بأهل الجنَّةِ: كلُّ ضعيف متضعَّفٍ، لو أقسم على الله لأبرَّهُ، ألا أخبركم بأهل النَّارِ: كلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُستكبِرٍ).

وفي المسند عن أنس عن النَّبيّ ﷺ قال (أمَّا أهلُ الجنَّة، فكلُّ ضعيفٍ متضعَّفٍ، أشعث، ذي طِمرين، لو أقسمَ على الله لأبرَّه؛ وأمَّا أهلُ النَّارِ، فكلُّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظ جمَّاعٍ، منَّاعٍ، ذي تَبَع).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النَّبيّ ﷺ قال (تحاجَّت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرين، وقالتِ الجنَّةُ: لا يدخُلُني إلا ضعفاءُ النَّاس وسَقَطُهم، فقال الله للجنَّةِ: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أعذِّبُ بكِ من أشاء من عبادي).

وخرَّجه الإمام أحمد من حديث أبي سعيدٍ عن النَّبيّ ﷺ قال (افتخرت الجنَّةُ والنَّارُ، فقالت النار: يا ربِّ، يدخُلُني الجبابرة والمتكبِّرون والملوكُ والأشرافُ، وقالت الجنَّةُ: يا ربِّ يدخُلُني الضُّعفاء والفقراءُ والمساكين) وذكر الحديث.

فائدة : ١٣

قوله (**كُلُّ المُسلمِ على المُسلِمِ حرامٌ: دَمُهُ ومَالُهُ وعِرضُهُ**) فيه دليل على تحريم دم المسلم بغير حق.

كما قال تعالى (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما).

وقد تقدمت الأدلة .

وفيه تحريم مال المسلم بغير حق .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم).

وقال تعالى (وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون).

وعن أَبِي بَكْرَةَ قال: قال ﷺ (... فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ). متفق عليه

وقال ﷺ (لاَ يَحِل مَال امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلاَّ بِطِيبِ نَفْسِهِ) .

وقال ﷺ (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقيامَةِ حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحَاء مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاء) رواه مسلم .

وعن أُمِّ سَلَمةَ أَن رسول الله ﷺ قال (إِنَّمَا أَنَا بشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحُجَّتِهِ مِنْ بَعْض، فأَقْضِي لَهُ بِنحْو ما أَسْمَعُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ) متفق عليه. «أَلْحَنَ» أَيْ: أَعْلَم.

وعن أَبِي قَتَادَةَ الْحارثِ بنِ ربعي ﷺ عن رسول الله ﷺ (أَنَّهُ قَام فِيهِمْ، فذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الْجِهادَ فِي سبِيلِ الله، وَالإِيمانَ بِالله أَفْضلُ الأَعْمالِ، فَقَامَ رَجلٌ فقال: يا رسول الله أَرَأَيْت إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيلِ الله، تُكَفِّرُ عني خَطَايَايَ؟ فقال لَهُ رسولُ الله ﷺ نعَمْ إِنْ قُتِلْتَ فِي سَبِيلِ الله وأَنْتَ صَابر مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غيْرَ مُدْبِرٍ، ثُمَّ قال رسول الله ﷺ : كيْف قُلْتَ؟ قال: أَرَأَيْتَ إِنْ قُتِلْتُ فِي سَبِيل الله، أَتُكَفرُ عني خَطَايايَ؟ فقال رسول الله ﷺ : نَعمْ وأَنْت صابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقبِلٌ غَيْرَ مُدْبِرٍ، إِلاَّ الدَّيْن فَإِنَّ جِبْرِيلَ قال لِي ذلِكَ) رواه مسلم .

وفيه تحريم عرض المسلم من غيبة أو سب أو شتم .

عن أَبِي هُرِيْرَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قال (مَنْ كَانتْ عِنْدَه مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ، مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مِنْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْه منْه الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ لا يكُونَ دِينَارٌ ولا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَملٌ صَالحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقدْرِ مظْلمتِهِ، وإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئَاتِ صاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ) رواه البخاري .

ب-وعنه. قال: قال ﷺ (أتدْرُون من الْمُفْلِسُ؟ قالُوا: الْمُفْلسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ. فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقيامةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويأْتِي وقَدْ شَتَمَ هذا، وقذَف هذَا وَأَكَلَ مالَ هَذَا، وسفَكَ دَم هذَا، وَضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذَا مِنْ حسَنَاتِهِ، وهَذا مِن حسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حسناته قَبْلَ أَنْ يقْضِيَ مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عليْه، ثُمَّ طُرِح فِي النَّارِ) رواه مسلم

٣٦-عَنْ أبي هُريرة ﷺ، عَن رسول الله ﷺ قال (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤمِنٍ كُرْبةً مِنْ كُرَبِ الدُّنيا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيامَةِ، ومَنْ يَسَّرَ على مُعسِرٍ، يَسَّرَ الله عَليهِ في الدُّنيا والآخرَةِ، ومَنْ سَتَرَ مُسلِماً، سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرة، واللهُ في عَوْنِ العَبْد ما كَانَ العَبْدُ في عَوْنِ أخيهِ، ومَنْ سَلَكَ طَريقاً يَلتَمِسُ فِيه عِلماً، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَريقاً إلى الجَنَّةِ، وما جَلَسَ قَومٌ في بَيْتٍ مِنْ بُيوتِ الله، يَتْلُونَ كِتابَ الله، ويَتَدارَسُونَه بَينَهُم، إلاَّ نَزَلَتْ عليهِمُ السَّكينَةُ، وغَشِيتْهُمُ الرَّحمَةُ، وحَفَّتْهُم المَلائكَةُ، وذَكَرَهُم الله فِيمَنْ عِنْدَهُ، ومَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لم يُسرِعْ بِهِ نَسَبُهُ) رواهُ مسلمٌ.

==========

(**مَنْ نَفَّسَ**) أي : فرج .

(**كُرْبَةً**) الشدة العظيمة .

(**وَمَنْ يَسَّرَ**) **أي** : سهل .

(**عَلَى مُعْسِرٍ**) المعسر : من أثقلته الديون وعجز عن وفائها .

(**وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ**) إعانته وتسديده .

(**مَا كَانَ الْعَبْدُ**) أي : ما دام .

(**وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا**) يشمل الطريق الحسي والمعنوي .

(**السَّكِينَةُ**) الطمأنينة .

(**وَحَفَّتْهُمُ**) أي : أحاطت بهم .

(**الملائكة**) عالم غيبي خلقوا من نور عملهم عبادة الله .

(**وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ**) أي : أخر .

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث :

قال النووي : وهو حديث عظيم ، جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب .

فائدة : ٢

الحديث دليل على فضل تنفيس الكرب عن المؤمنين ، وهذا يشمل كل كربة سواء في البدن أو في المال .

كإقراضه مال ، أو فك أسره ، أو الوقوف معه في محنته .

فائدة : ٣

الحديث دليل على أن التنفيس والتفريج عن المسلمين من أسباب التنفيس والنجاة من كرب يوم القيامة .

وأسباب النجاة من كرب يوم القيامة كثيرة :

منها : التنفيس عن المسلمين .

لحديث الباب (من نفس عن مؤمن كربة ...) .

ومنها : إنظار المعسر أو الوضع عنه .

قال ﷺ (من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينظر معسر أو يضع عنه) رواه مسلم .

ومنها : الوفاء بالنذر ، وإطعام الطعام لله .

قال تعالى (يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا . وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا . فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا).

فائدة : ٤

الحديث دليل على أن الجزاء من جنس العمل، فكما نفس عن مسلم في الدنيا، جزاه الله أن نفس عنه كربة من كرب يوم القيامة.

وهذه قاعدة عظيمة في الشرع وهي أن الجزاء من جنس العمل، وأدلتها كثيرة .

قال تعالى (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) .

وقال تعالى (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ) .

وقال تعالى (أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ) .

وقال ﷺ (من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة) رواه مسلم .

وقال ﷺ (احفظ الله يحفظك) .

وقال ﷺ (والشاة إن رحمتها رحمك الله) رواه أحمد .

وقال ﷺ (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) متفق عليه .

وقال ﷺ (من وصل صفاً وصله الله) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

وقال ﷺ (من كان له وجهان في الدنيا ، كان له لسانان من نار يوم القيامة) رواه أبو داود .

قال ابن رجب: قوله ﷺ (من نفَّس عن مؤمنٍ كربةً من كرب الدُّنيا، نفَّس الله عنه كُربة من كرب يوم القيامة) هذا يرجعُ إلى أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، وقد تكاثرت النُّصوصُ بهذا المعنى، كقوله ﷺ (إنَّما يرحم الله من عِباده الرُّحماء) وقوله (إنَّ الله يعذِّب الَّذين يُعذِّبونَ النَّاس في الدُّنيا).

والكُربة: هي الشِّدَّةُ العظيمة التي تُوقعُ صاحبَها في الكَرب، وتنفيسُها أن يُخفَّفَ عنه منها، مأخوذٌ مِنْ تنفيس الخناق، كأنه يُرخى له الخناق حتَّى يأخذ نفساً، والتفريجُ أعظمُ منْ ذلك، وهو أنْ يُزيلَ عنه الكُربةَ، فتنفرج عنه كربتُه، ويزول همُّه وغمُّه، فجزاءُ التَّنفيسِ التَّنفيسُ، وجزاءُ التَّفريجِ التَّفريجُ، كما في حديث ابن عمر، وقد جُمعُ بينهما في حديثِ كعبِ بن عُجرة.

فائدة : ٥

إثبات يوم القيامة ، **وسمي بذلك :**

أولاً : لقيام الناس من قبورهم .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثانياً : لقيام الأشهاد .

كما قال تعالى (وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

ثالثاً : لقيام الروح والملائكة .

كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً) .

فائدة : ٦

أن في يوم القيامة كرباً عظيمة .

قال تعالى (وكان يوماً على الكافرين عسيراً) .

وقال تعالى (على الكافرين غير يسير) .

وقال سبحانه (يقول الكافرون هذا يوم عسر) .

وقال ﷺ (يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعاً ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم) رواه مسلم .

قال القحطاني رحمه الله :

يوم القيامة لو علمتَ بهوله ... لفررت من أهلٍ ومن أوطانِ

يومٌ تشققت السماء لهوله ... وتشيب منه مفارق الولدان

يوم عبوس قمطريرٌ شرهُ ... في الخلقِ منتشرٌ عظيم الشأنِ

فائدة : ٧

قوله (**ومن يسر على معسر يسر** ...) فيه فضل التيسير على المسلمين، وخاصة المعسرين، **وأن من يسر على معسر جازاه الله بأمرين:**

التيسير في الدنيا – والتيسير في الآخرة .

فائدة : ٨

فضل إنظار المعسر والوضع عنه.

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ) متفق عليه.

عن أبي قتادة قال: سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنْجِيَهُ اللَّهُ مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ أَوْ يَضَعْ عَنْهُ). رواه مسلم

عن أبي الْيَسَرِ عن رَسُول اللَّهِ ﷺ قال (مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّه) رواه مسلم.

عن أبي هُريرة ﷺ عَن رسول الله ﷺ قال (... ومَنْ يَسَّرَ على مُعسِرٍ، يَسَّرَ الله عَليهِ في الدُّنيا والآخرَةِ ...) .

وعنْ أبي هُريرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رسُولُ اللَّه ﷺ (من أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ، أظلَّهُ اللَّه يَوْمَ القِيامَةِ تَحْتَ ظِلّ عَرْشِهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ) رواهُ الترمذيّ.

قال ابن رجب: والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين:

إمّا بإنظاره إلى الميسرة، وذلك واجبٌ، كما قال تعالى (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ).

وتارةً بالوضع عنه إن كان غريماً، وإلاّ فبإعطائه ما يزولُ به إعسارُه، وكلاهما له فضل عظيم.

والتيسير على المعسر الذي لا يملك شيئاً واجب ، ولا يجوز مطالبته .

لقوله تعالى (وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) .

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: ومن فوائد الآية: وجوب إنظار المعسر، أي: إمهاله حتى يوسر، لقول الله تعالى: (فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ): فلا تجوز مطالبته بالدين، ولا طلب الدين منه.

فائدة : ٩

قوله (**ومَنْ سَتَرَ مُسلِماً، سَتَرَهُ اللهُ في الدُّنيا والآخِرة**) .

قوله (وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا) أي: رآه على قبيح فلم يظهره.

فيه فضل الستر على المسلم .

وقد قال ﷺ (لاَ يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْداً فِي الدُّنْيَا إلاَّ سَتَرَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَة) رواه مسلم

وقال ﷺ (من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته) رواه ابن ماجه .

وقال ﷺ (يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته) رواه أبو داود .

قال الإمام مالك : أدركت بهذه البلدة – يعني المدينة – أقواماً ليس لهم عيوب ، فعابوا الناس فصارت لهم عيوب ، وأدركت بهذه البلدة أقواماً كانت لهم عيوب ، فسكتوا عن عيوب الناس فنسيتْ عيوبهم .

قال ابن رجب رحمه الله : واعلم أن الناس على ضربين :

أحدهما : من كان مستوراً لا يعرف بشيء من المعاصي ، فإذا وقعت منه هفوة أو زلة ، فإنه لا يجوز هتكها ولا كشفها ولا التحدث بها ، لأن ذلك غيبة محرمة ، وهذا هو الذي وردت فيه النصوص .

ومثل هذا لو جاء تائباً نادماً، وأقر بحده لم يفسره ولم يستفسره، بل يؤمر بأن يرجع ويستر نفسه، كما أمر النبي ﷺ ماعزاً والغامدية.

والثاني : من كان مشتهراً بالمعاصي معلناً بها، ولا يبالي بما ارتكب منها، ولا بما قيل له، هذا هو الفاجر المعلن، ومثل هذا لا بأس بالبحث عن أمره، لتقام عليه الحدود، ومثل هذا لا يشفع له إذا أخذ ولو لم يبلغ السلطان، بل يترك حتى يقام عليه الحد، ليكشف ستره ، ويرتدع به أمثاله .

وقال النووي: وَأَمَّا السَّتْر الْمَنْدُوب إِلَيْهِ هُنَا فَالْمُرَاد بِهِ السَّتْر عَلَى ذَوِي الْهَيْئَات وَنَحْوهمْ مِمَّنْ لَيْسَ هُوَ مَعْرُوفًا بِالْأَذَى وَالْفَسَاد. فَأَمَّا الْمَعْرُوف بِذَلِكَ فَيُسْتَحَبّ أَلَّا يُسْتَر عَلَيْهِ، بَلْ تُرْفَع قَضِيَّته إِلَى وَلِيّ الْأَمْر إِنْ لَمْ يَخَفْ مِنْ ذَلِكَ مَفْسَدَة؛ لِأَنَّ السَّتْر عَلَى هَذَا يُطْمِعهُ فِي الْإِيذَاء وَالْفَسَاد، وَانْتَهَاك الْحُرُمَات، وَجَسَارَة غَيْره عَلَى مِثْل فِعْله. هَذَا كُلّه فِي سَتْر مَعْصِيَة وَقَعَتْ وَانْقَضَتْ .

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) أجمع العلماء على أن مَن اطَّلع على عيبٍ أو ذنبٍ أو فجورٍ لمؤمن من ذوي الهيئات أو نحوهم ممَّن لم يُعرَف بالشر والأذى ولم يشتهر بالفساد، ولم يكن داعيًا إليه؛ كأن يشرب مسكرًا أو يزني أو يفجر متخوفًا متخفيًا غير متهتّك ولا مجاهر – يُندَب له أن يستره، ولا يكشفه للعامة أو الخاصة، ولا للحاكم أو غير الحاكم .

فائدة : ١٠

من دواعي الستر على الناس: تذكر المرء عيوب نفسه:

الاشتغال بعيوب الناس سببٌ في فضح عيوب المشتغِل، والسكوت عن عيوب الناس سببٌ في ستر الله للعبد، ومَن نظَر لعيوب نفسه شغلتْه عن عيوب الناس، جاء في الأثر (يبصر أحدكم القَذَى في عين أخيه وينسى الجذع في عينه).

قال الشاعر:

إذا رُمتَ أنْ تَحيا سَليماً مِن الأذى ... وَ دينُكَ مَوفورٌ وعِرْضُكَ صَيِنُّ

لِسانُكَ لا تَذكُرْ بِهِ عَورَةَ امرئٍ ... فَكُلُّكَ عَوراتٌ وللنّاسِ ألسُنُ

وعَيناكَ إنْ أبدَتْ إليكَ مَعايِباً ... فَدَعها وَقُلْ يا عَينُ للنّاسِ أعيُنُ

وعاشِرْ بِمَعروفٍ وسامِحْ مَن اعتَدى ... ودَافع ولكن بالتي هِيَ أحسَنُ

فائدة : ١١

عون الله لمن أعان مسلماً .

لقوله (**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**) .

وفي حديث ابن عمر . قال : قال ﷺ (مَنْ كَانَ فِي حَاجَة أخيه، كَانَ اللهُ فِي حَاجَته ...) .

وفي حَدِيثِ جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَال (مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَل) رواه مسلم.

قال ابن رجب: وخرَّج الطبراني من حديث عمر مرفوعاً (أفضلُ الأعمال إدخالُ السُّرور على المؤمن: كسوت عورته، أو أشبعت جَوْعَتُه، أو قضيت له حاجة).

وبعث الحسنُ البصريُّ قوماً من أصحابه في قضاء حاجة لرجل وقال لهم: مرُّوا بثابت البناني، فخذوه معكم، فأتوا ثابتاً، فقال: أنا معتكف، فرجعوا إلى الحسن فأخبروه، فقال: قولوا له: يا أعمش أما تعلم أنَّ مشيك في حاجةِ أخيك المسلم خير لك مِنْ حجة بعد حَجَّةٍ؟ فرجعوا إلى ثابتٍ، فترك اعتكافه، وذهب معهم.

وخرَّج الإمام أحمد من حديث ابنةٍ لخبَّاب بن الأرت، قالت: خرج خبَّاب في سريَّةٍ، فكان النَّبيُّ ﷺ يتعاهدُنا حتى يحلُب عنْزةً لنا في جَفْنَةٍ لنا، فتمتلئ حتّى تفيضَ، فلمَّا قدم خبَّابٌ حلبَها، فعادَ حِلابها إلى ما كان.

وكان أبو بكر الصدّيق ﷺ يحلبُ للحيّ أغنامهم، فلمَّا استخلف، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلُبُها، فقال أبو بكر: بلى وإني لأرجو أن لا يغيّرني ما دخلتُ فيه عن شيءٍ كنتُ أفعلُه، أو كما قال.

وكان عمر يتعاهد الأرامل فيستقي لهنَّ الماءَ باللَّيل، ورآه طلحةُ بالليل يدخلُ بيتَ امرأةٍ، فدخلَ إليها طلحةُ نهاراً، فإذا هي عجوزٌ عمياءُ مقعدةٌ، فسألها: ما يصنعُ هذا الرَّجلُ عندك؟ قالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدني يأتيني بما يُصلِحُني، ويخرج عنّي الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمُّكَ طلحةُ، عثراتِ عمر تتبع؟

وكان أبو وائل يطوفُ على نساء الحيّ وعجائزهم كلَّ يوم، فيشتري لهنَّ حوائجهنّ وما يُصلِحُهُنَّ.

وقال مجاهد: صحبتُ ابنَ عمر في السفر لأخدمه، فكان يخدُمُني.

وكان كثيرٌ من الصَّالحِين يشترطُ على أصحابه في السفر أنْ يخدُمَهم. ... (جامع العلوم).

قال ابن القيم -رحمه الله- في وصف شيخ الإسلام ابن تيميه: كان شيخ الإسلام يسعى سعياً شديداً لقضاء حوائج الناس.

قال الذهبي عن شيخ الإسلام رحمه الله ابن تيمية: وله محبون من العلماء، والصلحاء، ومن الجند، والأمراء، ومن التجار والكبراء وسائر العامة تحبه، لأنه منتصب لنفعهم ليلًا ونهارًا، بلسانه وقلمه.

كان علي بن الحسين -رحمه الله- يحمل الخبز إلى بيوت المساكين في الظلام فلما مات فقدوا ذلك، كان ناس من أهل المدينة يعيشون ولا يدرون من أين معاشهم فلما مات علي بن الحسين فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل.

ومن نعم الله تعالى على العبد أن يجعله مفاتحاً للخير والإحسان.

عَنْ سَهْلِ بن سَعْدٍ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَال (عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، وَمِغْلاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، وَمِغْلاقًا لِلْخَيْرِ) رواه ابن ماجه.

وأن يسخره لقضاء حوائج الناس.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّ لِلَّهِ أَقْوَامًا اخْتَصَّهُمْ بِالنِّعَمِ لِمَنَافِعِ الْعِبَادِ، وَيُقِرُّهَا فِيهِمْ مَا بَذَلُوهَا، فَإِذَا مَنَعُوهَا نَزَعَهَا عَنْهُمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى غَيْرِهِم) أخرجه الطبراني.

ولقد ضرب النبي ﷺ المثل والنموذج الأعلى في الحرص على الخير والبر والإحسان، وفي سعيه لقضاء حوائج الناس وبخاصة للضعفاء والأيتام، والأرامل:

عَنْ أَنَسٍ ﷺ (أَنَّ امْرَأَةً كَانَ فِي عَقْلِهَا شَيْءٌ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، فَقَالَ: يَا أُمَّ فُلاَنٍ، انْظُرِي أَيَّ السِّكَكِ شِئْتِ، حَتَّى أَقْضِيَ لَكِ حَاجَتَكِ، فَخَلاَ مَعَهَا فِي بَعْضِ الطُّرُقِ، حَتَّى فَرَغَتْ مِنْ حَاجَتِهَا) رواه مسلم.

والسعي في قضاء حوائج الناس من الشفاعة الحسنة التي أمرنا الله تعالى بها.

فقال (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا).

عَنْ أَبِي بُرْدَةَ بنِ أَبِي مُوسَى، عَنْ أَبِيهِ، قال (كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ. قال: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، ويقْضِي الله عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا شَاء) متفق عليه.

قال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبَهُم * * * فطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

وكُنْ على الدّهرِ مِعْوَانًا لذي أملٍ * * * يرجو نَداكَ فإنّ الحُرَّ مِعْوانُ

واشْدُدْ يديك بحبلِ اللهِ معتصمًا * * * فأنّه الرّكنُ إنْ خانتك أركانُ

من كان للخير منّاعًا فليس له * * * على الحقيقة إخوانٌ وأخْدانُ
من جاد بالمال مالَ النّاسُ قاطبةً * * * إليه والمالُ للإنسان فتّانُ
قيل لابن المنكدر أي الأعمال أفضل؟ قال: إدخال السرور على المؤمن. قيل أي الدنيا أحب إليك؟ قال الإفضال على الإخوان. أي التفضل عليهم والقيام بخدمتهم.
وقال وهب بن منبه: إن أحسن الناس عيشاً من حسن عيش الناس في عيشه وإن من ألذ اللذة الإفضال على الإخوان.
وكان خال القسري يقول: على المنبر أيها الناس عليكم بالمعروف فإن فاعل المعروف لا يعدم جوازيه.
قال ابن عباس: إن لله عباداً يستريح الناس إليهم في قضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم أولئك هم الآمنون من عذاب يوم القيامة.
وقال الضحاك في قوله تعالى (إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِين) في قصة يوسف عليه السلام كان إحسانه إذا مرض رجل بالسجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان وسع له إذا احتاج جمع سأل له.
قال عمرو بن العاص: في كل شيء سَرَفٌ إلا في ابتناء المكارم أو اصطناع المعروف، أو إظهار مروءة.
وقد قيل: صنائع المعروف تقي مصارع السوء.
قال ابن عباس: صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكئاً.

فائدة : ١٢

ثمرات فعل المعروف:

أولاً: صرف البلاء.

قال ﷺ (من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة) .
وقال خديجة للنبي ﷺ لما جاءها وهو يقول زملوني قالت (كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).
وفي الحديث (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) رواه الطبراني.

ثانياً: دخول الجنة.

قال ﷺ (لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَرِيقِ كَانَتْ تُؤذِي المسْلِمِين) رواه مسلم.
ثالثاً: مغفرة الذنوب والنجاة من أهوال الآخرة.
وعن أَبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَال (كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ: إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِراً فَتَجَاوَزْ عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا، فَلَقِيَ اللهَ فَتَجَاوَزَ عَنْه) متفقٌ عَلَيْهِ.
وقال ﷺ (بَينَما رَجُلٌ يَمشي بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئراً فَنَزَلَ فِيهَا فَشربَ، ثُمَّ خَرَجَ فإذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يأكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبُ مِنَ العَطَشِ مِثلُ الَّذِي كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً ثُمَّ أمْسَكَهُ بفيهِ حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ الله لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ) متفق عليه.

فائدة : ١٣

آداب صنع المعروف:
وَاعْلَمْ أَنَّ لِلْمَعْرُوفِ شُرُوطًا لَا يَتِمُّ إِلَّا بِهَا، وَلَا يَكْمُلُ إِلَّا مَعَهَا:

من ذلك: إخلاصه.

قال تعالى (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً).وقال تعالى (إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله (... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها ...).

ومِنْ ذَلِكَ: سَتْرُهُ عَنْ إذَاعَةٍ يَسْتَطِيلُ لَهَا، وَإِخْفَاؤُهُ عَنْ إشَاعَةٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا.

قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إذَا اصْطَنَعَتْ الْمَعْرُوفَ فَاسْتُرْهُ، وَإِذَا صُنِعَ إلَيْ فَانْشُرْهُ.

عَلَى أَنَّ سَتْرَ الْمَعْرُوفِ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ ظُهُورِهِ، وَأَبْلَغَ دَوَاعِي نَشْرِهِ؛ لِمَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ النُّفُوسُ مِنْ إظْهَارِ مَا خُفِّي وَإِعْلَانُ مَا كُتِمَ.

وَمِنْ شُرُوطُ الْمَعْرُوفِ: تَصْغِيرُهُ.

لِئَلَّا يَصِيرَ بِهِ مُدِلًّا بَطِرًا وَمُسْتَطِيلًا أَشِرًا.

وقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ: لَا يَتِمُّ الْمَعْرُوفُ إلَّا بِثَلَاثٍ خِصَالٍ: تَعْجِيلُهُ وَتَصْغِيرُهُ وَسَتْرُهُ، فَإِذَا عَجَّلْتَهُ هَنَّأْتَهُ، وَإِذَا صَغَّرْتَهُ عَظَّمْتَهُ، وَإِذَا سَتَرْتَهُ أَتْمَمْتَهُ.

وَمِنْ شُرُوطِ الْمَعْرُوفِ: مُجَانَبَةُ الِامْتِنَانِ بِهِ وَتَرْكُ الْإِعْجَابِ بِفِعْلِهِ.

لِمَا فِيهِمَا مِنْ إسْقَاطِ الشُّكْرِ، وَإِحْبَاطِ الْأَجْرِ.

وَسَمِعَ ابْنُ سِيرِينَ رَجُلًا يَقُولُ لِرَجُلٍ: فَعَلْتُ إلَيْك وَفَعَلْتُ، فَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: اُسْكُتْ فَلَا خَيْرَ فِي الْمَعْرُوفِ إذَا أُحْصِيَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْمَنُّ مَفْسَدَةُ الصَّنِيعَةِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: كَدَّرَ مَعْرُوفًا امْتِنَانٌ وَضَيَّعَ حَسَبًا امْتِهَانٌ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: مَنْ مَنَّ بِمَعْرُوفِهِ أَسْقَطَ شُكْرِهِ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِعَمَلِهِ أُحْبِطَ أَجْرُهُ.

وَمِنْ شُرُوطِ الْمَعْرُوفِ: أَنْ لَا يَحْتَقِرَ مِنْهُ شَيْئًا.

وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا نَزْرًا إذَا كَانَ الْكَثِيرُ مَعُوزًا وَكُنْت عَنْهُ عَاجِزًا، فَإِنَّ مَنْ حَقَّرَ يَسِيرَهُ فَمَنَعَ مِنْهُ أَعْجَزَهُ كَثِيرُهُ فَامْتَنَعَ عَنْهُ، وَفِعْلُ قَلِيلِ الْخَيْرِ أَفْضَلُ مِنْ تَرْكِهِ.

فائدة : ١٤

أن سلوك طريق العلم مؤد إلى الجنة ، وهذا الطريق يدخل فيه سلوك الطريق الحقيقي ، وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلماء، ويدخل فيه سلوك الطرق المعنوية إلى حصول العلم، **مثل** : حفظه، ومدارسته ، ومذاكرته ، ومطالعته ، وكتابته .

فائدة : ١٥

فضل طلب العلم ، وأنه من أسباب دخول الجنة ، **وللعلم فضائل كثيرة** :

أولاً : أنه من أسباب دخول الجنة .

لحديث الباب .

ثانياً : من أسباب الرفعة .

قال تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) .

ثالثاً : أن الله لم يأمر نبيه بالاستزادة إلا من العلم .

قال تعالى (وقل رب زدني علماً) .

قال ابن القيم : وكفى بهذا شرفاً للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه .

رابعاً : أن الله استشهدهم وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة .

قال تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) .

قال القرطبي : هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء ، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء .

خامساً : أن العلم دليل على الخير .

قال ﷺ (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) متفق عليه .

قال الحافظ ابن حجر : يفقهه : أي يفهمه ، ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين – أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع – فقد حرم الخير .

سادساً : أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم .

قال ﷺ (وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع) رواه أبو داود .

قال ابن القيم : ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعاً له وتوقيراً وإكراماً لما يحمله من ميراث النبوة .

قال الخطابي : وفي معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنه بسط الأجنحة . **الثاني** : أنه بمعنى التواضع تعظيماً لطالب العلم . **الثالث** : أنه المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران " .

سابعاً : العلماء ورثة الأنبياء .

قال ﷺ (وإن العلماء ورثة الأنبياء) رواه أبو داود .

ثامناً : فضل العلم أفضل من فضل العبادة .

قال ﷺ (فضل العلم خير من فضل العبادة) رواه الطبراني .

من أقوال السلف .

قال علي : كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه .

وقال معاذ : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح .

وقال الشافعي : ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم .

وقال : من أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم .

وقال سهل بن عبد الله : من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء .

وقال الزهري : ما عبد الله بمثل الفقه .

وقال الثوري : ما من عملٍ أفضل من طلب العلم إذا صحت النية .

قال ابن القيم : من طلب العلم ليحيي به الإسلام فهو من الصديقين ، ودرجته بعد درجة النبوة .

فائدة : ١٦

فضل الاجتماع على ذكر الله ومدارسة القرآن .

قال ابن رجب رحمه الله : هذا يدل على استحباب الجلوس في المساجد لتلاوة القرآن ومدارسته ، وهذا إن حمل على تعلم القرآن وتعليمه فلا خلاف في استحبابه .

وفي صحيح البخاري عن عثمان عن النبي ﷺ (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : فذلك الذي أقعدني في مقعدي هذا .

وكان قد علم القرآن في زمن عثمان بن عفان حتى بلغ الحجاج بن يوسف .

وكان النبي ﷺ أحياناً يأمر من يقرأ القرآن ليسمع قراءته، كما كان ابن مسعود يقرأ عليه، وقال: (إني أحب أن أسمعه من غيري).

وكان عمر يأمر من يقرأ عليه وعلى أصحابه وهم يستمعون ، فتارة يأمر أبا موسى ، وتارة يأمر عقبة بن عامر .

وجاءت أحاديث تدل على فضل الاجتماع على ذكر الله مطلقاً :

ففي الصحيحين عن أبي هريرة . عن النبي ﷺ قال (إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون حلق الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم ، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا .. الحديث وفيه : فيقول الله : أشهدكم أني غفرت لهم) .

وفي صحيح مسلم عن معاوية (أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومنّ علينا به ، فقال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ، قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة) .

قال ابن القيم رحمه الله : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه ، ثم ذكر حديث (إن لله ملائكة سيارة) .

وقال : فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم ، فلهم نصيب من قوله : وجعلني مباركاً أينما كنت ، فهكذا المؤمن مبارك أين حل ، والفاجر مشؤوم أين حل .

فائدة : ١٧

أن من جلس في بيت من بيوت الله لذكر الله وقراءة القرآن ، **فإنه يحصل على أربع مزايا** :

الأولى : تتنزل عليهم السكينة .

ففي الصحيحين عن البراء بن عازب قال (كان رجل يقرأ سورة الكهف وعنده فرس ، فتغشته سحابة فجعلت تدور وتدنو ، وجعل فرسه ينفر منها ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له ، فقال : تلك السكينة تنزل للقرآن) .

الثانية : غشيان الرحمة .

الثالثة : أن الملائكة تحف بهم .

الرابعة : أن الله يذكرهم فيمن عنده .

قال ابن رجب رحمه الله: وهذه الأربع لكل مجتمعين على ذكر الله، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد كلاهما عن النبي ﷺ قال: إن لأهل الذكر تعالى أربعاً: تنزل عليهم السكينة، وتغشاهم الرحمة، وتحف بهم الملائكة، ويذكرهم الرب فيمن عنده).

فائدة : ١٨

أن من ذكر الله ذكره الله .

كما قال تعالى (فاذكروني أذكركم) .

وقال ﷺ (قال تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه) متفق عليه .

فائدة : ١٩

الحث على تدبر القرآن وتفهمه .

قال ابن تيمية : المطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به ، فإن لم تكن هذه همته لم يكن من أهل العلم والدين .

قال ابن القيم : فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكر .

وقال النووي : وينبغي للقارئ أن يكون شأنه الخشوع والتدبر والخضوع، فهذا هو المقصود المطلوب، وبه تنشرح الصدور، وتستنير القلوب .

وقال الحسن البصري : يا ابن آدم كيف يرق قلبك ، وإنما همتك في آخر السورة .

وقال إبراهيم الخواص : دواء القلوب في خمسة : ... وذكر منها : قراءة القرآن بالتدبر .

وقد ذم النبي ﷺ الخوارج بقوله : (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم) أي أنهم يأخذون أنفسهم بقراءة القرآن وإقرائه وهم لا يتفقهون فيه ولا يعرفون مقاصده .

فائدة : ٢٠

أن العبرة بالإيمان والعمل الصالح لا الأحساب والأنساب ، فالله رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب .

قال تعالى (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها) .

وقال تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) .

وقال ﷺ (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) .

وقال ﷺ (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم) رواه مسلم .

وعن أبي هريرة . قال : قال رسول الله ﷺ حين أنزل عليه (وأنذر عشيرتك الأقربين) (يا معشر قريش! اشتروا أنفسكم من الله، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ... ، يا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئاً). متفق عليه

٣٧–عَنِ ابنِ عَبَّاسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما عَنْ رَسولِ الله ﷺ فِيمَا يَروي عَنْ رَبِّهِ تَبارَكَ وتَعَالى قَالَ (إنَّ الله – عز وجل – كَتَبَ الحَسَناتِ والسيِّئاتِ، ثمَّ بَيَّنَ ذلك، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبها الله عِنْدَهُ حَسنَةً كَامِلةً، وإن هَمَّ بِها فَعَمِلَها، كَتَبَها الله عَنْدَهُ عَشْرَ حَسناتٍ إلى سبع مئة ضِعْفٍ إلى أضعاف كَثيرةٍ، وإنْ هَمَّ بسيِّئة، فلمْ يَعْمَلها، كَتَبَها عِنْدَهُ حَسنةً كَامِلةً، وإنْ هَمَّ بِهَا، فعَمِلَها كَتَبَها الله سيِّئة واحِدَةً) رَواهُ البُخارِيُّ ومُسلمٌ.

==========

(إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ والسَّيِّئَاتِ) الكتابة بمعنى التدوين والإحصاء، والمراد أنها مكتوبة على العبد في الأزل.

(ثُمَّ بَيَّنَ ذلِكَ) أي: فصله.

فائدة : ١

في هذا الحديث بيان كتابة الحسنات والسيئات والهم بالحسنة والسيئة.

والكتابة القدرية للحسنات والسيئات تشمل أمرين:

أحدها: كتابة عمل الخلق لها. والآخر: كتابة ثوابها وتعيينُه.

وكلاهما حق، إلا أن المراد منها في هذا الحديث الثاني.

والحسنة شرعاً: اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب الحسن، وهي كل ما أمر به الشرع.

والسيئة شرعاً: اسم لكل ما تُوعّد عليه بالثواب السيئ، وهي كل ما نهى عنه الشرع نهي تحريم.

فائدة : ٢

في هذا الحديث بيان كتابة الحسنات والسيئات والهم بالحسنة والسيئة ، وأنها تنقسم إلى أنواع :

الأول : الهم بالحسنة ولم يعملها .

قال ﷺ (**فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنةٍ، فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبها الله عِنْدَهُ حَسنَةً كَامِلةً**) .

فهذه يكتبها الله عنده حسنة كاملة.

وفي رواية (إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة، فأنا أكتبها له حسنة).

والمراد بالهمّ هنا هو همّ الخطرات، فإذا وجد في القلب خطرة إلى الحسنة كتبها الله له حسنة وإن لم يعمل.

الثاني : الهم بالحسنة وعملها .

قال ﷺ (**وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ**) .

فمن هم بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات، وهذا شامل لكل الحسنات.

وكما قال تعالى (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا).

وأما زيادة المضاعفة على العشر لمن شاء الله أن يضاعف له : تكون حسب الإخلاص والإحسان في العمل.

كما قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

وعن ابن مسعود قال (جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: يا رسول الله! هذه في سبيل الله، فقال: لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة).

رواه مسلم

وفي حديث الصيام (قال تعالى: إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به) متفق عليه.

قال النووي: التَّضْعِيف بِعَشْرَةِ أَمْثَالهَا لَا بُدّ بِفَضْلِ اللَّه وَرَحْمَته وَوَعْده الَّذِي لَا يُخْلَف، وَالزِّيَادَة بَعْد بِكَثْرَةِ التَّضْعِيف إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْف، وَإِلَى أَضْعَاف كَثِيرَة، يَخْصُل لِبَعْضِ النَّاس دُون بَعْض عَلَى حَسَب مَشِيئَته سُبْحَانه وَتَعَالَى.

وقال ابن رجب: إن مضاعفة الحسنات زيادة على العشر تكون بحسب حسن الإسلام، ويكون بحسب كمال الإخلاص، وبحسب فضل ذلك العمل في نفسه، وبحسب الحاجة إليه.

وقال ابن حجر: وهذا يدل على أن تضعيف حسنة العمل إلى عشرة مجزوم به وما زاد عليها جائز وقوعه بحسب الزيادة في الإخلاص وصدق العزم وحضور القلب وتعدى النفع كالصدقة الجارية والعلم النافع والسنة الحسنة وشرف العمل ونحو ذلك .

وقال الشيخ ابن عثيمين (إلى سبعمائة ضعف) وهذا تحت مشيئة الله تعالى، فإن شاء ضاعف هذا، وإن شاء لم يضاعف.

وقال ابن تيمية: وفي الصحيحين (إن امرأة بغيا رأت كلباً في يوم حار يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش فنزعت له موقها فسقته به فغفر لها) وفي لفظ في الصحيحين (أنها كانت بغياً من بغايا بني إسرائيل).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (بينما رجل يمشي في طريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له).

فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلباً يغفر لها.

وكذلك هذا الذي نحَّى غصن الشوك عن الطريق ، فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه ، فغفر له بذلك، فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص ، وإن الرجلين ليكون مقامهما في الصف واحداً وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ، وليس كل من نحَّى غصن شوك عن الطريق يغفر له.

وقال: والمقصود أن فضل الأعمال وثوابها ليس لمجرد صورها الظاهرة ، بل لحقائقها التي في القلوب ، والناس يتفاضلون في ذلك تفاضلاً عظيماً.

وقال رحمه الله: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله ، فيغفر الله له به كبائر، كما في الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: (يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق فينشر عليه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر ، فيقال: هل تنكر من هذا شيئاً؟ فيقول: لا يا رب ، فيقول: لا ظلم عليك ، فتخرج له بطاقة قدر الكف فيها شهادة أن لا إله إلا الله ، فيقول: أين تقع هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فتوضع هذه البطاقة في كفه ، والسجلات في كفة ، فثقلت البطاقة وطاشت السجلات).

فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق ، كما قالها هذا الشخص، وإلا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون: لا إله إلا الله ، ولم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجّح قول صاحب البطاقة.

الثالث : الهم بالسيئة فلم يعملها .

قال ﷺ **(وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً)** .

فهذا تكتب له حسنة كاملة .

لكن بشرط : إذا كان تركها من خشية الله كما في رواية لمسلم (إنما تركها من أجلي أو من جرائي).

ومثل قصة الذي همّ بابنة عمه بسوء فتركها لله، فأجاب الله دعاءه وفرج همه فانفرجت الصخرة.

فإن تركها مخافة المخلوقين ومرآتهم : فيعاقب على هذا.

فإن تركها بسبب عدم القدرة عليها مع الاشتغال بتحصيل أسبابها : فهذا يعاقب كمن عمِل، فتكتب عليه سيئة.

قال الشيخ ابن عثيمين: من همّ بالسيئة وسعى في تحصيلها لكن عجز عنها، فهذا يكتب عليه وزر السيئة كاملاً، دليل ذلك، قول النبي ﷺ (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله! هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه كان حريصاً على قتل صاحبه).

الرابع : من همّ بسيئة فعملها .

قال ﷺ **(وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً)** .

فهذا تكتب عليه سيئة واحدة من غير مضاعفة .

كما قال تعالى (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ).

فمن عمل سيئة تكتب عليه سيئة بمثلها من غير مضاعفة ولهذا قال (كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً) إشارة إلى أنها غير مضاعفة.

لكن السيئة تعظُم أحياناً بشرف الزمان أو المكان.

فائدة : ٣

الحديث دليل على عظم فضل الله ورحمته بعباده.

فمن رحمته: أن الحسنة مضاعفة، والسيئة لا تضاعف.

ومن رحمته: جعل أبواب الجنة ثمانية وأبواب النار سبعة.

ومن رحمته: ما جاء في قوله ﷺ (إن الله تجاوز لي عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).

ومن رحمته: ما جاء في حديث (وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي).

ومن رحمته: أن أمة الإسلام هي أقل الأمم عملاً، وأكثرهم أجراً.

فائدة : ٤

جاء في رواية في آخر الحديث (ولا يهلك على الله هالك).

قال ابن رجب رحمه الله: يعني بعد هذا الفضل العظيم من الله والرحمة الواسعة منه بمضاعفة الحسنات والتجاوز عن السيئات، لا يهلك على الله إلا من هلك، وألقى بيده إلى التهلكة، وتجرأ على السيئات، ورغب عن الحسنات، وأعرض عنها.

فائدة : ٥

أسلوب الترغيب والترهيب من أفضل أساليب التربية.

فائدة : ٦

اطلاع الملائكة على ما يهم به الإنسان.

فائدة : ٧

على المسلم أن ينوي فعل الخير دائماً وأبداً، لعله يكتب له أجره وثوابه.

فائدة : ٨

الحث على العمل الصالح والمسارعة فيه.

٣٨-عَنْ أَبِي هُرَيرة ﷺ قالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ (إنَّ الله تَعالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً، فَقَدْ آذنتُهُ بالحربِ، وما تَقَرَّب إليَّ عَبْدِي بشيءٍ أحَبَّ إليَّ مِمَّا افترضتُ عَليهِ، ولا يَزالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الّذي يَسمَعُ بهِ، وبَصَرَهُ الّذي يُبْصِرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطُشُ بها، ورِجْلَهُ الّتي يَمشي بِها، ولَئِنْ سألَنِي لأُعطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ) رواهُ البخاريُّ .

==========

(عادى) أي آذى.

(ولياً) الولي: هو المؤمن التقي كما بينه الله بقوله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

(آذنته) أعلمته.

فائدة : ١

قوله **(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقْد آذَنْتهُ بِالْحَرْبِ)** فيه فضيلة أن يكون الإنسان ولياً من أولياء الله.

قال الصنعاني -رحمه الله- الوليُّ: هو المؤمن المتَّقِي، كما فسره الله بذلك في قوله (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) فهذا تفسيره تعالى للولي لا يُقبل غيره، ويُرْشِد إليه قوله آخر الحديث: نَفْسَ المؤمن .

قال ابن حجر –رحمه الله– المراد بولي الله: العالِم بالله، المواظِب على طاعته، المخلِص في عبادته، وقد استُشكل وجود أحدٍ يعاديه؛ لأن المعاداة إنما تقع من الجانبين، ومِن شأن الولي الحِلم والصفح عمَّن يجهل عليه.

وولاية الله ليست بالدعاوى والكلمات وإنما بالعمل وبشروطها:

أولاً: الإيمان بالله.

ثانياً: تقوى الله.

قال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ).

فائدة : ٢

قوله (**فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**) .

قال ابن رجب –رحمه الله– قوله –عزَّ وجلَّ– (فقد آذَنْتُهُ بالحرب) يعني: فقد أَعْلَمْتُه بأني مُحَارب له، حيث كان محاربًا لي بمعاداة أوليائي .

ففيه تحريم معاداة أولياء الله، والمعنى: فقد أعلمته أني محارب له.

فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ).

وقال تعالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ).

ومن صفات أولياء الله كما قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ).

قال الطوفي: لما كان وليُّ الله مَن تولى الله بالطاعة والتقوى تولاه الله بالحفظ والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأنَّ عدوَّ العدو صديق، وصديق العدو عدو، فعدُو وليّ الله عدوُّ الله، فمن عاداه كان كمن حاربه، ومن حاربه فكأنما حارب الله.

وقال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– فالذي يعادي أولياء الله محارِب لله –عزَّ وجلَّ– نسأل الله العافية، ومَن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة.

فائدة : ٣

قوله (**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ**) فيه أن أفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه الفرائض.

فالصلاة الفرض أفضل من الصلاة النفل، والصوم الفرض أفضل من الصوم النفل وهكذا.

فائدة : ٤

قوله (**وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**) فيه أن من أسباب محبة الله كثرة النوافل والتقرب إلى الله بها بعد الفرائض.

قال ابن رجب: فقسم أولياءه المقربين إلى قسمين:

أحدهما: من تقرب إليه بأداء الفرائض، ويشمل ذلك فعل الواجبات، وترك المحرمات.

والثاني: من تقرب إليه بعد الفرائض بالنوافل.

فائدة : ٤

أن من أسباب محبة الله كثرة النوافل، وهناك أسباب كثيرة تنال بها محبة الله ذكرها ابن القيم في كتابه: مدارج السالكين وهي:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والفهم لمعانيه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها.

السادس: مشاهدة برّهِ وإحسانه وآلائه ونعمه الباطنة والظاهرة.

السابع: – وهو من أعجبها – انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله.

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبوب إلى منزلة المحبة

فائدة : ٥

الحديث دليل على أنه لا طريق يوصل إلى الله إلا بمحبته وطاعته التي شرعها على لسان رسوله.

فمن ادعى ولاية الله والتقرب إليه ومحبته بغير هذه الطريق، تبين أنه كذاب في دعواه.

فائدة : ٦

قوله (**ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل** ...) فيه فضل المداومة على العمل الصالح، فلا يعتبر الإنسان متقرباً إلى الله بالنوافل محافظاً عليها إلا باستمراره على هذه الطاعة، وإلا فلا يعتبر متقرباً إلى الله بالنوافل.

ومن أعظم فضائل المداومة على العمل الصالح:

أولاً: أن هذا عمل يحبه الله.

كما قال ﷺ (أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل) متفق عليه.

قال النووي: وإنما كان القليل الدائم خيراً من الكثير المنقطع لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافاً كثيرة.

وقال ابن الجوزي: إنما أحب العمل الدائم لمعنيين:

أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمعرض بعد الوصول، فهو متعرض لهذا.

والثاني: أن مداومة الخير ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتاً ما كمن لازم يوماً كاملاً ثم انقطع.

ثانياً: أن هذا هو هدي النبي ﷺ .

كما قال عائشة قالت (كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملاً أثبته) رواه مسلم.

وعنها قالت (وكان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملاً أثبتوه) متفق عليه، أي: لازموه وداوموا عليه.

وعنها قالت (كان عمله – يعني النبي ﷺ ديمة) رواه مسلم، (دِيمة) بكسر الدال أي: دائماً.

وقال لعبد الله بن عمرو (لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل) رواه مسلم.

ثالثاً: أن المداومة على العمل الصالح سبب لمحبة الله.

كما في حديث الباب (ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ...) رواه البخاري.

رابعاً: أن المداومة سبب لإظلال العبد في ظل الله.

كما قال ﷺ في حديث (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظله إلا ظله: وذكر منها: وشاب نشأ في عبادة الله ...) ومن المعلوم أنه لابد من الاستمرار على ذلك ليحصل على الأجر.

خامساً: أن المداومة سبب لطهارة القلب من النفاق.

لأن المنافق تثقل عليه العبادة والطاعة ولا يستطيع أن يستمر بها (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى).

وفي الحديث (من حافظ على تكبيرة الإحرام أربعين يوماً كتبت له براءتان، براءة من النفاق، وبراءة من النار).

سادساً: أن المداومة على العمل سبب للنجاة من الشدائد.

في الحديث قال ﷺ (تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة) رواه الترمذي.

سابعاً: أن المداومة على العمل فيه دوام اتصال القلب بالله.

وهذا يزيد القلب قوة وثباتا ونشاطاً وتوكلاً وتعلقاً بالله.

ثامناً: أن المداومة على العمل ترويض للنفس على الطاعة.

ولهذا قيل: نفسك إن لم تشغلها بالطاعة شغلتك بالمعصية.

فائدة : ٧

قوله (**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا**) فيه أن الله إذا أحب إنساناً وفقه وسدده، ففي بصره فلا يرى إلا خيراً، وفي سمعه فلا يسمع إلا خيراً، وفي يده فلا يبطش إلا على حق . وفي رجله فلا يمشي إلا إلى خير . وإذا سأله أعطاه وأجاب دعاءه، وأعاذه مما يكره .

قال ابن كثير: فمعنى الحديث، أن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل، فلا يسمع إلا الله، ولا يبصر إلا الله، أي: ما شرعه الله له، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل، مستعينا بالله في ذلك كله؛ ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح، بعد قوله (ورجله التي يمشي بها) (فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي).

وقال ابن رجب: ... فحينئذ لا ينطق العبد إلا بذكره، ولا يتحرك إلا بأمره، فإن نطق، نطق بالله، وإن سمع، سمع به، وإن نظر، نظر به، وإن بطش، بطش به، فهذا هو المراد بقوله (كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها).

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- أن الله تعالى يُسدد هذا الولي في سمعه وبصره وعمله؛ بحيث يكون إدراكه بسمعه وبصره، وعمله بيده ورجله كله لله تعالى إخلاصًا، وبالله تعالى استعانةً، وفي الله تعالى شرعًا واتباعًا، فيتم له بذلك كمال الإخلاص والاستعانة والمتابعة، وهذا غاية التوفيق، وهذا ما فسره به السلف، وهو تفسير مطابق لظاهر اللفظ، موافق لحقيقته، متعيّن بسياقه، وليس فيه تأويل، ولا صرف للكلام عن ظاهره. ولله الحمد والمنة.

فائدة : ٨

الحديث دليل على الأعمال الصالحة تتفاضل من حيث الجنس ومن حيث النوع.

فمن حيث الجنس: الفرائض أحب إلى الله من النوافل.

ومن حيث النوع: الصلاة أحب إلى الله مما دونها من الفرائض.

فائدة : ٩

في الحديث فائدة من فوائد النوافل وهي محبة الله، وهناك فوائد كثيرة وحكم عظيمة من شرعية النوافل والتطوعات:

منها: محبة الله.

كما في حديث الباب.

ومنها: جبر ما يكون فيها من التقصير والخلل.

كما قال ﷺ (إن أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، يقول ربنا تعالى لملائكته – وهو أعلم بهم – انظروا في صلاة عبدي، أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كان انتقص منها شيئاً، قال: انظروا هل لعبدي من تطوع، فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته من تطوعه) رواه أبو داود.

ومنها: تحصيل الثواب والأجر على ذلك.

ومنها: توطين النفس وتمرينها على العبادة لتعتاد على ذلك.

ومنها: صلاح القلب وطهارته.

ومنها: شغل الوقت بأفضل الطاعات.

ومنها: الاقتداء بالنبي ﷺ .

فائدة : ١٠

قوله (**وَلَئِنْ سأَلَنِي لأُعطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ استَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**) .

قال الشيخ ابن عثيمين –رحمه الله– هذه من ثمرات النوافل ومحبة الله –عزَّ وجلَّ– أنه إذا سأل الله أعطاه.

قال ابن رجب –رحمه الله– يعني: أن هذا المحبوب المقرَّب له عند الله منزلة خاصة تقتضي أنه إذا سأل الله شيئًا أعطاه إياه، وإن استعاذ به من شيء أعاذه منه، وإن دعاه أجابه، فيصير مجاب الدعوة؛ لكرامته على ربه –عزَّ وجلَّ–، وقد كان كثير من السلف الصالح معروفًا بإجابة الدعوة .

وقال ابن هبيرة –رحمه الله– قوله (لئن سألني لأعطينه) يدل على أن العبد إذا صار من أهل حب الله –سبحانه وتعالى– لم يمتنع عن أن يَسأل ربه حوائجه، ولا أن يستعيذ به مما يخافه، وقد كان الله –عزَّ وجلَّ– قادرًا على أن يعطيه قبل أن يَسأل، وأن يعيذه قبل أن يستعيذه، ولكن جل جلاله متعرِّف إلى عباده بإعطاء السائلين، وإعاذة المستعيذين، فكان سؤال هذا العبد محبِّبًا إلى ربه في عبادة منه له .

فائدة : ١١

فضل الدعاء والالتجاء إلى الله .

فائدة : ١٢

التحذير من ظلم الصالحين .

فائدة : ١٣

أن الأعمال تتفاضل ، فالفرائض أحب إلى الله من النوافل، وفيه رد على من ينشغل بالمستحبات ويضيّع الواجبات.

فائدة : ١٤

الاستقامة طريق الولاية ، فالولاية ليست بالدعاوى أو الأنساب أو المظاهر، وإنما بالطاعة والتقوى.

فائدة : ١٥

دوام الطاعة سبب للوصول .

فائدة : ١٦

سلامة الجوارح ثمرة الإيمان، فإذا امتلأ القلب بمحبة الله أثّر ذلك على السمع والبصر واليد والرجل، فلا تستعمل إلا في الخير غالبًا.

٣٩-عَنِ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَالَ (إنَّ الله تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسيانَ، وما استُكْرِهُوا عليهِ) حديثٌ حسَنٌ رَواهُ ابنُ ماجهْ والبَيَهقيُّ وغيرهما.

==========

(**تجاوز**) عفا .

(**أمتي**) أمة الإجابة .

(**الخطأ**) وهو ضد العمد وهو أن يفعل الشيء يظن صوابه فيتبين ضد قصده .

(**والنسيان**) الذهول عن الشيء .

(**وما استكرهوا عليه**) الإكراه : هو إلزام الشخص بما لا يريد .

فائدة : ١

منزلة هذا الحديث :

قال الطوفي -رحمه الله- هذا الحديث عام النّفع، عظيم الوقع، وهو يصلح أن يُسمّى نصف الشريعة؛ لأن فعل الإنسان إما أن يصدر عن قصدٍ واختيارٍ، وهو العَمد مع الذِّكر اختيارًا، أو لا عن قصدٍ واختيارٍ، وهو الخطأ والنسيان، أو الإكراه، وهذا القسم معفوٌ عنه، والأول مؤاخذ به، فإذن هذا الحديث نصف الشريعة بهذا الاعتبار. والعفو عن هذه الأفعال هو مُقتضى الحِكمة والنَّظر مع أن الله -عزّ وجلّ- لو وَاخَذَ بها لكان عادلًا.

وقال المناوي -رحمه الله- حديث جليل ينبغي أن يُعدَّ نصف الإسلام؛ لأن الفعل إما عن قصد واختيار أو لا، الثاني: ما يقع عن خطأ أو إكراه أو نسيان، وهذا القسم معفو عنه اتفاقًا.

فائدة : ٢

سعة رحمة الله بعباده ، حيث رفع الإثم عنهم إذا صدرت المخالفة نسياناً أو خطأ أو إكراهاً .

فائدة : ٣

أن جميع المحرمات إذا فعلها الإنسان جاهلاً أو ناسياً أو مكرهاً فلا شيء عليه فيما يتعلق بحق الله ، أما حق الآدمي فلا يعفى عنه من حيث الضمان .

أمثلة :

رجل قص شعره وهو محرم جاهلاً ، فلا شيء عليه .

رجل تكلم بالصلاة ناسياً ، فصلاته صحيحة ولا شيء عليه .

رجل قتل شخص آخر عمداً ، فلا إثم عليه ، وإن كان هذا لا يعفيه من المطالبة بالدية والكفارة .

رجل أكره على الأكل والشرب في نهار رمضان ، فصومه صحيح ولا شيء عليه .

رجل أكل في نهار رمضان ناسياً ، فصومه صحيح ولا شيء عليه .

رجل نسي صلاة ، فلا إثم عليه ويقضيها .

فائدة : ٤

أن هذه الأمور الثلاثة : الخطأ ، والنسيان ، والإكراه سبب للتخفيف ومنع التكليف :

الأول : النسيان :

وهو ذهول القلب عن الشيء وعدم تذكره .

والدليل على أنه سبب للتخيف ومانع من موانع التكليف .

قوله تعالى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال الله تعالى كما في صحيح مسلم (قد فعلت) .

ولحديث الباب .

الثاني : الخطأ .

وهو ضد العمد .

والدليل على أنه سبب للتخفيف ومانع من موانع التكليف .

قوله تعالى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) .

وقوله تعالى (ولا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) .

حديث الباب .

الثالث : الإكراه .

وهو : حمل الغير على أمر لا يرضاه لو خلي ونفسه ، بارتكاب النهي أو ترك الأمر .

والدليل على أنه سبب للتخفيف ومانع من موانع التكليف قوله تعالى (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) .

ولحديث الباب .

فمن أكره على طلاق زوجته ، فإنها لا تطلق .

من أكره على الكفر ، وقلبه مطمئن بالإيمان ، فلا شيء عليه .

شروط الإكراه ليكون سبباً للتخفيف :

أولاً : أن يكون المكرِه قادر على إيقاع ما هدد به .

ثانياً : أن يكون المكرَه عاجزاً عن دفع هذا المكرِه .

ثالثاً : أن يكون هذا الإكراه مما يشق على المكرِه تحمله .

رابعاً : أن يظن أو يعلم المكرَه أن المكرِه سيوقع ما هدد به .

فائدة : ٥

هذه الموانع سبب للتخفيف في حقوق الله ، لأنه مبني على العفو والرحمة ، وأما في حقوق الآدميين فلا تمنع من ضمان ما يجب ضمانه إذا لم يرض صاحب الحق بسقوطه .

فائدة : ٦

لا يكون الإكراه سبباً للتخفيف في حالة واحدة ، وهي إذا أكره على قتل شخص ، فليس له أن يقتله حتى لو أدى إلى قتله ، وحكى بعض العلماء الإجماع على ذلك ، لأن قتله له افتداء لنفسه فيكون باختياره .

فائدة : ٧

بيان رحمة الله ، حيث لا يكلف نفساً إلا وسعها . أي إلا طاقتها .

فائدة : ٨

شرف هذه الأمة على غيرها .

فائدة : ٩

النسيان من صفات الإنسان .

٤٠-عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: أَخَذَ رَسولُ الله ﷺ بِمَنكِبِي، فقال: (كُنْ فِي الدُّنيا كأَنَّكَ غَرِيبٌ، أو عَابِرُ سَبيلٍ) وكانَ ابنُ عَمَر يَقولُ: إذا أَمسيتَ، فَلا تَنتَظِرِ الصَّباح، وإذا أَصْبَحْتَ فلا تَنتَظِرِ المساءَ، وخُذْ مِنْ صِحَّتِك لِمَرضِكَ، ومنْ حَياتِكَ لِمَوتِكَ. رواهُ البُخاريُّ.

==========

(**أخَذَ**) أمسك.

(**بِمَنْكِبِي**) المنكب: مجتمع رأس العضد والكتف.

(**كأنك غريب**) أي: مثل الغريب، والغريب هو البعيد عن وطنه.

(**أو عابر سبيل**): قيل: أو للتخيير، وقيل بمعنى: بل.

فائدة : ١

الحديث دليل على الحث على الزهد في الدنيا وقصر الأمل.

والزهد في الدنيا: هو ترك مالا ينفع في الآخرة، والورع: ترك ما تخاف ضرره في الآخرة.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد والورع وأجمعها.

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول: ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين.

قال ابن القيم: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وأصعبه الزهد في الحظوظ ... (الفوائد)

فائدة : ٢

قال النووي في شرح الحديث: معناه لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بماء يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله. (نووي)

وقال ابن رجب: وإذا لم تكن الدنيا للمؤمن دار إقامة، ولا وطناً، فينبغي للمؤمن أنْ يكون حالُه فيها على أحد حالين:

أ-إما أنْ يكونَ كأنَّه غريب مقيمٌ في بلد غُربةٍ، هَمُّه التزوُّد للرجوع إلى وطنه.

ب- أو يكون كأنَّه مسافرٌ غير مقيم البتَّة، بل هو ليله ونهارَه، يسيرُ إلى بلدِ الإقامة.

فلهذا وصّى النَّبيُّ ﷺ ابنَ عمر أنْ يكونَ في الدُّنيا على أحد هذين الحالين.

فأحدهما: أنْ ينْزِل المؤمن نفسه كأنَّه غريبٌ في الدنيا يتخيَّلُ الإقامةَ، لكن في بلد غُربةٍ، فهوَ غيرُ متعلِّقِ القلب ببلد الغربة، بل قلبُه متعلِّقٌ بوطنه الذي يَرجِعُ إليه، وإنّما هو مقيمٌ في الدنيا ليقضي مَرَمَّةَ جهازه إلى الرجوع إلى وطنه.

قال الفضيلُ بن عياض: المؤمن في الدنيا مهمومٌ حزين، همُّه مَرَمَّةُ جهازه.

ومن كان في الدنيا كذلك، فلا همَّ له إلا في التزوُّد بما ينفعُه عندَ عودِه إلى وطنه، فلا يُنافِسُ أهلَ البلدِ الذي هو غريبٌ بينهم في عزِّهم، ولا يَجْزَعُ من الذلِّ عندهم.

قال الحسن: المؤمن في الدُّنيا كالغريب لا يجزع من ذُلها، ولا يُنافِسُ في عِزِّها، له شأنٌ، وللناس شأن.

الحال الثاني: أن يُنْزِلَ المؤمنُ نفسَه في الدنيا كأنَّه مسافرٌ غيرُ مقيم البتة، وإنَّما هو سائرٌ في قطعِ منازل السَّفر حتّى ينتهي به السفرُ إلى آخره، وهو الموت.

ومن كانت هذه حالَه في الدنيا، فهمَّتُه تحصيلُ الزاد للسفر، وليس له هِمَّةٌ في الاستكثار من متاع الدنيا.

ولهذا أوصى النَّبيُّ ﷺ جماعةً من أصحابه أن يكونَ بلاغُهم من الدُّنيا كزادِ الرَّاكب.

قيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحتَ؟ قال: ما ظَنُّك برجل يرتَحِلُ كلَّ يومٍ مرحلةً إلى الآخرة؟

وقال الحسن: إنَّما أنت أيامٌ مجموعة، كلّما مضى يومٌ مضى بعضُك.

ففي هذا الحديث التزهيد في الدنيا، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتخذها وطناً يركن إليها، وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر.

فائدة : ٣

وقد زهد الله في الدنيا وبيّن خستها وحقارتها:

فقال تعالى (ما عندَكم يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ).

وقال تعالى (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ).

وقال تعالى (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ).

وقال تعالى (قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

وقال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

وقال تعالى (وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

وقال تعالى (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً. وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا).

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيراً أقام في قلبه شاهداً يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

قال ابن رجب: فأمَّا الزُّهد في الدُّنيا، فقد كثُر في القُرآن الإشارة إلى مدحه، وإلى ذمّ الرغبة في الدُّنيا.

قال تعالى (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

وقال تعالى (تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنيا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ).

وقال تعالى في قصة قارون (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ) إلى قوله (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).

وقال تعالى (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنيا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنيا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ).

وقال (قُلْ مَتَاعُ الدُّنيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً).

وقال حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنَّه قال لقومه (يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنيا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وقد ذمَّ الله مَنْ كان يُريد الدُّنيا بعمله وسعيه ونيَّته.

وقال رحمه الله: وهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً، فيطمئنّ فيها، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل.

وقد اتَّفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم، قال تعالى حاكياً عن مؤمن آل فرعون أنّه قال (يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ).

وكان النَّبيُّ ﷺ يقول (مالي وللدُّنيا إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كمثل راكبٍ قالَ في ظلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركها).

ومن وصايا المسيح عليه السلام لأصحابه أنَّه قال لهم: اعبُروها ولا تَعمُرُوها.

ورُوي عنه أنَّه قال: من ذا الذي يبني على موجِ البحر داراً، تلكُمُ الدُّنيا، فلا تتَّخذوها قراراً.

ودخل رجلٌ على أبي ذرٍّ، فجعل يُقلِّب بصره في بيته، فقال: يا أبا ذرٍّ، أين متاعُكم؟ قالَ: إنَّ لنا بيتاً نوجه إليه، قالَ: إنَّه لابدَّ لك من مَتاع ما دمت ها هنا، قالَ: إنَّ صاحب المنْزل لا يدعُنا فيه.

ودخلوا على بعض الصالحين، فقلبوا بصرهم في بيته، فقالوا له: إنَّا نرى بيتَك بيتَ رجلٍ مرتحلٍ، فقال: أمرتحلٌ؟ لا، ولكن أُطْرَدُ طرداً.

وكان عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يقول: إنَّ الدُّنيا قدِ ارتحلت مدبرةً، وإنَّ الآخرة قدِ ارتحلت مقبلةً، ولكُلٍّ منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليومَ عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل.

قال بعضُ الحكماء: عجبتُ ممَّنِ الدُّنيا مولية عنه، والآخرة مقبلةٌ إليه، يشتغلُ بالمدبرة، ويُعرِض عن المقبلة.

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيز في خطبته: إنَّ الدُّنيا ليست بدارِ قرارِكُم، كتب الله عليها الفناء، وكتب على أهلها منها الظَّعَن، فكم من عامرٍ موثَّق عن قليلٍ يَخْرَبُ، وكم من مقيمٍ مُغتَبِطٍ عما قليل يَظعَنُ، فأحسنوا -رحمكم الله- منها الرِّحلة بأحسن ما بحضرتكم مِنْ النقلة، وتزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّاد التقوى.

وقال: ابنَ آدم إنَّما أنت بين مطيتين يُوضعانِكَ، يُوضِعُك النهار إلى الليل، والليل إلى النهار، حتى يُسلِمَانِك إلى الآخرة، فمن أعظم منك يا ابنَ آدم خطراً.

وقال: الموتُ معقود في نواصيكم والدنيا تُطوى مِنْ ورائكم.

قال داود الطائي: إنَّما الليلُ والنهارُ مراحلُ يَنْزِلُها الناسُ مرحلةً مرحلةً حتى ينتهي ذلك بهم إلى آخر سفرهم، فإنِ استطعت أن تُقدِّم في كلِّ مرحلة زاداً لِما بَينَ يديها، فافعل، فإنَّ انقطاع السَّفر عن قريب ما هو، والأمر أعجلُ من ذلك، فتزوَّد لسفرك، واقض ما أنتَ قاضٍ من أمرك، فكأنَّك بالأمر قد بَغَتك.

وكتب بعضُ السَّلف إلى أخٍ له: يا أخي يُخيَّلُ لك أنَّك مقيم، بل أنتَ دائبُ السَّيرِ، تُساق مع ذلك سوقاً حثيثاً، الموت موجَّهٌ إليك، والدنيا تُطوى من ورائك، وما مضى من عمرك، فليس بكارٍّ عليك حتى يَكُرَّ عليك يوم التغابن.

قال بعضُ الحكماء: كيف يفرحُ بالدنيا من يومُه يَهدِمُ شهرَه، وشهرُه يهدِمُ سنَتَه، وسنته تَهدِمُ عُمُرَه، وكيف يفرح من يقوده عمرُه إلى أجله، وتقودُه حياتُه إلى موته.

وقال الفضيلُ بنُ عياض لرجلٍ: كم أتت عليك؟ قال: ستون سنة، قال فأنت منذ ستين سنة تسيرُ إلى ربِّك يُوشِكُ أنْ تَبلُغَ، فقال الرجل: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، فقال الفضيلُ: أتعرف تفسيرَه تقول: أنا لله عبد وإليه راجع، فمن عَلِمَ أنَّه لله عبد، وأنَّه إليه راجع، فليعلم أنَّه موقوفٌ، ومن علم أنَّه موقوف، فليعلم أنَّه مسؤول، ومن عَلِمَ أنَّه مسؤولٌ، فليُعِدَّ للسؤال جواباً، فقال الرجل: فما الحيلةُ؟ قال: يسيرة، قال: ما هي؟ قال: تُحسِنُ فيما بقي يُغفَرُ لك ما مضى فإنّك إنْ أسأتَ فيما بقي، أُخِذْتَ بما مضى وبما بقي.

قال الحسن: لم يزل الليلُ والنهار سريعين في نقص الأعمار، وتقريبِ الآجال، هيهات قد صحبا نوحاً وعاداً وثمودَ وقروناً بين ذلك كثيراً، فأصبحوا قَدِموا على ربِّهم، ووردوا على أعمالهم، وأصبح اللَّيلُ والنَّهارُ غضَّيْنِ جديدين، لم يُبلِهُما ما مرَّا به، مستعدِّين لمن بقي بمثل ما أصابا به من مضى.

وكتب الأوزاعيُّ إلى أخٍ له: أما بعد، فقد أُحيطَ بك من كلّ جانب، واعلم أنَّه يُسارُ بك في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فاحذرِ الله، والمقام بين يديه، وأنْ يكونَ آخر عهدك به، والسَّلام.

ترحَّل من الدُّنيا بزادٍ من التُّقى فعُمْرُكَ أيامٌ وهُنَّ قَلائِلُ (جامع العلوم والحكم)

فائدة : ٤

من أعظم فضائل الزهد في الدنيا : أن ينال العبد محبة الله .

كما في الحديث –وقد تقدم– (ازهد في الدنيا يحبك الله) .

وتقدمت فضائل الزهد .

فائدة : ٥

قال ابن القيم: والذي يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أنها ظل زائل، وخيال زائر، وأنها كما قال تعالى (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ..).

الثاني: علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً، وأجل خطراً، وهي دار البقاء.

الثالث: معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئاً كتب له منها، وأن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يقض له منها، فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ..

فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها وتثبت قدمه في مقامه والله الموفق لمن يشاء. ... (طريق الهجرتين)

فائدة : ٦

امتثل ابن عمر وصية رسول الله ﷺ قولاً وعملاً.

أما قولاً، فإنه كان يقول: إذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

وأما في الفعل: فقد كان ﷺ على جانب كبير من الزهد فيها والقناعة منها باليسير الذي يقيم صلبه ويستر بدنه، وما سوى ذلك يقدمه لغده.

قال جابر بن عبد الله: ما رأينا أحداً إلا قد مالت به الدنيا أو مال بها إلا عبد الله بن عمر.

وقالت عائشة: ما رأيت أحداً ألزم للأمر الأول من ابن عمر.

فائدة : ٧

الحث على قصر الأمل، وهو العلم بقرب الرحيل.

قال ابن القيم: وهو من أنفع الأمور للثبات على الطاعات، فإنه يبعث على انتهاز فرصة الحياة التي تمر مر السحاب، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحث على قضاء جهاز سفره وتدارك الفائت، ويزهد في الدنيا، ويرغب في الآخرة. فكلما قصر الأمل جد العمل، لأن العبد يقدِّرُ أنه يموت اليوم فيستعد استعداد ميت، فإذا أمسي شكر الله تعالى على السلامة، وقدر أن يموت تلك الليلة فيبادر إلى العمل، وقد ورد الشرع بالحث على العمل والمبادرة إليه، فقد أوصى النبي ﷺ ابن عمر فقال له: (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل).

وقال ابن رجب: وهذا الحديث أصلٌ في قِصَر الأمل في الدنيا، وأنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يتَّخذ الدُّنيا وطناً ومسكناً، فيطمئنّ فيها، ولكن ينبغي أنْ يكونَ فيها كأنَّه على جناح سفر: يُهَيِّئُ جهازَه للرحيل. ... (جامع العلوم)

فليس هناك أنفع للقلب من قصر الأمل (وهو العلم بقرب الرحيل).

قال الفضيل: من الشقاء طول الأمل، ومن النعيم قصر الأمل.

قال ابن القيم: يكفي في قصر الأمل:

قوله تعالى (أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

وقوله تعالى (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ).

وقوله تعالى (كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا).

وقوله تعالى (قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ. قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ).

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً والشمس على رؤوس الجبال فقال: إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه.

ثم قال رحمه الله: وقصر الأمل بناؤه على أمرين:

تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ..... وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها

٤١ –عَنْ عبدِ الله بن عَمرو بنِ العاص رضي الله عنهما، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ (لا يُؤمِنُ أَحدُكُم حتّى يكونَ هَواهُ تَبَعاً لِما جِئتُ بِهِ) حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ، رَويناهُ في كِتابِ " الحُجَّة " بإسنادٍ صحيح! .

==========

(**لا يؤمن أحدكم**) أي الإيمان الكامل .

(**هواه**) ما يهواه ويقصده ويحبه ، وسمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه .

(**لما جئت به**) أي من الشريعة .

فائدة : ١

لا يكمل إيمان أحد حتى يكون هواه وميله إلى الشريعة وتحكيمها .

فائدة : ٢

أن من كان هواه وميله لما جاءت به الشريعة فهو كامل الإيمان .

فائدة : ٣

التحذير من اتباع الهوى .

وقد حذر الله من اتباع الهوى .

فقال تعالى (يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله) .

واتباع الهوى هو منشأ المعاصي .

قال تعالى (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله) .

ومتبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع .

قال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) .

واتباع الهوى من المهلكات .

قال ﷺ (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه) .

الهوى حظار جهنم المحيط بها ، فمن وقع فيه وقع .

قال ﷺ (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) متفق عليه .

أن الله سبحانه جعل متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن .

قال تعالى (أرءيت من اتخذ إلهه هواه) .

فائدة : ٤

كيفية التخلص من الهوى المذموم :

أولاً : جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

ثانياً : فرحه بغلبة عدوه وقهره له ورده خاسئاً بغيظه وغمه وهمه حيث لم ينل منه أمنيته .

ثالثاً : أن مخالفة الهوى تورث قوة في بدنه وقلبه ولسانه .

قال بعض السلف : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة وحده .

وفي الحديث (ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) متفق عليه .

رابعاً : أن جهاد الهوى من أعظم الجهاد .

قال ابن القيم : سمعت شيخنا يقول : جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى يخرج إليهم .

فائدة : ٥

وجوب الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى .

قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) .

فائدة : ٦

أن الشريعة كاملة .

فائدة : ٧

الإيمان يزيد وينقص لقوله (لا يؤمن أحدكم ..) أي الإيمان الكامل .

وعقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان .

قال تعالى ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ليزدادوا إيماناً ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ليزدادوا لإيماناً مع إيمانهم ﴾ .

ووصف النبي ﷺ النساء بنقصان العقل والدين .

وكان عمر يقول : '' هلموا نزدد إيماناً '' .

وكان ابن مسعود يقول : ''اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً '' .

وكان معاذ بن جبل يقول لرجل : "اجلس بنا نؤمن ساعة" .

٤٢-عَنْ أَنسِ بن مالكٍ ﷺ، قَالَ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يَقولُ (قالَ اللهُ تَعالى: يا ابنَ آدَمَ، إنَّكَ ما دَعَوتَني ورَجَوتَني غَفَرتُ لك على ما كانَ مِنكَ ولا أُبالي، يا ابن آدمُ لَوَ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استَغفَرتَني، غَفَرْتُ لكَ، يا ابنَ آدم إنَّك لو أَتَيتَني بِقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثمَّ لَقِيتَني لا تُشركُ بِي شَيئاً، لأتيتُكَ بِقُرابها مغفرةً) رواهُ التِّرمذيُّ وقالَ: حديثٌ حَسَن.

==========

(لو أَتَيتَني بِقُرابِ الأرضِ خَطايا) (قُراب الأرض) أي: ملء الأرض. .

قال ابن الملك -رحمه الله- (بقراب الأرض) بضم القاف وكسرها والضم أشهر، أي: بملئها «خطايا» في تقدير النصب على التمييز من قراب الأرض.

فائدة : ١

في هذا الحديث الأسباب التي تحصل بها المغفرة .

فائدة : ٢

السبب الأول : الدعاء مع الرجاء .

لقوله (... **إنَّكَ ما دَعَوتَني ورَجَوتَني غَفَرتُ لك على ما كانَ مِنكَ ولا أُبالي**) .

فإن الدعاء مأمور به ، وموعود عليه بالإجابة .

قال تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) .

والدعاء عبادة .

قال ﷺ (الدعاء هو العبادة) رواه أبو داود .

والله يغضب إن لم يسأل .

قال ﷺ (من لم يسأل الله يغضب عليه) رواه ابن ماجه .

وينبغي حضور القلب ورجاء الإجابة .

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه) .

ولا يستعجل الإجابة .

قال ﷺ (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول دعوت فلم يستجب لي) متفق عليه .

وأن يعزم المسألة .

قال ﷺ (لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، ولكن ليعزم المسألة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء) متفق عليه .

وللداعي إحدى ثلاث :

قال ﷺ (ما من مسلم يدعو بدعوة ليس له فيها إثم أو قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلا: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يكشف عنه من السوء مثلها) رواه أحمد .

قال ابن الملقن –رحمه الله– الرجاء ضد اليأس: وهو تأميل الخير واعتقاد قرب وقوعه .

قال ابن رجب –رحمه الله– (ولا أُبَالِي) يعني: على كثرة ذنوبك وخطاياك، ولا يتعاظمني ذلك، ولا أستكثره، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال (إذا دعا أحدكم فليُعْظِم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء) فذنوب العبد وإن عظمت فإن عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم، فهي صغيرة في جنب عفو الله ومغفرته.

فائدة : ٣

فضيلة الرجاء .

وقد قال تعالى (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً).

وقال تعالى (أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

وقال ﷺ (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه).

وفي الصحيح عنه: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء).

وقد مدح الله تعالى أهله وأثنى عليهم:

فقال تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً).

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل: (يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي).

وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال (يقول الله عز وجل: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن اقترب إلي شبرا اقتربت إليه ذراعا وإن اقترب إلي ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة) رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه.

فقال تعالى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلا تَحْوِيلاً أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً).

يقول تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي يتقربون إلي بطاعتي ويرجون رحمتي ويخافون عذابي فلماذا تدعونهم من دوني فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب والخوف والرجاء.

والرجاء حاد يحدو القلوب إلى بلاد المحبوب وهو الله والدار الآخرة ويطيب لها السير.

وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى.

والفرق بينه وبين التمني أن التمني يكون مع الكسل ولا يسلك بصاحبه طريق الجد والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكل.

قال شاه الكرماني: علامة صحة الرجاء: حسن الطاعة.

قال ابن القيم رحمه الله: أجمع العارفون على أن الرجاء لا يصلح إلا مع العمل .

فائدة : ٤

السبب الثاني :وهو الاستغفار .

لقوله (**يا ابن آدمُ لَوَ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استَغفَرتَني، غَفَرْتُ لكَ**) .

فالاستغفار سبب لمحو السيئات .

كما قال تعالى (وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) .

وقال تعالى في الحديث القدسي (فاستغفروني أغفر لكم).

وقد جاء في الصحيحين: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (أن أَبِا بَكْرٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلاَتِي قَالَ «قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى ظُلْماً كَبِيراً - وَقَالَ قُتَيْبَةُ كَثِيراً - وَلاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيم) متفق عليه.

قال ابن رجب -رحمه الله- والمغفرة: هي وقاية شر الذنوب مع سترها.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- المغفرة: هي ستر الذّنب والتجاوز عنه.

قال البيضاوي: قوله (يا ابن آدمُ لَوَ بَلَغَتْ ذُنُوبُك عَنانَ السَّماءِ ...) والمعنى: أنه لو كثرت ذنوبك كثرةً تملأ ما بين السماء والأرض بحيث تبلغ أقطارها وتعم نواحيها. (ثم استغفرتني غفرت لك) جميعها غير مبالٍ بكثرتها، فإن استدعاء الاستغفار للمغفرة يستوي فيه القليل والكثير، والجليل والحقير.

فائدة : ٥

السبب الثالث : التوحيد ، وهو السبب الأعظم .

لقوله (يا ابنَ آدم إنَّك لو أَتَيتَني بِقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثمَّ لَقِيتَني لا تُشركُ بي شَيئاً، لأتيتُكَ بِقُرابِها مغفرةً) .

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- وهذا لا شكّ من نعمة الله وفضله، بأن يأتي الإنسان ربه بملء الأرض خطايا، ثم يأتيه -عزّ وجل- بقرابها مغفرة، وإلا فمقتضى العدل أن يعاقبه على الخطايا، لكنه -جل وعلا- يقوم بالعدل ويعطي الفضل. .

وفي هذا فضل عظيم للتوحيد .

فائدة : ٦

فضائل التوحيد :

أولاً: أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة.

لأن المُوَحِّد يعمل لله سبحانه وتعالى ، وعليه فهو يعمل سراً وعلانية ، أما غير الموحد كالمرائي مثلاً ، فإنه يتصدق ويصلي ويذكر الله إذا كان عنده من يراه فقط ، ولهذا قال بعض السلف: (إني لأود أن أتقرب إلى الله بطاعة لا يعلمها إلا هو).

ثانياً: أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون.

كما قال تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون).

ثالثاً: أن التوحيد يكفر الذنوب.

كما في حديث الباب (قال الله تعالى: يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة).

لأن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئاً.

رابعاً: التوحيد سبب لدخول الجنة.

قال ﷺ (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة) رواه مسلم.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسولُه، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل). متفق عليه

خامساً: أنه سبب لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب.

لحديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: (عرضت علي الأمم فرأيت النبي ... فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ... ثم قال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) متفق عليه.

سادساً: أن الله أثنى على الأنبياء بتوحيدهم وسلامتهم من الشرك.

قال تعالى: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

وقال تعالى (والذين هم بربهم لا يشركون).

سابعاً: أن التوحيد سبب للنجاة من عذاب الله.

لحديث الباب في رواية (هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُم).

ثامناً: أن الموحد حرام عليه النار.

عن عِتبان. قال: قال رسول الله ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله).

وهذا من فضل التوحيد أنه يحرم صاحبه على النار.

تاسعاً: والتوحيد أفضل ما نطق به الناطقون.

كما قال النبي ﷺ (أفضل الذكر لا اله إلا الله).

ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضلَ الكلام وأعظمَه، فأعظم آية في القرآن آية الكرسي (اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ...).

عاشراً: الموحد أسعد الناس بشفاعة النبي ﷺ .

ففي الصحيح أن أبا هريرة قال له (أي الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة) قال: (من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه).

قال ابن تيمية: ومن تدبر أحوال العالم وجد كلَّ صلاح في الأرض سببه توحيدُ الله وعبادتُه وطاعةُ رسوله، وكلَّ شرٍ في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليطِ عدو وغيرِ ذلك سببه مخالفة الرسول، والدعوة إلى غير الله، ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عموما وخصوصا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تنبيه : تحريم التوحيد لأهله على النار نوعان:

أحدهما: تحريم دخول ، وهذا حظ من كمُل توحيده.

والآخر: تحريم خلود ، وهذا حظ من استحق التطهير بالنار من أهل التوحيد ، فيدخلها ثم يُخرج منها ويُدخل الجنة فلا يخلد في النار أبداً ؟

وتحقيق التوحيد يحصل بالسلامة مما يضاد أصله أو كماله ، ومضادات التوحيد ترجع إلى ثلاثة أصول.

الأول: الشرك.

والثاني: البدعة.

والثالث: المعصية.

فالشرك ينافي التوحيد بالكلية ، والبدعة تنافي كماله الواجب ، والمعصية تقدح فيه وتنقص ثوابَه.

فيكون تحقيق التوحيد: هو السلامة من الشرك والبدعة والمعصية.

والمراد بالسلامة من المعصية هو المبالغة في شدة اجتنابها، لأن العبد كتب عليه حظه منها (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار ...).

فائدة : ٧

الشرك: هو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالى.

قال الذهبي: وهو أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وتعبد معه غيره من حجر أو بشر أو شمس أو قمر أو نبي أو شيخ أو غير ذلك. وهو أعظم ذنب عصي الله به، وأي ذنب أعظم من أن يجعل مع الله شريك في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته، وهو هضم للربوبية وتنقص للألوهية، وسوء ظن برب العالمين، وهو أقبح المعاصي، لأنه تسوية المخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: الشرك قد عرفه النبي ﷺ بتعريفٍ جامع كما في حديث ابن مسعود أنه قال: يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك» والند المثل والشبيه فمن صرف شيئاً من العبادات لغير الله فقد أشرك به شركاً يبطل التوحيد وينافيه.

وقال السعدي: إن حد الشرك الأكبر الذي يجمع أنواعه وأفراده أن يصرف العبد نوعاً أو فرداً من أفراد العبادة لغير الله فكل اعتقاد أو قولٍ أو عملٍ ثبت أنه مأمور به فيصرفه لغير الله -عز وجل- فهذا هو الشرك.

فائدة : ٨

خطر الشرك:

أولاً: المشرك حرام عليه الجنة.

قال تعالى (إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ).

وقال تعالى (ونادى أَصْحَابُ النار أَصْحَابَ الجنة أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المآء أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ الله قالوا إِنَّ الله حَرَّمَهُمَا عَلَى الكافرين).

عن ابن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال (من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار) رواه البخاري.

ولمسلم عن جابر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال (من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار).

ثانياً: الشرط سبب لحبوط العمل.

قال تعالى (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).

ثالثاً: هو أعظم الظلم.

قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فمن عبد غير الله فقد وضع العبادة في غير موضعها، وصرفها لغير مستحقها وذلك أعظم الظلم.

- لأن الظلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الشرك.

وهو أعظم الظلم وأشده.

كما قال تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ).

وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) أي: من المشركين.

قال ابن رجب: فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده وتألهه، فوضع الأشياء في غير موضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين، إنما أريد به المشركون كما قال الله تعالى (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ).

والثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي.

كما قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ).

والثالث: ظلم العبد لغيره.

كما في الحديث (قال الله تعالى: إني حرمت الظلم وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) رواه مسلم.

وقال ﷺ في خطبته في حجة الوداع (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا) متفق عليه.

وعن ابن عمر. قال: قال ﷺ (الظلم ظلمات يوم القيامة) متفق عليه.

رابعاً: هو أعظم الذنوب.

قال ﷺ لما سئل أي الذنب أعظم؟ قال (أن تجعل لله نداً وهو خلقك) متفق عليه.

خامساً: لا يغفر الله لصاحبه إذا مات من غير توبة.

قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً).

سادساً: هو أكبر الكبائر.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ). قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: (ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ). قَالَ: قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ: (ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ) متفق عليه.

وعن أبي بكرة قَالَ (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ - ثَلاَثاً - الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ». وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَّكِئاً فَجَلَسَ فَمَازَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ) متفق عليه.

وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْكَبَائِرِ قَالَ (الشِّرْكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَقَتْلُ النَّفْسِ وَقَوْلُ الزُّورِ) رواه البخاري.

- وقد أثنى الله على الأنبياء بتوحيدهم وسلامتهم من الشرك:

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

وقال تعالى (والذين هم بربهم لا يشركون).

سابعاً :والمشرك لا يرجى له خلاص.

قال تعالى (وَمَن يُشْرِكْ بالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السمآء فَتَخْطَفُهُ الطير أَوْ تَهْوِي بِهِ الريح فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ).

فائدة : ٩

الشرك أعظم الذنوب، وهو أظلم الظلم وذلك لأمور:

أولاً: لأن مضمونه تنقيص رب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره.

ثانياً: لأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى في خصائص الألوهية من ملك الضر والنفع والعطاء والمنع.

ثالثاً: هضم للربوبية، وتنقص للذات الإلهية.

رابعاً: سوء ظنٍ برب العالمين، فهو إذاً تسوية المخلوق الناقص بالخالق الكامل من جميع الوجوه، وأي ذنبٍ أعظم من أن يُجعل مع الله شريك في ألوهيته أو ربوبيته أو أسمائه وصفاته.

فائدة : ١٠

أنه لا يسلم أحد من الذنوب .

فائدة : ١١

وجوب الإيمان بلقاء الله ، لقوله (لقيتني) .

وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء الله فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) .

وقال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه) .

فملاقيه : أي ملاقي ربك ، وقيل : ملاقي عملك .

فائدة : ١٢

مَن أحسَن العملَ، واستغفَر من الزلل، ورجا ما عند من الله من خيرٍ ورحمةٍ، غفر الله له .